محمد الفزاري

اللايقين

حكاية

dar arab

منأى دفي الحبر

اللايقين

محمد الفزاري

اللايقين (حكاية)

Mohammed Alfazarii

Uncertainty (Novel)

الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-1-78871-016-9

حقوق الطبع محفوظة ©

دار عرب للنشر والترجمة

DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION

info@dararab.co.uk

www.dararab.co.uk

Copyrights © dararab 2018

يمنع نسخ أو استعمال أي جزءٍ من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

التدقيق اللغوي: **محمد الشحي**

صورة الغلاف والتصميم: **ناصر البدري**

محمد الفزاري

اللايقين

حكاية

دار عرب للنشر والترجمة
DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION
2018

عزيزي محمد

في الوقت الذي تقرأ فيه رسالتي هذه، لعل روحي قد فارقت جسدي إلى مثواها الأخير.

انشر سيرتي التي سأرفقها لك بعد هذه المحادثة، لكن ليس قبل مرور عام من تاريخ اليوم. لعلي أيضًا أتراجع عن أمري. وأتمنى ألا تجري أي تعديل على المسوّدة، انشرها كما هي أو.. لا تفعل.

أثق بك.

خالص شكري وامتناني،

صديقك الفيسبوكي الذي يعرفك جيدًا، ولا تعرفه

ما على الرسول إلا البلاغ، أنتم تعلمون ما أبدي وما أكتم.

محمد

مجهول

الحق ليس أبلج

مذكرات ذاتين

إهداء..

باسم الرب الذي يجمعنا ولا يفرقنا،

باسم الوطن الذي يحتضننا ولا ينبذنا،

باسم الكلمة التي تستوعبنا ولا تنفرنا،

باسم الحرية التي تفك أسر وعينا قبل أجسادنا،

باسم الكرامة التي ترفع شأن إنسانيتنا قبل اختلافاتنا،

باسم العدالة التي تساوي بين فقرائنا قبل أغنيائنا،

باسم الموت الذي ينصف أقدارنا،

إليك أهدي هذه الأسطر،

أنت

تنبيه..

عزيزي القارئ كل ما ستقرأه بعد هذه الصفحة هو واقع وليس من نسج خيال بنات أفكاري كما يعمد الكثير من الروائيين عند كتابة رواياتهم؛ إذ يحشونها بالكثير من الخيال واللاواقعية. كل الشخوص التي سأذكرها بلحمها وشحمها هي شخصيات واقعية، بعضها قابلتها صدفة لا قصدا، وبعضها الآخر قابلتها قاصدًا مستقصدًا.

ولن أكذب، ولن أتهرب، ولن أعتذر، لهذه الشخوص عن طريق عبارة يوردها في العادة بعض الروائيين في بداية، أو نهاية رواياتهم، تحاشيًا للإحراج أو خوفًا من المساءلة. لا أزعم بعد كل ما ذكرت أني شخص غير مبال ولا يكترث لمشاعر الشخوص التي سأذكرها، ولا أزعم كذلك أني لا أخاف بطش أيادي بعضها؛ لكني لا أملك خيارًا آخر إلا أن أسرد قصتي بكل تفاصيلها وواقعيتها. ما ستقرأه ليس.. رواية. اخرج الرواية التي في رأسك.

الكتابة صديق مقرب يجيد الاستماع، ولهذا أكتب؛
والقراءة إدمان ممتع يزيدك جهلًا وحيرة، ولهذا تقرأ.

الفصل الأول

أنا الحق ولا حق إلا أنا

حبل القدسية حول رقبتي؛

محاولة لولادة ثانية

1

لم أتصور يومًا أني سأتجرأ على كتابة هذه الكلمات وهذه الأسطر التي ستقودني إلى حتفي دون أدنى شك.

في البدء سينفيني المجتمع وقبل ذلك أسرتي، وسيحكم رجال الدين علي بالزندقة والضلال وبكل صفة يُنعت بها المهرطقون في العادة. أما السلطة وأجهزتها الاستخباراتية فقد سبق أن ذقت ردة فعلها قبل أن أتجرأ بنبس كلمة مما سأقوله الآن. ذقت الويل وتمنيت الموت. تمنيت لو أن أبي لم يلتق بأمي، لو امتنعت أمي في تلك الليلة الباردة متعللة بدورتها الشهرية.

أتذكر جيدًا ذلك اليوم الذي قضيته أحسب فيه الأشهر والأسابيع وحتى الساعات محاولًا فقط تحديد الوقت بالضبط الذي ولج أبي أمي. لم أتوقع أن خسة مخيلتي ستجنح أبعد من ذلك؛ فجلست أتخيل العلاقة منذ بدايتها حتى نهايتها. كأنني أتذكر أحد الأفلام الإباحية التي أدمنت مشاهدتها في فترة من فترات سنواتي العرجاء الماضية. ورغم محاولتي تخيل أبي وهو يداعب أمي، لم أتمكن من ذلك. كل ما استطعت تخيله هو مشهد حيواني بهيمي في ساعة متأخرة فجر يوم الجمعة بعد ليلة سكر ورائحة الويسكي تفوح من فمه. أبي يدخل الغرفة ويجد أمي نائمة تشخر من شدة التعب وحلاوة النوم. يبدأ أبي بشم شعر أمي ثم رقبتها فيهتاج كما يهتاج الثور وإذا به مباشرة يعري أمي بعد ما تأكد أن سيفه اللحمي أصبح جاهزًا لمعركته الحيوانية.

تستيقظ أمي وعلى وجهها علامات البرود وعدم الاكتراث بسبب تعودها على المشهد ذاته. تسهل عليه العملية وتعري أسفلها وتباعد بين

رجليها. يبدأ معركته بين كر وفر حتى فجأة بدأ يبعبع بكلمات غير مفهومة وهو يضرب فخذ أمي بيد ويمسك رقبتها بيده الأخرى. وكما بدأ هجمته مباغتة في ساحة الوغى، انتهت هجمته كصريع معركة كأن ضربة باغتته على رأسه؛ فاستلقى مثل الميت.

هكذا أتيت لهذه الحياة صدفة، لم يخطط والداي لذلك. لم يفرحا وقت تلقيهما خبر تكوُّني في رحم أمي. بعد مضي قرابة شهر من تلك الليلة الملعونة التي أتت بي لهذه الحياة، كانت أمي تتشاجر مع أبي كالمعتاد؛ فأغمي عليها وأخذها أبي إلى المستشفى وهو يلعن حاله لأنها ستأخره عن سهرته في نادي الضباط. لعنة هذه الصدفة تلاحقني حتى وأنا أكتب هذه الأسطر.

لا أنكر أني صادفت لحظات جميلة في حياتي، لكن مقابل ما عشته من قرون من البؤس فمن المؤكد أن تلك اللحظات تافهة لا تذكر.

أنا أكتب الآن ولا أعلم لمن أكتب ومن سيقرأ هذه الأسطر يومًا ما! لا يهم من سيقرؤها أو هل سيتمكن في الحقيقة أي إنسان من قراءتها يومًا ما، كل ما يهمني أن أتحدث، أن أعبر عما في قلبي من ألم حتى لو كان لهذه الشاشة التي أمامي. فلولا الكتابة، متنا همًّا وغمًّا.

حاولت كثيرًا التحدث عما في عقلي من دوامات، وما في قلبي من جروح لكن لم أجد شخصاً أستطيع أن أثق به، أو لعلي خفت من تكرار المحاولة الفاشلة التي قمت بها مع من اعتبرته صديقًا وفيًّا لي. مجرد تساؤلات بسيطة كل ما بحت به أمامه، لكن تلك المحاولة أخرست لساني بعد كل ما واجهته من جرائها. بعد خروجي من السجن وتغير قناعاتي نحو الحياة بشكل كلي قررت تغيير جل محيط أصدقائي ومعارفي واستثنيت من هذه الخطوة صديق طفولتي وجاري.

2

قبل ثلاثين سنة أتيت لهذه الحياة، بعد أخي الأكبر بسنتين. بكل كره، وحب أيضًا، أستطيع أن أقول إن هاتين السنتين هما من رسمتا مصير حياتي بعد ذلك. هما من اقتادتاني من لاوعيي إلى دروب كثيرة ومتنوعة ومتباعدة. دروب قد تكون من الصعوبة جدًّا أن تجتمع لكنها اجتمعت فيَّ. ويا ليتها توقفت عند ذلك الحد من المسافة، وعند ذلك الحد من الاختلاف، لكنها طالت أكثر وأخذتني إلى دروب فرعية بعضها كان ضيقًا، وبعضها الآخر كان ضيقًا جدًّا. والقليل جدًّا منها أستطيع أن أعتبرها دروبًا خضراء.

كنت أشعر بفرق معاملة أبي لأخي، وكان هذا يقتلني مبكرًا دون أن أدرك وقتها. أضمني وقت نومي بشدة لأعوضني عن فرق حنان ذراعي أبي اللتين كانتا أكثر كرمًا وتلطفًا وحبًّا على أخي الأكبر مني. كنت أشعر بالفرق ونحن في قسم الألعاب الذي عودنا أبي بزيارته بين حين وآخر وقت ذهابه للتسوق في مجمع الحي التجاري الذي لم يكن يبعد عن منزلنا إلا عشر دقائق بالسيارة تقريبًا.

كان أخي يستطيع أن يلعب العدد الذي يريد وما يريد ما دام أبي لم ينته بعد من تسوقه، في بعض الأحيان يرفض أبي لو كان الوقت أوشك على الانتهاء، لكن فقط دمعتان من أخي كانتا كفيلتين بتغيير الموقف بالكامل، وانتزاع الموافقة بسهولة. أتذكر مرة عندما حاولت تقليد أخي في أسلوبه الناجح، لكنني أتذكر أكثر كيف نهرني أبي بصرامة ووصفني بأنني غبي، وأنه كان عليّ أن أدرك أن وقت تسوقه قد انتهى! لم أعِ حينها ما علاقة غبائي بوقته.

في يوم عيد ميلادي السابع، أبي لم يأت إلا متأخرًا، قبل أن ننتهي بدقائق. وكل ما قام به وقت وصوله أن قبلني على عجلة ولم يبتسم لي. في عيد ميلادي الثامن، أبي لم يحضر نهائيًّا، ولا أذكر الآن لمَ لم يحضر. وفي عيد ميلادي التاسع كان أبي في مهمة عمل خارج البلد. ومن ذلك اليوم قررت ألا أحتفل، ولا أسمح لأحد أن يحتفل بي. أتذكر جيدًا حجم الصراع الذي خضته لتعطيل احتفالية عيد ميلادي العاشر، وكيف وبختني أمي في ذلك اليوم لأنني أحرجتها أمام الحضور من صديقاتها ومعارفها. لم تكترث لمشاعري قدر اكتراثها لمشاعرها المحرجة.

كنت أتساءل دومًا هل أبي هو أبي؟! هل أمي هي أمي؟! ورغم تلك الفروقات في المعاملة التي كان يحظى بها أخي الأكبر من أبي، لكنني كنت أشعر بحنانه وعطفه عليّ ولو قليلًا أحيانًا، خاصة عندما كانت توبخني أمي بشدة. لكن... أمي، آآآه أمي لم تكن أمي. أعني، لم تشعرني يومًا أنها أمي أكثر مما هي ملزمة ومجبرة على الاعتناء بي وملاحظتي. لا أتذكر إطلاقًا أنها في يوم ما أثنت عليّ إلا وقارنتني بأخي الأكبر، أو بابن أحد الجيران الذي كان متفوقًا دراسيًّا، وكنا نلقبه بـ «المصري»[1].

أخي الأكبر لم يكن مصريًّا في الحقيقة قدر مصرية جارنا ومع ذلك كنت أُقارن به. فقط لأنه أخي الأكبر ويجب أن أتعلم وأقتدي به.

أتذكر جيدًا ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم عندما كنت راجعًا إلى البيت مسرعًا وابتسامة وجهي تسبقني من الفرحة. لم أكن سعيدًا لي، بل سعيد لهما أو هكذا كان أملي. كنت للتو استلمت شهادة آخر السنة الدراسية

1. بعد تردي الوضع السياسي والاقتصادي في دولة مصر، وظهور النفط في دول الخليج، أصبح ينظر للخليج من قبل المصريين بيئة وظيفية أفضل؛ فانتقل الكثير من المصريين وأسرهم للعمل. درس أبنائهم مع أبناء الخليجين في المدارس العامة، وكان في الغالب يتفوق الطالب المصري على الطالب الخليجي. (الرسول)

للصف التاسع. غمرتني البهجة لأني لم أحصل على أي «طماطة». هكذا كنا نطلق على تقدير الرسوب «ه». في الحقيقة، في وقتنا ذلك كان نظام التقييم مختلفا بالكامل، تستخدم الأرقام فقط بدل الحروف، ومن حصل على معدل أقل من خمسين بالمئة في المادة، يكون هكذا قد حصد «طماطة». وهي عبارة عن دائرة توضع حول الدرجة بقلم اللون الأحمر. لم أحصد في نهاية تلك السنة أي طماطة لكي توبخني عليها أمي، ثم يأتي دور أبي بعد ذلك.

بصوت عالٍ يملؤه السرور وتغلفه البراءة أصرخ من فناء البيت:

- أمييييي، أمي، أنا نجحت.

- أخيرًا بدون أن تحتاج إلى دور ثاني كالعادة!

- نعم أمي أنا نجحت في جميع المواد ولم أحصل على أي طماطة.. يعني لن أحتاج أن أختبر من جديد.

- طيب مبروك

أنتظرها أن تحتضنني أو أن تقبلني وهي سعيدة بسعادتي، هكذا بنيتُ المشهد في ذهني. في تجاربي السابقة، لم أكن حتى أفكر في ذلك إذا كانت شهادتي ملطخة باللون الأحمر لقناعتي أنني لا أستحق أصلًا أيا من تلك المشاعر بما أنني لم أفرحها وأرفع رأسيهما أمام الجيران.

- يعني أمي أنت فرحانة؟!

- نعم.. ألا تراني أطير من الفرح!

- لكن أمي أنا نجحت.. يعني خلاص لن أحتاج أن أختبر من جديد مثل السابق!

وهي تزم فمها وتقلبه يَمنة ويَسرة:

- عرفنا أنك نجحت لكن إذا كانت نتيجة أخيك أفضل منك، ولا يستحق أن نوزع على نجاحه «غرش بيبسي»[2] على الجيران ونفرح ونرفع راسنا. شف ولد جيرانا حصل على المركز الأول بصفه.

ذهبت إلى غرفتنا مطأطأ الرأس، تحملني رجلي وأحملها وأنا مختلط المشاعر بين الألم والحزن. لم أكن متفاجئًا لطبيعة ما سمعته؛ فأذناي قد اعتادتا عليه وألفته، لكنني كنت مصدومًا مني. كيف تصورت أن مشاعر أمي وحنانها تجاهي كان مرتبطًا بمدى إسعادي لها، وفي غير ذلك فليس من حقي، ولا من حقي أن أطلب. خرجت بعد ساعة من البيت خلسة حاملًا عبوة صبغ حمراء مضغوطة لأمارس هوايتي الشقية كل ما أحسست أن في فمي كلام يجب أن يقال ولا أستطيع قوله.

«أهلي مو باقي إلا يقولون شوف فلان مات مو مثلك!»[3]

***

لا أريد تفاصيلي مع أمي وأخي الأكبر أن تنسيني تفاصيل علاقتي بأبي. لأن علاقتي أصلًا بأمي رغم قسوتها، وبرودي، كانت بسيطة أستطيع تلخيصها في كلمات بسيطة: أمي كانت مربيتي، ومربيتي كانت أمي. أما علاقتي بأخي الأكبر انتهت منذ ذلك اليوم المشؤوم وتحولت من علاقة أخوين إلى علاقة ندّين كل واحد منا يحاول أن يثبت أمام نفسه وأمام الآخر أنه الأفضل. هو لم يعد أيضًا يكترث لرضى أبي وأمي ولا إلى ردة فعلهما بعدما

2. غرش جمع غرشة. تستخدم المفردة في العامية الخليجية للتعبير عن القنينة، سواء كانت زجاجية أو بلاستيكية. (الرسول)

3. غير معروف السبب الذي دفع الكاتب إلى تنصيص هذه الفقرة. (الرسول)

لاحظ أني لم أعد أكترث أيضًا. كنا أخوين ندّين أمامهما ونسعى لكسب ودهما ورضاهما، وأصبحنا ندّين وأحيانًا عدوّين كذلك، لكن فيما بيننا فقط.

أما علاقتي بوالدي فكانت أكثر تعقيدًا، وأكثر تفصيلًا. والدي كان وما زال متخصصًا ناجحًا في مجاله وقد نال شهادته الجامعية وشهادة الماجستير وشهادة الدكتوراه، كلها بمعدل ممتاز مع مرتبة الشرف من أمريكا، لكنه رغم تلك الشهادات وتلك المعدلات كان أميَّ الوعي بالقضايا التي حوله، السياسية والدينية والاجتماعية والإعلامية. العجيب والغريب في الأمر، أن طبيعة عمل والدي. من المفترض، تحتم عليه امتلاكه وعيًا عاليًا خاصة في السياسة!

في الحقيقة هذا لم يقتصر على أبي فحسب، بل جميع أفراد عائلتي ومحيطي. اهتماماتهم كانت محدودة ومحصورة بين الدراسة التخصصية والعمل والأسرة واحتياجاتها، وهكذا أنا نشأت ولولا هاتان السنتان الملعونتان الجميلتان لبقيت كما أنا، وأصبحت نسخة مكررة لأبي أو شخصًا آخر من محيطي، مثل حال أخي الأكبر.

- كيف يعقل، أن تكون هاتان السنتان ملعونتين وفي الوقت ذاته جميلتين؟!

هكذا بكل استغراب ودهشة سألتني حبيبتي في ثاني اتصال جمعنا. لم أجب على سؤالها حينها، بل حاولت التهرب خجلًا من إجابتي، أو خوفًا من ردة فعلها، لا أعلم.

يكون الصمت ملاذًا آمنا أحيانا من انعدام الفهم، لا أقول سوء الفهم، بل انعدامه، إذ كيف لتائه مثلي أن يدل تائها مثله، مع ذلك يكفي أن أقول انظروا لحالي الآن، لكي تعلموا لماذا كانتا جميلتين. ويكفي أن أقول انظروا

لحال أخي الأكبر لكي أقول لماذا كانتا ملعونتين.

نعم قد تكون هذه مقارنة غير منصفة وتحمل الكثير من المحاباة، وليس أي محاباة بل هي محاباة لقناعاتي وخياراتي وأفكاري الشخصية التي بلورتها وطورتها خلال فترة سنواتي القريبة من الثلاثين التي قضيتها هائمًا على وجهي، محلقًا في سماء حريتي، طارقًا أبواب تجارب، وصاعدًا جبال مغامرات.

عندما أتذكرها الآن أفتخر ببعضها وأخجل من بعضها. بيد أن الكثير منها ما زلت حتى الآن حائرًا فيها، هل أفتخر بها أم أحاول بذل جهدي لإخفائها ونسيانها وإنكارها. كيف لا أكون حائرًا وكل من حولي يحاول أن يعيش بدلًا مني عوضًا عن أن يعيشوا معي؟! آآه في مجتمعي الصغير في البيت، وفي مجتمعي الكبير خارج البيت، يحاصرونك بقوالبهم الموروثة المقدسة دينيًّا وعرفيًّا حتى تنزلق في عبثية ومستنقع ضحل من العدمية المبكرة والتي قد لا تصيبك في الوضع الطبيعي إلا وأنت في السبعين من عمرك، ربما.

(أ)

بعد أن نزلت من الطائرة إلى أرض الوطن، ها أنا أستعد لحمل حقائبي الملوثة بغبار السفر. مرت الدقائق ليصل القطار إلى مبنى القادمين، توقف شرودي عند صوت إعلان القطار عن المحطة التالية: «قد اقترب القطار من محطة مبنى القادمين، الرجاء الابتعاد عن الأبواب عند توقف القطار».

إن حياتي مثل ذلك القطار كلها محطات. قطار الزمن نقلني من قناعة إلى قناعة أخرى في أقصى الطرف الآخر. قناعات محملة بالكثير من الحقائق. قناعات نصنعها نحن ونصدقها؛ لتعيش مدتها. ثم يأتي غيرنا؛ ليصنع قناعاته الخاصة كذلك وهلمّ جرا.

لا أعلم كيف تهيأت لي تلك الحياة الأولى التي عشتها. ولدت في شتاء تشرين عنوةً ليس لي في منشأي أي ذنب، فقد تحولت بين اتحاد بويضة وحيوان منوي إلى أنثى اختار الرب لها ذلك غير مخيرة فيه، ولو خُيرت بين الحياة وعدمها لربما اخترت الحياة؛ رغم أنها ليست إلا مغامرة عبثية.. لكن ما أجمل أن تملك الخيار وما أصعبه عندما تضطر لتحمل عواقبه!

حين ولدت كان إخوتي فرحين بي فقد كنت لعبة جميلة تتعلم أبجديات الحياة أمامهم. ومنذ ذلك الحين بدأ استبداد ذكوريتهم، حين أفهمهم أبي أنني أنثى وأن حياتها هي ولاء للذكر المشوه بمرض الشيزوفرينيا في مجتمعاتنا العربية. كبرت والابتسامة على طرف فمي وحتى الضحكة كانت نادرًا ما تفارقني. ألعب مع الحياة وكأنها حياة أزلية السعادة. أتذكر زيارة أمي لمدرستي وأنا في الصف الأول. رجعت أمي البيت سعيدة وظلت تتفاخر

أمام نساء الجيران لأيام لأنني لم أكن أبكي ولم أشعر بالوحدة مثلما كان يحدث مع الأطفال غالبًا. لم أكن أعلم أنه سوف يأتي يوم تلعب الأيام بي بشكل مغاير.

رغم ذلك لا أعلم لم ذاكرتنا دائمًا تحتفظ بالحزن بعيدًا عن الفرح فأنا لا أتذكر من لحظات طفولتي السعيدة إلا شذرات، بيد أن الذكريات الحزينة والموجعة طغت على مساحة ذاكرتي، وما أكثرها. أتذكر جيدًا كيف أن أبي صرخ في وجهي وأنا في الصف الثالث لأنني أنفقت الخمسة دراهم كلها رغم تأكيده علي أن أشتري بدرهمين فقط وأرجع الباقي له. عندما أخبرته أني اشتريت بالدراهم الثلاثة كتيبًا كان يحتوي على صور وكلمات متقاطعة، توقعت أني أملك السبب الذي يغفر لي فعلتي تلك.. لكنه غضب أكثر. أكد علي أن لدي من الكتب ما يكفي.. والحكومة هي من تهتم بذلك ولم تقصر في الأمر! لم أدرك وقتها لما كل هذا الاهتمام بالثلاثة دراهم؟!

كم آلمني أول كتاب أشتريه وآلم عقل طفولتي. لا يزال شكل الكتاب حاضرًا في ذاكرتي ولكنني لم أطلع عليه حتى الآن. أخرجته من حقيبتي المدرسية ورميته في أسفل دولاب ملابسي إلى الآن. نعم إلى الآن ما زال موجودًا وفي نفس المكان، يجرني لا وعيي إليه بين فترة وأخرى.. لكن لا أتجرأ أن أفتحه مخافة أن أشعر بنفس الألم الذي شعرت به عندما فتحته لأول مرة.

كان أبي أميّ الكتابة والقراءة مضطهدًا في عائلته، ظلمته جدتي حين لم تسمح له بالدراسة وسمحت لأخيه غير الشقيق بالسفر والدراسة آنذاك. إنه ابنها المدلل أما أبي كان وما زال الخروف الأسود في العائلة. تعامله أمه كأنه غير مؤهل ليفهم ويتعلم شيئًا. هي، وأعني جدتي، وابنها المدلل وزوجها الذي تربى أبي في كنفه، خبروا الحياة أكثر مما خبرها أبي المسكين. الآن،

أستطيع أن أقول إن أبي يعاملنا بالمثل من حيث لا يدري، وكذلك نحن نفعل من حيث ندري. نعيش هكذا ميتين في مجتمعاتنا لا حول لنا ولا قوة إلا أننا نوهم أنفسنا بأن هذا هو القدر الذي ابتغاه الله لنا؛ لنواسي أنفسنا فيما أجبرنا عليه ولم نختره.

3

في الحقيقة لم يكن الثلث الأول من سنوات عمري يختلف ظاهريًّا عن أي طفل آخر في قريتنا. لكن داخل البيت قد يكون والداي هما من لاحظا اختلافي عن أقراني، كنت أحب الانطواء مع نفسي أحادثها وأتشاجر معها وأصادقها أحيانًا أخرى. من خلالها صنعت عالمًا مثاليًّا، كم رغبت وحلمت به. كم تخيلت أني الابن المدلل لأبي، ولا أنام إلا في حضن أمي، وأتغلب دومًا على أخي الأكبر في شجارنا اليومي، وأمي تقف دومًا بجانبي بعد كل شجار. ومع تطاول خلواتي أضحى من كنت أنشد ودهم ورضاهم، أريد الانتقام منهم. بدأت أصنع عالمًا مثاليًّا آخر بأبطال خارقين قابلتهم في أحلام يقظتي وأنا أشاهد مسلسلات الكرتون.

بيد أن تغييرًا كبيرًا أصاب شخصيتي وأستطيع أن أطلق عليه ولادة ثانية متعسرة، والتي ستقود فيما بعد إلى ولادة حقيقية ومفترق طرق استثنائي، كان بعد منتصف الثلث الثاني من سنوات عمري عندما توطدت علاقتي بجارنا إمام المسجد الجديد الذي وجدت فيه إصغاء الأب الذي أفتقده بداخلي. بدأت أحب المسجد وأواظب على دروبه. حتى صلاة الفجر والعصر اللتان كنت أمقتهما وأكره بسببهما وجود أبي في البيت لأنه كان يجبرنا، أنا وأخي، على أدائهما في المسجد.

بدأت أبادر بالنهوض والتوجه للمسجد. كنت أرى سرور أبي بما أفعله والتغيير الذي حدث في شخصيتي في معاملته لي، لكن، ويا لخيبته، لم أعد أكترث مثل السابق لرضاه عني.

كان أبي وجيراننا، يرون في جارنا الرجل الصالح والقدوة الحسنة متناسين كل عثرات ماضيه. وكان لتوه قد عاد من معهد علوم الشريعة من خارج الدولة محملا ببركات مشايخه وأساتذته. انبهرت من قوة حفظه وسرعة بديهته في الاستشهاد بالكم الهائل من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية رغم حداثة سنه الذي لم يتجاوز حينها السادسة والعشرين من عمره.

لم أفكر يومًا أن أنبش ماضي شيخي لعلي أصلًا لم أكن أتصور إطلاقًا ما علمته بعد ذلك، بعد أن أعتقتني وسلكت طريقًا آخر يخالف طريقه. ولا أذكر أحدًا أيضًا سبق أن تحدث أمامي عائبًا ومنتقدًا شيخي بذكر ماضيه. هل إطلاق اللحية وتقصير الثوب يغفر الذنوب ويحذف خطايا الماضي من حسابات الرب والناس معًا، فماذا عن المرأة إذن، ماذا عليها أن تفعل إذا كانت في المحل ذاته؟!

علمت من جاري فيما بعد أنه لم يكمل دراسته الثانوية وترك الدراسة من الصف العاشر؛ فتهمة قضية الاغتصاب التي لاحقته أبعدته عن المدرسة إلى الأبد، رغم أن القاضي برأه بعد ذلك من الفعل واتهمه بالتستر فقط وحكم عليه باكتفاء المدة التي قضاها في السجن قبل صدور الحكم. إلا أنه لم يرجع للدراسة وزاد وقت فراغه. بدأ يتسكع في الحارة ويجمع حوله أبناء الحارة الذين يصغرونه سنًّا.

كان يدفع من جيبه لتجمعاتهم ويدفع لهم كأنه أصبح بين يوم وليلة أبًا لهم ومن مسؤوليته أن يصرف عليهم. هذه العادة كانت منتشرة حينها في مجتمعنا ولا أعلم إن كانت لا تزال موجودة للآن أم انقرض أصحابها بانقراض الفكرة. هل يستطيع أن يتغير صاحب هذه العادة إذا بلغ به العمر ما بلغ؟!

امتلك في البداية دراجة نارية ثم بعد ذلك سيارة، قد يكون اشتراها من

السكراب ثم جهزها لمناسبات معينة لممارسة هواية «التفحيط»[4]، أو يجوز أن يكون اشتراها مجهزة. هو ليس من أسرة غنية ولا حتى متوسطة الدخل، بل من أسرة معسورة كانت تعتمد على معونة «الضمان الاجتماعي»[5]. بعد فترة تم القبض عليه بتهمة سرقة أغنام وتم الحكم عليه بالسجن لمدة سنة. بهذا يمكن تفسير وفرة المال الذي ينفقه على تجمعاته وهوايته.

خرج من السجن ومن ثم عاد إليه بقضية سرقة من جديد وقضى سنتين في السجن، لكنه لم يخرج نفس الشخص. يقال في سبب ذلك إصابته بصدمة بعد ما زاره الموت إثر جرعة زائدة من المخدرات. خرج ملتحيًا وبدأ يتردد على مسجد القرية وبدأ يتقرب من بعض المتدينين ويخالطهم ويحتك بهم. لم يتوظف بعد خروجه وقضى جل وقته في المسجد والسير لمسافات وهو يحدث نفسه أو يقرأ القرآن. ثم فجأة اختفى عن الحارة. توقع البعض في البداية أنه رجع للسجن من جديد، لكن الحقيقة أنه ذهب يدرس خارج الدولة ليصبح شيخًا.

4

كنت أرجع البيت بشكل يومي أحاول تقليد طريقة شيخي في الحديث وبالأخص نبرات صوته التي تنخفض وتعلو حسب طبيعة الموضوع. بمضي الأشهر بدأت أشعر بتطوري التدريجي، لكن مشكلتي في الحفظ استمرت تعيق جودة خطابي فيما بعد عندما أصبحت أؤم وأخطب بالناس بواسطة وتزكية من شيخي في المسجد الذي يعمل فيه.

ما دفعني إلى التركيز على أسلوب الخطابة وحفظ أكبر قدر ممكن من الآيات والأحاديث، خاصة كل ما له علاقة بالترهيب والترغيب. نجاعة الأسلوب في شد انتباه المستمعين وإجبارهم لا شعوريًّا للرضوخ والاستسلام لك وتسليمهم عقلهم طواعية لتحشوه بما تريده وتهواه، كل ذلك أشار إلي بسلامة مسلكي.

كنت ألاحظ كيف يتأثر ويقتنع الناس كلما زادت عدد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال السلف التي تستشهد بها في خطابك حتى لو لم يكونوا يفهمونها بشكل دقيق أصلًا، لكن هذا يزيدهم ثقة بالمتحدث. يكفي أن تقول قال الله، قال الرسول، قال فلان من السلف لتصيبهم بلادة نتيجة الغشاوة التي تتكون وتحيط بالعقل؛ فيسلمون لك قلوبهم وعقولهم لتقتادها أينما شئت طواعية بابتسامة عريضة لو كان الحديث عن الجنة ونعيمها، وبدموع خوف وهلع لو كان الحديث عن النار وعذابها.

أجزم أني رأيت في أحد الأيام رجلًا أربعينيًّا متزوجًا ولديه أبناء، يمسح على قضيبه المهتاج وأنا أخطب فيهم عن الجنة الموعودة. وقتها كنت أتكلم عن عدد الحور العين التي سيحصل عليها المؤمن صاحب الفطرة السليمة،

وأصف لهم جمالها بدقة، وجوهن البيضاء المشربة بالحمرة كالياقوت، وأجسامهن البيضاء الصافية كالمرجان، وسيقانهن الشفافة التي يرى مخها من وراء اللحم كاللؤلؤ، ونهودهن المكورة كالرمان.

لا شعوريًّا، كنت أستمتع في الوصف وأضيف وأزيد وأخترع الأوصاف لو تطلب الموقف، يفرحني رؤياي وقع قولي على وجوههم المشدوهة من اللذة والشهوة. أضيف: رقيقات الحواجب، شديدات سواد المقل، واسعات الأحداق، فاترات الجفون.

لكن أهم وصف يمكن أن تقوله حول الحور العين ويحرك قلوب وأجسام المستمعين هو وصفك لبكارة حور العين وطول المدة التي ستحصل عليها منذ بداية المضاجعة حتى تنتهي وتفرغ منها. أتذكر جيدًا كيف ذلك الرجل الأربعيني بدأ يتلكأ أكثر في جلسته وزاد عدد المرات التي يمر بيده على عضوه عندما بدأت أصف متعة فض غشاء البكارة وكيف أن غشاء بكارتهن كلما فضضته ترجع الحورية بكرًا من جديد.

رأيت الأربعيني يخرج من بين الحاضرين. ربما لم يتحمل وذهب إلى أقرب دورة مياه ليفض بكارة الحور العين واحدة تلو الأخرى. بعد عدد من المواقف المشابهة والمتكررة لم أجدني مشتهيًا ومتحمسًا في وصف جمال الحور كالعادة بل بدأت أشعر أني أقل حماسة وأقل يقينا في جل خطبي. بدأ يشد انتباهي أكثر أثر الخطاب في وجوه العامة ودفعني للتفكر مليًّا.. كيف أن العقل يتعطل عن التفكير لو ارتبط بالأمر بالمقدس.

يا ترى هل عاد ذلك الرجل الأربعيني إلى المنزل ليخبر زوجته أن الله وعده بحفلات فض البكارة لا تعد ولا تحصى، وأنها لن تحظى برجل غيره يضاجعها ويمتعها في الجنة.

***

بجانب وظيفته المعتادة في إمامة المصلين والإشراف على المسجد وخطبة الجمعة، بدأ جارنا، الشيخ الجديد إمام المسجد، بعمل درس في المسجد بمعدل درسين كل أسبوع. عرفت عن الموضوع قبل أن يطرحه أمام المصلين بعد صلاة الجمعة. شعرت بالسعادة لمشاركة شيخي خططه معي قبل أن يعلنها أمام الناس. لأول مرة أشعر أني لم أعد طفلًا بل رجلا ويمكن أن يثق به الآخرون ويتحاورون معه بجديه في شؤونهم.

- إن شاء الله، إذا وفقنا الله ويسر الأمر أنوي عمل حلقات تدارس في الدين كل أسبوع.. غدًا بعد صلاة الجمعة سأعلن للمصلين... لكن دون أن أنبهك بأهمية الحضور.. لازم تحضر.

كان الدرس مخصصًا لطلاب المرحلة المتوسطة والثانوية فقط. بدأنا الدرس الأول يوم الإثنين بعد صلاة المغرب وحضر قرابة سبعة عشر طالبًا. جلس الشيخ متكئًا على الجدار وجلسنا نحن أمامه على شكل نصف دائرة. في ذلك اليوم لم يدرسنا، فقط اكتفى بتحديد أيام الدرس وهي الإثنين والخميس. كذلك أخبرنا بالمواضيع التي سيدرسها لنا. الدرس الأول من الأسبوع الأول سيكون في العقيدة، والدرس الثاني في تجويد القرآن وتفسيره. أما الدرس الأول من الأسبوع الثاني سيكون في الحديث النبوي، والدرس الثاني في السيرة النبوية. في الأسبوع الثالث سندرس ما درسناه في الأسبوع الأول، وفي الأسبوع الرابع سندرس ما درسناه في الأسبوع الثاني، هلُّم جرا.

واظبت على حضور الدرس بشكل أسبوعي، حتى أكاد أكون أول الواصلين وآخر المنصرفين بشكل دائم. في الدرس الأول أحضر لنا الشيخ نسخًا مصورة لبعض مواضيع كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»

لمحمد بن عبدالوهاب مؤسس ومنظر وأحد أقطاب آيديولوجيا الإسلام السياسي المعروفة بالوهابية.

كان الدرس الأول حول قضية التوحيد وأهميتها عند الإنسان المسلم التي تميزه عن الإنسان المشرك. من ضمن النسخ قائمة لنواقض الإسلام العشرة كما حددها وشرحها محمد بن عبدالوهاب. أخذ شيخي يمر عليها واحدة تلو الأخرى يشرحها ويذكر الأدلة من القرآن والسنة النبوية. كذلك ذكر لنا أمثلة حية وواقعية من المجتمع. عندما أتذكر الآن الأمثلة التي ساقها واستشهد بها أتعجب كيف يعقل أن مثل كل هذا الهراء مر على وعيي إلى أن استقر في اللاوعي بكل سهولة ويسر؟! أجزم أن جميع المسلمين الآن مشركون وكفار من منظور تلك القيود العشرة.

لكن شيخي كان يؤكد في كل درس بتسامح الإسلام ويستدل بالآيات القرآنية التي توضح بصراحة مدى تسامح الإسلام. وأظن السبب وراء ذلك هو هجمة وسائل الإعلام الغربية وبعض العرب الشرسة حينها على الآيديولوجيا الوهابية، بسبب أحداث الحادي عشر من سبتمر في أمريكا. يبدو أن الموضوع له ارتباط بالعامل النفسي؛ لأن حامل هذا الفكر وجد خطابه محاصرا بالإدانة والاستنكار ولأول مرة بهذا الحجم بعد ما كان يعتقد بكل يقين أنه الممثل للإسلام الصحيح الأوحد. هذا التغيير المناخي للآيديولوجيا المفاجئ كان قاسيًا نفسيًّا؛ فأصبح من يحمله يشعر أنه مدان ولو لم يُشَر له بالبنان ويحتاج أن يبرئ نفسه في كل حين.

الشيعة مشركون، الإباضية مشركون، الزيدية مشركون، الصوفية مشركون، الأشاعرة مشركون، ونحن فقط مسلمون بشرط ألا تخالف أفعال وأقوال أحد نواقض الإسلام وإلا شاركناهم شركهم وأبيحت دماؤنا وأموالنا وأعراضنا مثلهم. هذا ملخص الدرس الأول ومحور جميع الدروس

التي تلته. كنا نطوف حول هذا المحور نقدسه بكل إخلاص ويقين ونبحث ونفهم ونحفظ كل ما يقوي توحيدنا وإيماننا به. ورغم كل ذلك كنا متسامحين كما أقنعنا شيخنا!

هذا يذكرني بدعوات التسامح السطحية والهشة التي نسمعها بين حين وآخر من أفراد مختلفي المذاهب في الدولة الواحدة، لكن تجده في البيت يُكفّر ذلك المذهب ويستهزئ من الآخر بسبب الخرافات التي يمارسونها، كأن مذهبه يمشي على صراط العقل المستقيم.

أجزم أني سمعت أبي مرة يردد الكلام ذاته على مسامع جيراننا في مجلسنا وكان بعضهم من المذهب الإباضي وشخص وحيد من المذهب الشيعي. أكثر من نصف أهالي قريتنا من المذهب السنّي، والبقية من المذهب الإباضي وتقريبًا أربع أسر من المذهب الشيعي.

- الحمد الله على نعمة الأمن والأمان، هذا من فضل ملكنا وسياسته الحكيمة. ألا ترون كيف نحن مجتمعون في مجلس واحد رغم اختلافنا وفي العراق كل يوم تسمع بالقتل والتفجيرات.. لا أمن ولا تسامح. الآن أصبحوا يتقاتلون فيما بينهم. الشيعي يقتل السني، والسني يقتل الشيعي.. ألسنا كلنا مسلمين!»

عندما ذهب الضيوف، سألته:

- كيف تقول الشيعة مسلمون؟! أنت بقولك هذا تواليهم وهذا شرك ويجب أن تتبرأ منهم.

- أعرف أنهم أنجاس وروافض لكن تعرف...

قاطعته:

- ليس الشيعة فحسب.

- أعلم هؤلاء قصة أخرى، بالله عليك فيه عاقل يؤمن أن القرآن مخلوق؟! قهقه ثم أردف: كفار.

تذكرت هذه الحادثة بعد زمن عندما كثرت الحملات التي تمتدح فيها التسامح الشكلي بين أطياف المجتمع. فبدل أن يُعَالج أصل المشكلة، حاولت هذه الحملات أن تغطيها وتجملها فقط، وتبقي القبح في النفوس والبيوت. نشرتُ يومها في صفحتي الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك:

«في الحقيقة بعيدًا عن الفقاعات الإعلامية، إذا كنا نريد أن نكتشف حقيقة التسامح بين المذاهب في دولة ما، نستمع لما يقال خلف الجدران، في البيوت، بين أفراد الأسرة الواحدة، بين منتسبي المذهب الواحد، عن المذاهب الأخرى! أما إذا أردنا أن نعرف حقيقة التسامح بين الأديان التي يدعيها البعض، ما علينا إلا أن نطرح عليهم سؤالًا واحدًا فقط: من يعتنق دينًا يخالف معتقدكم، هل هو كافر؟! ونحن نعلم - مثلًا - أنه في الشريعة الإسلامية تترتب على ذلك الكثير من النتائج الدموية.»

(ب)

توقف القطار عند المحطة. أخذت حقيبة سفري الصغيرة وانطلقت. دخلت دورة المياه لأضع تلك العباءة السوداء على كتفيّ، العباءة التي وصفها موظف المطار حين وصلت لتبديل الطائرة لأكمل رحلة الهروب الطويلة والمرهقة قائلًا: «حارس الموتى». نعم.. قالها بالعربية الواضحة. تأكدت من خلالها أنه عربي يعيش هناك. كان لطيفًا جدًّا في حديثه، وخفف ذلك عليّ وطأة الذعر خوفًا من أن تفوتني الطائرة التالية. اجتمعت عليّ حينها رهبة الأماكن الغريبة والمكتظة وقلق المواعيد. أرشدني الى البوابة وأكد لي:

- لم تفتح البوابة بعد، أترين هناك؟ أنهم ينتظرونك.

كانت دعابة في أشد الحاجة لها حينها.

لبست عباءتي وخرجت لأبحث عن حقيبتي بين الأمتعة. لم يكن هناك أحد يحدق فيّ مِن أولئك الأجانب الذين كانوا برفقتي في الطيارة. ولكن عربيًّا رمقني بنظرة تساءل: ألم أرها في الطائرة بدون عباءة وحجاب والآن تظهر هكذا! نعم ياسيدي، إنك تقول بنظراتك هذه ما يقولها ألف عربي غيرك.. نعم أنا حزينة على نفسي قدر فضولك ولكن هذا ما قدر لي أن أكونه. هكذا يواسي المسلم نفسه دائمًا حين لا يتحقق له ما يريده في قرارة نفسه؛ هذا قدر الله!.

حملت حقيبتي وتوجهت لبوابة الخروج. وجدت أخي الأكبرفي انتظاري في صالة القادمين هو وأختي الصغيرة. أختي ما زالت في الصف

الرابع الابتدائي وقد ألبسها الحجاب. نظرت لها والحسرة تأكل قلبي على حالها. مسكينة.. هكذا علق قلبي.

الحجاب المائل يلف حول وجهها الطفولي وشعرها يتطاير من الأمام. لا أتوقع أنها تعي ما هو الحجاب ولا تعرف حتى كيف ترتديه ولكن الاستبداد لا يجعل لك خيارًا حتى وأنت بلغت من العمر ما بلغت؛ فكيف بطفلة! حتى القانون لم يسلم من هذا الاستبداد، ألا يعامل المرأة بتمييز مجحف؟!

أول ما رآني حياني بامتعاض وهو واجم الوجه ثم أخذ حقيبتي:

- الحمدلله على السلامة.

- الله يسلمك

ثم رمقني بنظرة بها الكثير من الغضب

- غطي شعرك

كمية غضب أضعاف ما كان به من غضب اجتاحتني عند سماعي لذلك الأمر؛ فلا توجد إلا بضع شعيرات تمردن على سلطة الحجاب.

مضينا حتى وصلنا البيت. لم أنبس بكلمة قرابة ثلاثة ساعات. تظاهرت بالتعب والنوم. لم تعد لي رغبة للحديث والحوار فقد أحسست بالحنق على ما حدث. أحسست بالحنق من كل ما يسمى عربي. لا أستطيع أن أنافق نفسي مثلما يفعلون. ليسايروا المجتمع الأحمق إذا أرادوا لكن يتركوني في حالي. هنا المجتمع هو من يقود العقول وليس العقول هي من تقود المجتمع.

في الطريق تذكرت سنوات المدرسة، كانت هادئة. لم أكن أشعر بهذا الحنق ولم أتحامل على المجتمع طيلة سنوات دراستي. كانت صديقاتي يملأن

وقتي بكل ألوان الحياة. كنا نستمتع بالحديث حول المكياج والحناء والموضة ونترقب أعياد الميلاد لنحتفل. استمرت علاقتنا حتى الصف التاسع ثم افترقنا وذهب كل في طريق مختلف.

أتذكر جيدًا ما حدث في نهاية أول يوم دراسي لي في الصف العاشر. أتتني إحدى صديقاتي لم ألتق بها منذ آخر يوم دراسي في السنة الفائتة والأسئلة تملأ وجهها.

- لماذا تغيرتِ علينا؟! أين اختفيتِ في الإجازة الصيفية؟ لماذا لم تأتي إلينا في فترة الراحة هذا اليوم؟

- لم أتغير ولكنني لا أرغب في صداقتكن بعد اليوم.

تغير الكثير ذلك اليوم. انتهت علاقتي بالحياة. بدأت أتخذ الدين مصدرًا للانجذاب مثلما يحدث غالبًا لدى معظم المراهقات. لا أعلم بالضبط سر تغيري المفاجئ والسريع. حيث لم أعد أنا في نهاية الإجازة الصيفية ما كنتها في بدايتها. لعل عقلي الباطن كان يحمل في طياته الكثير من تأنيب الضمير الذي كان يلتقطه من البيت والمجتمع والتلفاز والمدرسة لكن عقلي الواعي كان يغطي عليه بالتجاهل و«ملهيات الحياة»، هذا المصطلح الذي بدأت أستخدمه بعد ذلك.

الذي أتذكره أني دخلت في حالة اكتئاب حادة جدًّا نتيجة خلاف دار بيني وبين أخي حيث أصر على لبسي النقاب للذهاب إلى السوق ولكني رفضت وصرخت في وجهه. صفعني على وجهي أمام أمي، وأيدته! ورغم حالة الاكتئاب التي تلت تلك الصفعة لكنها أتت بالنتيجة المرجوة منها. قررت أن ألتزم. عقلي الباطن بدأ يتسيد الموقف ويسترجع كل المخزون. لم أكتف بذلك بل أصبح لدي نهم في البحث عن كل ما قد يقوي إيماني عن

طريق معرفة كل ما هو حرام ومكروه.

هكذا فهمت ديني وقتها. كان جل همي معرفة الحرام وتطبيق القاعدة التي سمعتها من شيخ حصلت على نسخة من محاضرته في كاسيت مغلف يشبه علبة الباسكويت: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح». بدأت أتعصب أكثر كلما قرأت أكثر. لم أكن أقرأ إلا ما يوافق هواي حينها. قررت أن أتعلم ديني الصحيح خوفًا من الله وتجنبًا لشديد عقابه وجحيم ناره، بيد أني لم أتعلم سوى التعصب للإسلام الحقيقي الذي كنت أراه في مذهبي، ومعاداة بقية البشر، وحتى المذاهب الإسلامية الأخرى المختلفة الضالة. آمنت بأننا نحن فقط الفرقة الوحيدة التي اصطفاها الله؛ لتعمر أرضه، ثم ندخل الجنة ومن سوانا ليسوا إلا ضالين في الأرض سوف يعاقبهم الله. ليس لأنهم غير مسلمين فحسب، وإنما كذلك من كان على الإسلام وليس من «الفرقة الناجية» كما يفضل أن يسميها مشايخ مذهبنا. أصبحت مفاتيح الجنة في أيدينا، نحن من يختار من سيدخلها ومن لن يستطيع أن يشم حتى ريحتها وإن كانوا مسلمين.

كيف يمكن لإنسان أن يعتبر نفسه مسلمًا تترجم أخلاقه القرآن الداعي للسماحة، كما يعتقد، ثم يأتي ويشتم كل من اختلف عن مذهبه في داخل إطار الاسلام، فضلًا عن أتباع الأديان الأخرى؟! وربما تجده أقل وطأة وحدة على الأديان الأخرى وأتباعها مقابل ما يفعله ضد من في دائرة دينه. أما نظرته للغرب الكافر فهذه قصة أخرى؛ فهو محاط من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بكل ما أنتجه هؤلاء الكفار في نظره ثم يأتي؛ لينكر فضلهم ويسبهم ويدّعي أنه أفضل منهم.. فقط لأنه مالك الحقيقة المطلقة. حسنًا أيها الأفضل أظن أن عليك أن تنتج شيئًا كما فعل الكافر بدل الكلام الذي لا طائل منه. أنهم يكرهونهم ولا يستطيعون العيش دونهم.

التحقت بعدها بدروس صيفية؛ لتعلم القرآن وحفظه أو بالأحرى لحفظه وفهمه بطريقة معينة. حفظت أكثر من نصف القرآن في قرابة سنة، وحفظت الكثير من الفتاوى وانضممت للكثير من المنتديات. كانت عائلتي ضد هذا التغير المفاجئ الذي حل بي ولكنني في النهاية فعلت ما أريده ورفضت الانصياع لهم ومن ثم اعتادوا على الأمر. لعلهم في النهاية اقتنعوا أني على صواب وهم من يسلكون الطريق الخاطئ بتقصيرهم في الدين وتساهلهم في المحرمات.

لبست عباءة الرأس والقفازات السوداء والجوارب وغطيت وجهي. لم أعد أستخدم العطور ولا أضع الكحل في عيني الباهتتين؛ لأنه حرام ومثلي مثل الزانية لو شمني أو رآني أحد الذكور متبرجة متعطرة. لأن ذكورنا ليست لهم سلطة على أعضائهم التناسلية؛ فكل شيء يثيرهم. يقطعها إربًا بنظراته ليروي شهوته الجامحة هذا لو سلمت من لسانه ويده. المرأة هي الملومة فكيف تضع عطرًا أو كحلًا فهو مسكين ضعيف لايقدر على نفسه أمام زينتها، لكنه يقدر أن يتحمل مسؤولية القتال المستمر عن شرف حظيرته الرقيق الشفاف مثل الثور الأهوج. مجتمع ذكوري غبي وأحمق لا منطق له إلا القيل والقال.

أيها الذكر الأخرق ألم تخلق المرأة هكذا تحب العطور والزينة... تحب أن تكون جميلة دائمًا وفي أبهة زينتها. خلقت؛ لتعيش لا لتدفنها أنت وسط همجيتك وقذارة تفكيرك وفهمك الأعوج للدين.

تلك السنوات الأربع التي عشتها كانت مؤذية وشوهت الكثير بداخلي. فقدت روحي وعقلي وفقدتني. كنت أتتبع وأنفذ ما يتناقل من فتاوى لذكور مرضى، تلك الفاتوى الرائجة في السوق حينها. وأقف في وجه كل من يخالف تلك الفتوى رغم أن عائلتي لم تكن ملتزمة في تلك الفترة وإنما فقط محافظة إن صح التعبير. أمر غريب ما حدث؛ فرغم حفظي للكثير من آيات القرآن

وكثرة سجودي ودعائي المستمر الطويل إلا أني كنت فارغة في داخلي.. لا زلت أبحث عن شيء لا أعلم ماهو! شيءٌ لا أجده ولا يجدني.

هكذا أضحيت، بين ليلة وضحاها، حارسة الفضيلة، وصمام أمان الدين كما كنت أشعر. كانت طاقة تسري بجسدي وعقلي تكرر لي بأني على صواب تام لا يقبل الشك، وأن كل الآخرين مساكين، أشفق على حالهم التي آلوا إليها من تجهيل ممنهج. هكذا أصبحت وهابية. نعم، فعلًا هذا ما حدث.

أسرفت في تلك السنوات تدينًا حتى وجدتني أعيش متناقضة بين عالم المثالية وعالم الإنسانية مثل كل عربي يعيش مضطرًّا مدركًا أو غير مدرك بشخصيتين متناقضتين. شخصية يربيها المجتمع والدين وشخصية مخبأة تعيش الحياة بكل نزواتها ورغباتها.. شخصية قد لا يعرفها أحد إطلاقًا، أو فقط عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

5

قُبِلت في كلية الزراعة إن كنت أرغب بتخصص علمي، وإلا فعليّ التوجه لأحد الكليات الإنسانية. حلمت أن أكون مهندسًا؛ فقررت أن أصبح مهندسًا زراعيًّا. الأهم أن أُنادى بباشا[6] مهندس. الجامعة كانت حياة جديدة مختلفة كليًّا عن البيئة المنغلقة التي أتيت منها. الدراسة مختلطة والفتيات أمامك وخلفك وعن يمينك ويسارك، تسمع صوتهن وضحكاتهن بشكل مستمر يوميًّا.

مع مرور الزمن بدأ جسمي يتغلب على إيماني. كنت أعيش صراعًا داخليًّا بشكل يومي. جسمي كان جائعًا، يثور هائجًا كالبركان إذا سمع غنجًا أو اشتم عطرًا بمرور فتاة جنبه. كثر استغفاري وكثر معه جوعي. سابقًا، كان الوضع سهلًا، إذ لم يكن هناك ما يثيرك أصلًا، حياة بلا ألوان. لا أشاهد في التلفاز إلا القنوات الدينية وأمنعني من مشاهدة أي صور قد تثيرني لأنها حرام حتى لو أن الفتاة محجبة. كان من السهل السيطرة على نزواتي وحاجة جسدي الجنسية؛ فكلمة الحرام كان وقعها قويًّا وقيودها فعالة حتى على مستوى العادة السرية؛ فمنذ أن تدينت توقفت عن اللعب بعضوي خوفًا أن تأتي يدي يوم القيامة حُبلى.

كانت متعتي الوحيدة التي تمنيت أن أحصل عليها كل يوم، هو الاحتلام. كنت أشكر الرب عندما أصحو وأجدني قد بللت ثيابي من مائي.

تذكري للعذاب الذي قد يصيبني يوم القيامة وعظم المصيبة التي يمكن أن أقترفها لو مارست العادة؛ فكبيرته مثل الإتيان بأمك، لم تجد نفعًا.

أصبحت قيود الحرام ضعيفة أمام هيجان جسمي واستنفاره. ولم ينقذني من هذا المأزق إلا تذكري القاعدة الشرعية: الضرورات تبيح المحظورات، داعيًا الرب أن يتوب علي ويشملني بمغفرته.

كأن عقدًا انقطع وتتالت حباته تتناثر دون توقف، هكذا وجدتني بعد أول ممارسة قمت بها في حمام غرفتي عندما ذهبت للاستحمام. بدأت أزور الحمام بكثرة، لقضاء حاجتي السرية. تطور الأمر فيما بعد حتى أصبح مثل الهواية أمارسها، إذ كنت أستمتع بتنويع الأماكن التي أمارس فيها، وكان نصيب الأسد للحمامات المختلفة في الجامعة في الوقت ما بين المحاضرات. أصبحت أضطر لغسل ملابسي وفراشي بكثرة، لأني تعودت أن أمارس العادة كطقس يومي قبل النوم ثم أنام دون أن أغتسل. كنت أشعر بالإعياء والوهن وأستمتع بهما حتى يصيبني النعاس وأنام.

اعتقدت أني قادر على كبح جماح جسمي النافر وترويضه بالعادة السرية، لكن أصبح العكس؛ فزاد شبقي أكثر مع مضي الأيام وبدأ يصرخ بالمزيد. وجدتني في الفصل الدراسي بشكل مهووس أطالع البنات بأي حجة، وأحفظ أشكالهن وأسماءهن. أتعمد التذاكي متباهيًا لجذب انتباه إحداهن، لعلها تعجب بي وتقع في حبي. هكذا بدأت أحلم. أحيانًا عندما يشتد هيجاني وأجد الحيلة والفرصة، أتعمد انتظار خروج الطلاب حتى يفرغ الفصل إلا مني ومنهن. لأني لاحظت تأخر انصرافهن في الغالب. فكنت أتحين لمثل هذه الفرص وأتلكأ بأي حجة للحديث معهن. في العادة كانت حجتي مناقشة معلومة من الدرس لم أستوعبها أو الاستفسار عن أمر طلبه المحاضر وأدعي أني لم أفهمه أو لم أسمعه جيدًا.

علمت فيما بعد عن الأنشطة الطلابية التي تكون في العادة أكثر اختلاطا وأقل حواجز بين الجنسين، فاشتركت في خمسة أنشطة وتعللت بزحمة الوقت

وظروف الدراسة عندما تمت دعوتي لجماعة الثقافة الإسلامية. في الحقيقة لم أكن أعي بكل هذه التصرفات، أعني لم أفكر بها كثيرًا. كانت حاجة بداخلي تدفعني لا إراديًّا لكل هذه الأفعال والخيارات.

في إجازة الصيف، إذ لم يكن هناك فصل صيفي لأصحاب السنة الدراسية الأولى، قضيت إجازة نهاية السنة الدراسية في البيت. في إحدى الليالي الصيفية كنت أقضي سهرتي أمام التلفاز أشاهد إحدى القنوات الدينية لا أذكر أيها بالتحديد الآن، أتاني رقم غريب على شكل اتصال قصير. استغربت الرقم وبعثت برسالة نصية إلى الرقم مستفسرًا عن صاحبه ومراده.

- أخاف أن أخبرك

- عفوًا لم أفهم؟!

- أخاف أن أخبرك ولا تصدقني.. ولا تثق في.

- لم أفهم بعد!

- تعدني أن تصدقني ولا تفهمني خطأ؟

- أكيد

- أنا معجبة بك

أشعر بالمياه تغمرني، وأن الدنيا لا تسع حضوري إذ حدث ما تمنيته، هكذا وجدتني أردد مع نفسي. سعدت كثيرًا رغم أنها رفضت أن تخبرني باسمها بحجة خوفها من رفضي لها لو علمت اسمها. وعدتني بإعطائي الاسم فيما بعد، لكنها أكدت لي أنها تعرفني جيدًا وتدرس معي. استمر

تواصلنا لأيام عبر الرسائل النصية، حاولت أن أقنعها بالاتصال والحديث على الأقل لكنها رفضت مدعية ذات الحجة.

- ستعرفني من صوتي ولا أريد هذا حاليًّا.

بعد إصرار مني لأيام برغبتي في الحديث معها، وافقت بشرط ألا تتحدث هي وتترك المجال لي للحديث فحسب. وافقت مكرهًا. بدأت اتصالاتي تتكرر وتتراوح بين ربع ساعة والنصف ساعة وأنا لا أسمع إلا صدى صوتي أحيانًا. أسأل ثم أجيبني، أعلق على كل الاحتمالات الممكنة للإجابة على سؤالي. بعد فترة لم أجد ما أتحدث عنه؛ فقررت أن أحضر مواضيع وأكتب أهم نقاطها في ورقة ثم أتصل. أعترف أني كنت مغفلًا، فهل هناك إنسان بكامل قواه العقلية يفعل ما فعلت؟! بيد أن سكرة رغبتي الدفينة بوجود امرأة في حياتي أنستني كل تلك الاعتبارات.

انتهت الإجازة الصفية وكل ما ظفرت به منها صفحتها الشخصية في أحد المنتديات الذي لم يكن يحمل اسمها الحقيقي، مجرد اسم مستعار «وردة الجوري». لفت انتباهي وانزعاجي الصورة الرمزية التي تستخدمها لحسابها، وجه امرأة شديدة الجمال، لعلها ممثلة قلت في نفسي: تدل ملامح وجهها أن الصورة تم التقاطها وهي تتغنج للكاميرة.

بدأت أتخيل باقي جسمها. تخيلته كما أردت، تتفجر منه أنوثة طاغية، شبق لا يشبع من الجنس، ويصرخ بالمزيد دائمًا. بدأت أتخيلها وهي في عدة مواضع جنسية، لكنني لم أتخيلني لا فوقها ولا خلفها لعل إيماني كان أقوى من شيطان خيالي؛ فلم يستطع أن يجنح بي أكثر من ذلك.

6

قبل حوالي ثلاثة عشر سنة أو أقل بقليل، أتذكر جيدًا كيف هاجمني وكفّرني بعض أصدقاء صفحتي الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك. كان أول أيامي في الفيسبوك، بعد أن عرفتني عليه حبيبتي. وقتها بدأ السؤال يتسلل إلى عقلي، ويدب الشك في قلبي حول عدة مواضيع في القرآن والسنة وجدتها غير منطقية ومتناقضة. لم تأتني تلك التساؤلات نتيجة القراءة؛ وقتها لم أكن أقرأ إلا ما يتناسب مع توجهي ويقوي قناعاتي. كانت تساؤلات عفوية وبسيطة وبديهية ورغم ذلك لم أدركها إلا في تلك الفترة، لا أعلم حتى الآن السبب. أتوقع دخولي مواقع التواصل الاجتماعي كان له دور غير مباشر.

«لماذا شراب الجنة اسمه خمر إذا كان لا يسكر؟!»

«لماذا القرآن يربط جمال الحور العين بلون بشرتهن البيضاء فقط، أليست هذه عنصرية؟!»

بدون أدنى شك لم تكن لدي أفكار كفرية من قبيل إنكاري وجود الله ونبوة محمد أو نسبة كتابة وتأليف القرآن للنبي محمد أو حتى فيما يخص صحة نسبة الأحاديث النبوية للرسول. لكنها الطبيعة البشرية لدى الناس، يرفضون كل ما هو غير مألوف ويمكن أن يزحزح يقينياتهم. لم أدرك هذا الشيء إلا فيما بعد. ولهذا ردة فعل أصدقاء الفيسبوك وبعضهم كان أصدقاء واقعيين، كانت صادمة بالنسبة لي.

«حرام اللحية اللي في وجهك، سير أحلقها»

«اتق الله في نفسك»

«والله ندمان أني صليت في يوم خلفك»

«اطلب لك الهداية»

«ملحد»

«راجع نفسك وتب إلى الله»

بعد هذا المنشور حدث ما لم أتوقعه. تغيرت حياتي في جانبها الديني والفكري والفلسفي بشكل تدريجي دون أن أشعر. الأفكار التي تدور حول الإيمان والتشكيك في الدين الإسلامي كانت البوابة الرئيسة والأولى إلى عالم أوسع لا حدود له. عالم يمتزج بالنور والظلام، الثقة وعدم الثقة في الذات، بالوعي وعدم الوعي، بالثقافة والجهل. الغريب في الأمر والمضحك في الوقت ذاته عندما أتذكر الآن، هو مدى تمسكي بأفكار كل مرحلة أكون فيها وأدافع عنها باستماته كأنها ولدت معي وما زلت متمسكًا بها ولم أغيرها قط. لم أدرك كل هذا حينها. كنت أدافع بشراسة عن أفكاري الجديدة متناسيًا سخريتي منها بالأمس!

بعد يوم من ذلك المنشور، بعد خروجي من محاضرتي الأولى حوالي الساعة العاشرة صباحًا، كالعادة توجهت مباشرة إلى مختبر الحاسوب لأتصفح الفيسبوك. وجدت، كما توقعت وأشارت له الساعات الأولى بعد المنشور، عددًا كبيرًا آخر من ردود يكاد يكون معظمها ينحصر بين الاتهام بالإلحاد والكفر والدعاء لي بالهداية وطلب التوبة والاستغفار. لكن كانت هناك مفاجأة تنتظرني في الرسائل الخاصة. وجدت رسالتين إحداهما من شخص لا أعرفه شخصيًّا لكن من قائمة أصدقائي الفيسبوكيين والأخرى من شخص أعرفه جيدًا، لا أستطيع أن أصفه بالصديق لكنه من دائرة أصحابي في قريتنا، وصديق طفولتي في إحدى مراحلها الابتدائية، جارنا.

الرسالة الأولى رابط لتدوينة من مدونة لا تحمل أي إشارة لهوية صاحبها.

اسم المدونة «مهرطق»، وفي جنب الاسم كان هناك تعريف بصاحب المدونة لم أفهمه، (مهرطق، هائم في سماء حريتي. كنت نائمًا فجأة! وجدت نفسي أخربش بين مهرطقين).

شكرته وتبادلنا بعض الحديث لكن لم أتجرأ على سؤاله إن كان هو صاحب المدونة أم لا. حاولت في البداية جرجرته للاعتراف بطريقة غير مباشرة وعندما لاحظت تهربه، احترمت موقفه؛ فقد يكون لا يريد أحد أن يعرف صلته بالمدونة سواء كان هو صاحبها أم أحد معارفه أو أصدقائه. ويجوز ألّا يعرف من هو صاحبها أصلًا.

وبرغم الفضول والغضب الذي اجتاحني بعد تصفحي السريع لبقية التدوينات التي كانت جلها تحاول التشكيك في الدين الإسلامي أو هكذا فهمت وقتها، رضخت لرجائه غير المباشر بعدم السؤال ورجعت للتدوينة التي طلب مني قراءتها. بدت لي تدوينه عادية بعد اطلاعي السريع عليها حيث لم أستطع قراءتها بتأن لأن فضولي لمعرفة محتوى الرسالة الثانية كان يشدني؛ فقررت الرجوع لها فيما بعد. حدث ما لم أتوقعه، مفاجأة بل عدة مفاجآت.

«قد تجد ضالتك هنا:

رابط صفحة فيسبوك تحمل اسم (ملحد عربي)

أثق بك»

في هذه الرسالة تجمعت المفاجآت رغم اقتضابها. ابن بلدتي جاري المعروف بتدينه والملتحي يرسل لي تلك الرسالة! سبق وأن علق على منشوري السابق:

«اتق الله»!

عدد متابعي هذه الصفحة يتجاوز المئة ألف! جاري يثق في ويفصح لي عن موضوع كهذا! نظرت إلى ساعتي وجدت أن موعد المحاضرة التالية قد حان ولم يتبق إلا ثلث ساعة. أجلت صدمتي، أو بالأحرى صدماتي إلى ما بعد المحاضرة؛ فلدي متسع من الوقت حتى لو أستعير سيارة زميل والتوجه مباشرة إلى قريتنا لأقابل جاري، لأسأله وأنا أنظر في عينيه. هذه الفكرة التي جاءتني وقتها.

قبل أن أغلق صفحتي تذكرت التدوينة التي أرسلها لي صديقي الفيسبوكي فقررت قراءتها ثم التوجه مباشرة إلى محاضرتي والاستغناء عن قهوتي التي اعتدت شربها قبل محاضرتي الثانية. منذ ذلك اليوم بدأ الفيسبوك يغير روتين حياتي.

«ما هي منهجيتنا في القراءة؟

ليس المهم أن تحقق رقمًا كبيرًا في عدد الكتب التي تقرؤها بقدر ما تحاول أن تشغل عقلك بالتفكير فيما تقرأه من جديد مختلف من المعلومات والقناعات. وهناك نقطة مهمة جدا يجب ألا نغفلها حين نحدد ماذا نقرأ. البعض يبحث عن الكتب التي توافق طريقة تفكيره، ومنهجه في الحياة، وقناعاته التي ورثها من أسرته ومجتمعه. والأصح كما أرى، علينا أن نستدل ثم نعتقد. لأن المنهجية السابقة في طريقة القراءة هو الاعتقاد ثم البحث عن الأدلة التي تقوي وترسخ معتقداتك الموروثة فحسب.. الاعتقاد ثم الاستدلال.

لكني أتساءل حول الجدوى من إعادة قراءة ما هو مقروء، وتكريس ما هو مكرَّس. كيف لنا أن نبني إيماننا على أرضية هشة لا تقوى على مجابهة سؤال بريء مثل: لماذا؟ ولهذا السبب تجد الكثير من القراء رغم قراءاته

الكثيرة، ثابت لسنوات على منهجية تفكير وقناعات واحدة لا تتغير ولا تتزعزع. وهذا النوع من البحث والقراءة غالبًا ما تكون نتائجه معاكسة للأسف، حيث نجد الشخص يتعصب أكثر لقناعاته الموروثة ويقصي الآخر بشكل أكبر، بحجة أنه قرأ الكثير ومدرك للحقيقة المطلقة.

ليس هذا فقط، البعض منهم يتغنى تفاخرًا أنه قرأ العديد من الكتب ولم تغيره ولم تزعزعه عن منهجه الصحيح كما يدعي، رغم أن بعض الكتب التي قرأها مختلفة عن قناعاته ومنهجه. وهنا إشكالية أخرى يقع فيها بعض القراء، حيث إنه لا يقرأ ما هو مكتوب بقدر ما هو يقرأ ما هو مترسخ ومسطور في أدمغتهم من قناعات.

وهي نفس القضية التي حذر منها الدكتور علي الوردي في كتابه (مهزلة العقل البشري) عندما وجه إهداء الكتاب إلى قرائه بسبب معاناته مع بعض قراء كتبه السابقة، حيث قال: (أهدي هذا الكتاب إلى القراء الذين يفهمون ما يقرأون. أما أولئك الذين يقرأون في الكتاب ما هو مسطور في أدمغتهم فالعياذ بالله منهم).

أضع لكم هنا قائمة مجموعة من الكتب التي أنصح بها كل قارئ مبتدئ والتي ستساعد في توسيع مدارك القارئ بشكل كبير هي:

1- «النباهة والاستحمار» للمفكر وعالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي.

2- «مهزلة العقل البشري» للمفكر وعالم الاجتماع العراقي علي الوردي.

3- «السيطرة على الإعلام» للمفكر وعالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي.

4- «رواية 4891» للكاتب والصحافي الانجليزي جورج أورويل.

5- «الثابت والمتحول» للمفكر والشاعر أدونيس.

6- «معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا» للمترجم والمفكر السوري هاشم صالح.

السبب الذي جعلني أختار هذه الكتب، هو حاجتنا لكتب توسع مداركنا لرؤية الواقع بصورة واقعية أكثر ومختلفة عن الصورة المعتادة، وتغير منهجية تفكيرنا ونظرتنا للأشياء وترسخ منهجية النقد بشكل أكبر، أكثر من حاجتنا لكتب مملوءة ومحشوةبالمعلومات. خاصة إذا كنا نتحدث عن القراءة العامة أو بمسمى آخر المطالعة وليس قراءة الكتب التخصصية التي تتبع منهجية دقيقة ومعقدة في البحث العلمي.

وفي الجانب الآخر هناك إشكالية أيضًا، عندما يصبح القارئ أسيرًا لكل ما يقرأ دون أن تكون له منهجية واضحة في التفكير والنقد؛ فتجد بعض القراء يتخبط في التحولات السريعة في منظومة قناعاته بين ليلة وضحاها نتيجة قراءاته المتنوعة.

(ج)

كبرت ومرت السنون، كانت لدي صديقة مقربة وحميمة لقلبي. أحببتها جدًّا بل عشقتها في مرات كثيرة. ابتدأت صداقتنا في آخر مرحلة من الثانوية العامة واستمرت حتى المرحلة الجامعية حينها حدث أمر ما.

خُطبت صديقتي من قريب لها وكان مثالا للذكر الشرقي. لا أستطيع أن أصفه أكثر من قول ذلك. كان بلا شهادة تعليمية إلا شهادة المرحلة الثانوية، ولكنه يعمل. وفي العرف المجتمعي أن الرجل لا يعيبه ذلك ما دام يعمل وقادرًا على أن يدفع المهر ويعيل أولاده وزوجته ويلبي رغبتها فوق الفراش. فليبق جاهلًا ومتخلفًا ما حيي، ذلك لا ينقص من كونه ذكرًا قادرًا على كسب معيشته وقادرًا على التناسل وإشباع فحولته. فكل الذكور رجال بفحولتهم وماهم، وكفى.. وغير ذلك لا يهم.

منذ أن بدأت علاقتهما نسيت أنها ذات مستقلة. تذكرت فقط ما أمرها الدين به من التبعية للزوج؛ فلا كيان لها إلا تحت كنف كيانه. وإنني أتعجب من وجود مدافعين عن الإسلام التاريخي عندما يزعمون أن الإسلام كرم المرأة ومنحها جميع حقوقها وهو الذي شرع سبي النساء وبيعهن وضربهن وإجبارهن على ما لا يردن من أجل قضيب قد تتشاركه مع ثلاث زوجات وعدد لا يُحصى من الجواري. ثم بعد ذلك تكتفي بأن ترث نصف ما يرثه أخوها الذكر. ورغم أنها درة مصونة يجب المحافظة عليها والعناية بها حسب طريقة ذكور الدين إلا أنها تبقى ناقصة عقل ودين.

آآخ حتى في جنتهم الملعونة لن تحصل على قضيب زوجها لها وحدها؛

فحوريات العين لهن نصيب كذلك. لكن ماذا لو كانت هذه الزوجة تلعن حظها في هذا الزوج! حتى في جنتها يجب أن تكون له هو فقط!

أمرها أن تقطع تواصلها معي بتاتًا. ورغم إصرارها على عدم فعل ذلك كما أوضحت لي لكنها رضخت للأمر في نهاية الأمر. غضب بشدة وذكرها أن رضاه من رضا الله ويجب عليها أن تتقبل تدخله في أمورها الخاصة، وأنه من حقه تفتيش هاتفها ومحادثاتها اليومية كذلك. كل هذا حدث ولم ينتقلا بعد للعيش تحت سقفا واحدا!

- زوجي أمرني ألا أتواصل معك.

اجتاحتني صدمة لا يمكن وصفها:

- لماذا؟!

- هذا من حقه.. هو زوجي ويجب أن أطيعه؛ ليرضى الله عني.

تساءلت في داخلي.. وهل يجب أن يظلم الله إنسانًا آخر؛ ليرضى زوجك! هل هذا هو العدل يا ألله.

- أرجوك لا أريد مشاكل.. لا تتواصلي معي، ولا ترسلي أي شيء. هو يسألني كل يوم عن تواصلنا.

- حتى الرسائل النصية ممنوعة؟

- لاتتواصلي أبدًا.

- حسنًا، كيف لي أن أعرف عنك وعن تجهيزات زفافك؟ أنسيتِ أنني الوحيدة المقربة منك! ما يحدث غير منطقي. سأظل قلقة عليك.

- لا داعي لكل هذا القلق، سأكون بخير حتمًا.

- وهل بقية صديقاتك تشملهن هذه المقاطعة؟

- لا.

كان حديث مقززًا فعلًا أن أستمع إلى كل هذه الترهات من امرأة جامعية. سذاجة وسخافة أن تهين المرأة نفسها بهذا الأسلوب وتفتح الأبواب لرجل «غريب» لا تعلم عنه غير ما قيل لها من أفواه الناس الكاذبة حوله.. يصلي ويصوم، هذا أهم ما في الأمر.

هذه الحادثة تركت جرحًا غائرًا في إيماني بالصداقة. كيف بعد كل هذه السنوات الطويلة التي تجاوزت العقد يأتي من لا مكانة له؛ ليصبح فجأة بعرف الدين والمجتمع متملكًا لحقوق إنسان آخر.

بعد محاولات عدة مني لأبقى، اخترت الرحيل قسرًا وأنا أتجرع الألم في كل لحظة مرت علي في تلك الأيام والشهور التي تلت الحادثة. رحلت وأنا حين أرحل لا أعود أبدًا. لم أستطع أن أعذر صديقتي في أي شيء. حتى ردة فعلها كانت مؤلمة بمقدار عمق الصداقة التي كانت بيننا.

من حينها وأنا لم أتخذ أي أصدقاء بهذا القرب والعمق إلا «هو». بعد شهر من تلك القطيعة حضرت زفافها. كنت قوية كفاية لأفعل ذلك لأراها رغم جرحها الموجع. بيد أنني لم أكن أنا. كنت شخصًا آخر لا أعرفه. لم أستطع أن أخفي مزيجًا من ملامح الحزن والكآبة والغضب من على وجهي. لاحظ الجميع ذلك حيث إن صداقتنا تعدتنا، أنا وهي، إلى معرفة العائلتين لبعض. غادرت تلك الليلة مع آخر الحضور وكانت آخر مرة أراها.

قطعت كل وسائل التواصل معها مثلما طلبت أن أفعل. بقيت أبكي في كل ليلة من ليالي تلك السنة المشؤومة المنذرة بفوج أكبر من المشكلات القادمة. وبعد قرابة الثمانية أشهر من القطيعة قررت صديقتي أن تحاول إعادة

بعض من الصداقة؛ فقد اشتاقت لذلك الكم الهائل من الاهتمام والحب الذي كنت أغرقها فيه. بعد أن عاشت مع ذلك الرجل الشرقي تعلمت أن الحياة لا تساوي الزوج فقط، وإنما كل شيء آخر تحبه.

أرسلت لي:

- أرجوك اسمعيني: صحيح أنك ابتعدت عني كما طلبت منك، لكن طيفك لم يغادرني قط. لا يكاد تمر بضعة أيام وإلا طيفك يأتي في المنام معاتبًا أحيانًا، ومذكرًا بلحظات فرح أحيانًا أخرى. لا أستطيع النوم جيدًا، ما زلت أفكر فيك. هذا كل ما أردت قوله، أتمنى أن تكوني بخير.

لقد أينعت زهرة داخلي عندما رأيت اسمها على شاشة هاتفي من جديد. أقسم أن شيئًا بداخلي غمرته الفرحة. شيء ما اكتمل بداخلي مع تلك الرسالة. لكن كبريائي كان أكبر. وجعي كان أغزر. لم أرد على تلك الرسالة تركتها فارغة بلا رد، لأن ما كان يغص في قلبي أكبر من أن تختصره أي كلمات في هذا الكون. كانت مشاعري بكماء. ساقت رسالتها لي الألم من جديد رغم مرور سنة كاملة أحاول فيها النسيان والتعافي من الظلم الذي لحقني. كان يجب ألا تتخلى عن ذاتها ولكنها فقدت أثمن ما تملك حين تخلت عنها. ظللت أبكي وأنا أحضنني بين أحشاء سريري في تلك الغرفة التي أصبحت جزءًا من روحي.

غرفتي الجامعية التي احتضنتني بكل حب دون أن تسأل مقابلًا ولم تتخل عني طيلة سنوات دراستي. كانت تسمع أصوات وحدتي، وأنفاس قلبي، ودموع روحي، وأنا أنشج كلما دقت ساعة الوحدة. وفي الصباح أبتسم وكأن الحزن لم يطرق باب قلبي من قبل. أوهمني وأوهم الجميع أن الحياة مثالية وها أنا أعيشها. تطرق جارتي وزميلة دراستي الباب إذا زادت

حدة البكاء وتسألني:

- هل تريدين أن تشاركيني همك؟

- لا أستطيع، لا أتوقع أنك تفهمينني.

أنسى وأجاهد الوجع بحبة منوم؛ لأنام نصف ساعة حتى أعيش يومي الباقي بقليل من القوة وكثير من الوهن المخفي. عانيت اكتئابًا حادًّا وكنت مدركة لذلك. لم أكن أستطيع النوم دون منومات. كنت أشعر بتحسن أكثر لو كنت ملتصقة بسريري.. أشعر بالارتياح والطمأنينة.

مر شهر منذ رسالتها الأولى. أعادت الإرسال مرة أخرى تسأل عن حالي أيضًا؛ فكان جوابي أن تجاهلت الرسالة. أعادتها للمرة ثالثة فتلقت مني نفس الجواب. كنت أشعر بالتحسن والقوة كلما أرسلت لي وتجاهلتها.

7

للتوفيق بين إيماني وعقلي قادني اللاوعي إلى أن هناك إشكالية في تفسير القرآن. قد يكون هناك خطأ من المفسرين في فهم الآية والمراد منها. فلا يعقل أن يوجد هناك خطأ بنيوي ودلالي في القرآن الذي كتبه الله في اللوح المحفوظ منذ الأزل وأنزله جبريل مباشرة على نبيه.

إنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. حادثة المنشور في الفيسبوك وما تلاها دفعتني لعدم الثقة بما تعلمته وقرأته وسمعته من تفاسير. زادتني فضولًا للبحث وقراءة الكتب التي نصحتني بها التدوينة التي قرأتها في مدونة مهرطق. زرت عدة مكتبات في العاصمة وجلها مختص في القرطاسيات لذا لم أجد كل الكتب التي أبحث عنها. تواصلت مع الصديق الفيسبوكي الذي شاركني التدوينة وأخبرته ما حدث وطلبت منه إعارتي الكتب إن أمكن. وافق على إعارتي ما توفر لديه من القائمة ونصحني بالبحث عن البقية في الإنترنت. أعترف كنت متخلفًا، لم أكن أعلم أن هناك آلاف الكتب متوافرة بالمجان في الكثير من المواقع عبر الإنترنت.

اتفقنا على مكان ووقت معين للقاء، أسعدني التعرف عليه على أرض الواقع. يبدو أنه أكبر مني عمرًا ببضع سنوات ليس أكثر. ما شدني في شخصيته، وهذا ما لمسته بشكل جلي كانطباع أولي في أول لقاء بيننا، كثير الابتسام كأن الله لم يكتب ويقدر له في لوحه المحفوظ أي نوع من أنواع التعاسة في حياته. لكن بعد توالي اللقاءات بيننا، اكتشفت خطأ انطباعي الأول وفشلي في الفراسة وضعف مهارتي في معرفة خبايا الناس التي أقابلها.

تعلمت من هذه التجربة أن من يضحك كثيرا قد يكون من الممكن أنه يخبئ في داخله حزنًا عميقًا وجرحًا غائرًا.

بعد عدة لقاءات بيننا، جميعها أتت طلبًا مني بحجة مناقشة بعض النقاط التي لم أستطع فهمها بشكل عميق وأود مناقشتها معه، اكتشفت مدى ثقافته الواسعة، في الدين وعلم الاجتماع والفلسفة وحتى في رياضة لعبة كرة القدم. في الحقيقة لم أكن أهتم بكل هذه المواضيع ما عدا الجانب الديني وحسب طريقتي الخاصة وهو عدم الخروج عن الموروث والمألوف لدي، بالإضافة إلى تخصصي الدراسي. اكتشفت فيما بعد أن وضعي لا يختلف عن أي إنسان مسجون منذ ولادته في غرفة لا يخرج منها، ويعتقد أن حجم العالم لا يتجاوز جدران تلك الغرفة.

لاحظت سعة أفقه وثقافته من حواراته ونقاشاته مع بعض أصدقائه الذين كانوا يشاركوننا لقاءاتنا. لكن ما أدهشني في أمره واعتبرته حينها نوعًا من الضعف في قدرة الاستنتاج هو أنه لم يكن يحمل أجوبة يقينية ولا يرسو على أي شاطئ عقدي أو مذهبي. وجدته عائمًا على قطعة خشبية صغيرة بالكاد هو قادر على التشبث بها في وسط محيط هائج تتقاذفه الأفكار، وبخلاف ما كان يبدو لي. كنت أشعر أن الحقيقة واضحة وجلية كوضوح الشمس في وسط النهار. كنت سريع الاستنتاج وسريع التشبث بأفكاري. اعتبرته ضعيفًا حيث لم يكن يدافع عن أفكاره، وفي كل مرة يستسلم أمام دفاعي المستميت لأفكاري. كان يكتفي في بعض الأحيان عندما يراني شديد الحماس في الدفاع بقول جملته المعتادة:

- على العموم مثلما أخبرتك، الحقيقة ملك نفسها.

لم أفهم حقيقة ما يعني إلا بعد فترة من الزمن ووقت طويل قضيته في القراءة. كنت أشعر بالضياع كلما قرأت أكثر، برغم أنني اجتهدت في البحث عن إجابات وليس زيادة عدد تساؤلاتي. كنت أنام أحيانًا وعقلي لا ينام، يظل طوال الليل يقلب الأسئلة. وهذه من مفارقات مسرح الحياة تحت عنوان: خدعة. كلما أبحر الممثل أكثر في بحر القراءة، غرق في حقيقة الجهل. بينما يبقى الممثل السيئ على الشاطئ يصدح بالحقيقة المطلقة.

8

زادت إشكالياتي حول الأحاديث النبوية التي قادتني فيما بعد إلى تحول جذري في فهمي للدين. قدح الفكرة في رأسي منشور قرأته في صفحة (ملحد عربي) يسخر من المسلمين إيمانهم بمجموعة من الخرافات تناولها المنشور، والهدف منها كان التشكيك في صحة الدين بشكل مطلق. وهذا ما أغاظني واعتبرته إهانة للدين وتعديًا على الله ورسوله. وأحسست أنه من الواجب عليّ كمسلم الدفاع عن الله ورسوله ودينه. تخيلتني أكثر من مرة في مواقف مشابهة، تمكنني من رقابهم ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه التطاول على كل مقدساتنا الإسلامية.

وقعت في الفخ الذي نصبه لي جاري الملتحي المتدين. أيعقل جاري الذي أعرفه جيدًا، أو في الحقيقة هذا ما كنت اعتقدته، ينصحني بتصفح واطلاع صفحة ملحدين؟! بعد رسالته حاولت التواصل معه لمناقشة واستيضاح الأمر بشكل أكبر، كنت ما زلت أعيش الصدمة وفي داخلي غضب. لم يكن يخفف من نار غضبي إلا تذكر هيئة جاري وحسن سيرته. رفض بشكل مطلق كل دعواتي للجلوس معًا والنقاش حول الموضوع.

كان في البداية دائم التعذر بانشغالات وارتباطات معينة، لكنني شعرت أن موقفه هذا فيه إهانة قاسية لي؛ فمن المستحيل أن يصادف موعد دعواتي للقاء به موعد ارتباطاته وانشغالاته دائمًا. وإن افترضنا ذلك؛ فمن المستحيل ألا يجد أي وقت فراغ آخر للحوار.

أرسلت له رسالة قاسية وهددته فيها أني سأفضحه وسأخبر شيخنا إمام

المسجد بكل ما حدث. حينها استجاب لي ورضخ لطلبي، واختار هو مكان اللقاء ووقته. لعله حسب كل الإحتمالات التي قد يتعرض لها جراء معرفة حقيقته شخصا إضافيا آخر.

تجهزت للقاء وحضرت نفسي لعدة احتمالات تصورتها في ذهني. وأهم الأفكار التي تبادرت في ذهني حينها أن جاري يحاول اختباري، وهذا ما رجحته أكثر.

كل ما حضّرته لم أقله، وكل ما توقعته لم يحدث. قبل أن أنطق بكلمه قالي لي:

- أنا وثقت بك، ألم يحدث هذا؟

- نعم

- إذن ثق بي

- ما فهمت ماذا تقصد؟!

- أنت لست جاهزًا للنقاش بعد، وأنا لست شجاعًا بما يكفي.

- لم أفهم بعد!

- ولهذا قلت لك ثق بي، وأعني لا تطلب مني أكثر مما سأقوله، وستفهم كل ما قلته في حينه.

- كما ترى.

ثم أضاف بعد تحديقه في عيني لعدة ثوان كأنه أراد التأكد من صدقي من

خلال عيني وليس لساني:

- المُقدَّس في حد ذاته ليس مُقَدسًا، إنما المُقدِّس هو من يصنع هذه القدسية مع مرور الزمن، وكلما زادت الفجوة زادت معه هالة القدسية. في الحقيقة، الأتباع يرثون المقدَّس، ويُقَدِّسون الموروث، ويورّثون المُقَدَّس، كحقائق مطلقة! ... تذكر جيدًا ما قلته.

بعد انتهائه، نظر إلى ساعته ثم سألني عن أحوال الجامعة ودراستي؛ ففهمت منه أن حواره حول الموضوع قد انتهى.

قبل أن ينصرف ويتركني في مكاني على طاولة المطعم حائرًا قال:

- على العموم، هناك مبادئ وأخلاق وقيم يجب أن تكون ثابتة لا تتغير أمام اختلافاتنا الأيديولوجية والفكرية سواء كانت سياسية أو دينية أو غيرها.

(د)

كنت في سنتي الأخيرة في الدراسة حينما خطبني رجل من قريتي لكنه من قبيلة أخرى. يكبرني بخمس سنوات ويعمل مدرسا في إحدى الجامعات. سمعت عنه ولم أعرفه فعلًا؛ ففي مجتمعاتنا لا تعرف الفتاة شريكها الذي ستعيش معه إلا بعد عقد القران إذا كانت محظوظة. وفي أحيان كثيرة بعد الزواج فقط. وكالعادة يشرعنون بأعراف المجتمع المقدسة أكثر من الدين نفسه. أثنى عليه إخوتي كثيرًا كونه يصلي ويصوم؛ فهو ذو خلق حسن.

كنت مترددة كثيرًا في القبول. قلت لأمي وأنا أبكي:

- جميعكم تضغطون علي للموافقة وأنتم لم تثقلوا كاهلكم بالسؤال حتى! فقط لأنكم تعرفون أباه وأمه يحدث كل هذا. لا تعرفون أي شيء عنه.

صليت استخارة كما يفعل المسلمون. وافقت.. تم عقد القران. بكيت كثيرًا في ذلك اليوم وجميع من في البيت كانوا يضحكون على حالي. ربما كنت أبكي لاشعوريًّا ذلك المصير الذي سأواجهه مع هذا الذكر «الغريب» الشرقي شديد السخف. أليس ذكرًا سخيفًا من يقرر أن يرتبط بفتاة لا يعرفها! لم أكن أدرك حينها حجم تلك المهزلة.. أدركتها فيما بعد.

في تلك الليلة، في احتفالية عقد القران وبعد أن ذهب جميع المعزومين إلى بيوتهم؛ ليلتحفوا الفراش الدافئ وليتحدثن النساء عن فستاني الباهظ ولونه.. ومكياجي.. ذهبي وطريقة تقديمه.. وعن أصناف الطعام التي

وضعت.. والكعكة التي كتب عليها أسماؤنا.. وعن عريس المستقبل وشكله وأناقته.. هل يناسب مكانتي وهل أناسب مكانته.. وغيرها الكثير الكثير من الثرثرة التي لن تنتهي تلك الليلة إلا بغلبة النوم وانتصاره.

بقيت أنا وهو في المجلس؛ ليتحدث معي. لم يقل شيئًا ذا أهمية.. تحدث عن العمل وحين هم بالرحيل ترك قبلة على جبهتي وانتهت تلك الليلة. شعرت أنه غبي وساذج. قلت في نفسي: ماهذا! هل يوجد إنسان لا يعرف ما يقوله في هذه الليلة؟ حاولت تناسي الأمر وتجاهله. وبالبحث عن سبب لأقنعني، عزوت ذلك إلى الخجل رغم أني كنت أكثر منه جرأة وأنا المرأة التي يفترض أن تكون أكثر خجلًا. أكون جريئة في المواقف التي لا يتوقعها أحد رغم أن طريقة تفكيري ونظرتي للأشياء من حولي في تلك الفترة الزمنية لم تتغير بعد، كنت أنا ما زلت الفتاة الملتزمة المفاخرة بالتزامي الصارم.

توالت الأيام. كان يتصل أحيانًا ويرسل رسائل نصية أحيانًا أخرى. لكنه في الغالب كان يفضل الرسائل النصية. كان كثير الشكوى عن سوء الأوضاع المالية.. كم سيكلفه هذا الزواج. وأمور غريبة أخرى عن الدين والسنة ونهج السلف. ثم بعد ذلك اكتشفت أنه عضو في جماعة إسلامية مهمتها نشر الدعوة الإسلامية كما يدعون. يسافرون بالأشهر خارج البلد يؤدون تلك المهمة التي لا ينفقون فيها الكثير من المال حيث إنهم المستفيد الأكبر من التبرعات التي يقومون بجمعها. ولديهم برنامج خاص بالاعتكاف، كل شهر في مساجد محددة. يلقون المحاضرات ويرددون فيها ذات الكلام في كل مرة. لا أتوقع أنهم يفهمون جل مايرددونه.

لم أكن أعلم ماذا تكون عليه الجماعة ولماذا وجدت أصلا. بعد القراءة والسؤال عرفت أنها جماعة إسلامية أخذت طابعها الإسلامي من الهنود، ويتبعون مبادئهم في نشر الإسلام. يعادون الوهابية وهذا ما أثار حنقي عليه

حينها. بعدما علمت بذلك، ناقشته في مرة من المرات التي كان يقول فيها إنه سوف يعلمني دعوة الناس للدين الصحيح بالطريقة الصحيحة لأفعل ما يفعله. أوضحت له معرفتي بحقيقة هذه الجماعة.

- الاعتكاف في المسجد بهذه الطريقة خارج عن سنة النبي لأنه حين كان يعتكف لا يلتزم بزمان ومكان معين كما تفعلون. وتوجد فتاوى كثيرة في هذا الشأن.

غضب، لم يستطع النقاش لوهلة؛ لعله لم يملك أي رد. ثم قال:

- هم انتشلوني من طريق الضلال والدمار. كنت في بداياته ولولاهم.. أيام المدرسة في المرحلة المتوسطة بدأت أسرق أنا وزملائي من المحلات المجاورة للمدرسة. لو لم أجد من يرشدني قد لا أكون كما هو عليه الحال الآن وبقيت في ذلك الطريق. كل ما يفعلونه هو خير وأنا ممتن لهم.. مؤكد لن آتي لخطبتك والزواج منك؛ أنت ممتنة لهذه الجماعة. هل تعرفين.. نحن ننتشل متعاطي المخدرات مما هم فيه ويصبحون دعاة بعد أن كانوا ضالين.

انتهت تلك المكالمة لكن تفكيري حولها لم ينته. ردوده بدأت تخيفني كل ما أنعمت النظر فيها أكثر. كلماته أوضحت لي جانبًا كبيرًا من شخصيته. أجزم أنه كان يعاني مشكلة نفسية. لا يمكن أن يكون إنسانًا طبيعيًّا. لعل لديه نوعًا من الوسواس القهري، وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد. حين رأى شعر أخي الصغير مجعدا الذي لم يكن يتجاوز عمره حينها خمس سنوات ظل يسألني بلا خجل كل ليلة.

- هل يوجد فيكم عرق (خدام)[7] ؟

- نعم.. نعم يوجد.

تعمدت قول ذلك نكاية به. بقي يسألني مرارًا حتى مللت سؤاله وبدأ الغضب عليه يسبق أي شعور باتجاهه وقت أي تواصل من طرفه.

- إذا كان لديك أدنى شك فاذهب واسأل، وإن وجدت شيئًا من هذا القبيل؛ فطلقني.

- لا لا مجرد تساؤل فحسب لا أكثر من ذلك.

- تساؤل يكون لمرة أو مرتين وليس بهذه الصورة الوسواسية. أقترح عليك أن ترى طبيبًا نفسيًّا لأنك توسوس بشكل لا يحتمل.

- منذ الملكة وأنا أشعر أنني لست بخير. لدي صداع دائم؛ ربما أصابني نوع من المس أو الحسد. لأن حفلة الملكة كانت جميلة. وأنا أحضرت الكثير من الفواكة بأنواع مختلفة والعديد من صناديق الماء.. والعشاء كان لذيذًا كذلك.

وبدأت أسطوانة جديدة مرة أخرى فيما قدمه وما أحضره وكم دفع من مبالغ لذلك. بعد فترة حين ارتاح لي أكثر وعلم أن قلبي طيب لحد السذاجة زادت صراحته وبدأ يصرح بكل شيء. قال ذات يوم:

- كنت أحلم بأن أخطب فتاة بيضاء البشرة مثل الثلج، ممشوقة القوام، وشفتاها وردية، وشعرها أملس لامع، ولكن ماذا أفعل لم أرزق بها

7. في الدارجة الخليجة تستخدم لفظة خادم بشكل عنصري لوصف المواطنين أصحاب البشرة السمراء أو السوداء. (الرسول)

ووجدتك أنت. خطبت فتاة تعمل معي ولكنها رفضت؛ لأنها شيعية وأنا سني. وبسببها انتقلت من مكان العمل لآخر.

كان دائمًا يشعرني بأنه غير مقتنع وغير راضٍ بي ويحاول إقناع نفسه بهذا الزواج. وحين يشتهي وتغلبه الغريزة الحيوانية التي يتصف بها الرجال يأتي يزورني؛ ليأخذ القبلات رغم أنني كنت أكره ذلك؛ لأنني لم أحبه يومًا. التزمت مشاركته ما يطلق عليه حق علي.. بعضها على الوجنتين ومرات قليلة على الشفاة.

بدأت أعي نفسيته أكثر منه. أعلم ما يدور في خلده وأعلم ما يفكر وأعلم ما يريده في كل ما يخص زواجنا. كان دائم التردد والشك. لايعلم هو بنفسه ماذا يريد. خيرته كثيرًا بطلاقي إن كنت لا أمثل فتاة أمنياته وفارسة أحلامه.

- أنا حائر، حالي مثل الذي وجد كنزًا وغير قادر على حمله، وفي ذات الوقت غير قادر على تركه؛ ليأخذه غيره.

ربما كان صادقًا فيما قال. لحظتها شعرت بالانتصار. انتصرت لكرامتي. أقنعته بأن يعرض نفسه على مرشدة اجتماعية؛ لتحل له مشاكله النفسية واضطراب شخصيته وقراراته. في تلك الفترة عكفت كثيرًا على سماع المحاضرات النفسية والقراءة حول الموضوع. وحضرت كذلك بعض الدورات لأحل هذه المشكلة التي أوقعني حظي السيئ فيها.

***

- استقبلتني فتاة عشرينية فيما يبدو عليها. كانت جميلة جدًّا.

- .... جميلة جدًّا؟

- المهم ثم سألتني: هل يوجد لديك موعد؟

- لا، ولكني أريد موعدا مع مرشدة نفسية إذا أمكن.

هل هذه هي زيارتك الأولى إلى مركزنا؟

- نعم.

الدكتورة موجودة، دعني أرى إن كان لديها وقت اليوم لمقابلتك.

- دققت في جهاز الحاسوب الذي أمامها وبعد برهة قالت:

للأسف لن تستطيع مقابلة الدكتورة اليوم، الجدول مزدحم. لكن ممكن أن أحجز لك موعدا. يوما الإثنين والأربعاء مخصصان للاستشارات النفسية، أيهما تفضل؟

- لا أعرف. أنا متخوف. هل تنصحيني أن أرى الدكتورة؟ أنت تعملين هنا ما هو رأيك؟

أنت من يقرر ذلك؟

- طيب سأحضر يوم الأربعاء.

إذن موعدك الأسبوع القادم يوم الأربعاء، الرجاء الحضور الساعة الثانية عشر ظهرًا وأرجو عدم التأخر.

كان سعيدًا لأنه تعرف على ذلك المركز الذي أرشده إليه صديقه.

- لو كنت أعلم عنه، زرته في أيام دراستي للماجستير حيث كنت أواجه مشكلات نفسية كثيرة.

في يوم الموعود أرسل لي: أنا وصلت، أنتظر الآن ليأتي دوري.. سأوافيك بالتفاصيل لاحقًا.

- سألتني عن اسمي وعمري. كيف تعرف على المركز. طبيعة علاقتي بأبي وأمي. إن كنت متزوجًا. ما هو مؤهلي الدراسي. كيف أنظر لنفسي بعد خمس سنوات.. عشر سنوات. سجلت كل ذلك في ملف خاص أعدته لي وشرحت لي مهام مركز الإرشاد. ثم أخيرًا سألتني: لماذا أنت هنا؟

- في الحقيقة.. أنا هنا؛ لأن خطيبتي طلبت مني أن أرى مرشدة نفسية وذلك بسبب شخصيتي القلقة وعدم مقدرتي على اتخاذ القرار في أمر مواصلة زواجنا من عدمه.

- لماذا لا تواصلون مشروع الزواج؟

- لأنني في الحقيقة لا أعلم هل أريد ذلك أم لا؟

كل ما قامت به، أخرجت له ورقة وقسمت الأمر بكل سهولة إلى إيجابيات وسلبيات وقالت له: اكتب الإيجابيات والسلبيات في هذا الزواج، ثم سوف نناقش ذلك في الجلسة القادمة بعد أسبوع من الآن.

أكد لي أنه سيذهب للموعد القادم. في الحقيقة لم يكن يهمني الأمر كثيرًا؛ لأنني بدأت أقتنعني أنه لن يتغير شيء في الموضوع ولن يستطيع اتخاذ القرار،

وفي النهاية سيتوجب علي أنا أن أتخذ القرار وأنهي كل شيء.

***

مرت ستة أشهر ونحن على هذه الوتيرة من الحال. بغير حب، بغير مستقبل واضح. فجأة قرر الزواج وأنا لا زلت أدرس في سنتي الأخيرة من الجامعة. أي عقل ممكن أن يرضى بذلك، ولكني وافقت بسبب خجلي من انزعاج عائلتي منه ومن زياراته المتكررة.

تحدد موعد الزواج بعد شهرين من لحظة قراره. كنت قد أعددتني لما هو متعارف عليه من التجهيز ليلة الزفاف واخترت فستاني الذي لا يزال قابعًا متلحفًا بالأغبرة إلى الآن في خزانة الملابس البعيدة عني. وحين تمت كل الحجوزات وبقي فقط إعلان الموعد، قررت حينها الانفصال.

نعم أضعت نصف سنة في أمر كان يجب ألا يكون، رغم أنني مؤمنة الآن كامل الإيمان بأنها كانت التجربة الحاسمة في حياتي التي غيرتني إلى الأبد.

بعد مضي أسبوع من قراري عرفت عائلتي بالأمر. رفضوا قراري في البداية. اضطررت قول جل تفاصيل ما حدث؛ فتفاجأت بموافقتهم على قراري مباشرة بعد ذلك. وقفوا بجانبي رغم أنني لم أكن أتخيل ذلك بسبب طبيعة مجتمعاتنا الرافضة لفكرة المرأة المطلقة. لعل كبرياءهم عندما عرفوا الحقيقة تغلب على فكرة العواقب والنظرة الاجتماعية. النظرة التي تصف الذكر بلا زوجة كونه أعزب لا أكثر ولو أصبح كهلًا، بيد أن المرأة يمكن أن تطالها عدة ألقاب.. عانس، مطلقة، أرملة.

انتهى الزواج، ولكن لم تنته آثاره في حياتي. علمني درسًا بأن أكون إنسانًا قبل أن أكون أنثى.. قبل أن يكون لي جنس يصنفني به هذا المجتمع

المريض. لي الحق في اختيار حياتي كما يفعل الذكر، ولي الحق في العيش كما أريد مثلما يفعل الذكر، وأحب من أريد مثلما يفعل الذكر. لايوجد هناك أمر يستدعي أن أتنازل فيه عن قدر نفسي من أجل ذكر.

أن تكون حياتك عبارة عن حقيقة بشعة تجبر أن تعيشها بلا مفر منها هو أمر ظالم. ما اكتشفته أنني أستطيع أن أعيش بلا ذكر وليس كما أوهمني المجتمع أنني بحاجة إلى من يقوم باحتياجاتي. مجتمعاتنا عبارة عن أفراد مرضى تقتات على بعضها باسم الدين والعرف والعادات والتقاليد. إن الألم الذي نعيشه يحفر فينا عميقًا جدًّا ويترك ندوبًا ربما لا تشفى.. وفي الأغلب لا تشفى ولو أدرك عقلنا ووعى خلاف ذلك.

***

رحلت من نفسي إلى عالم آخر.. عالم جديد اخترته بنفسي هذه المرة بعيدًا عن ضوضاء المجتمع الكاذبة. بعد مرور شهرين من قراري تم الطلاق الرسمي. لم أكترث لأي نتيجة؛ فقد قررت وانتهى الأمر. أأخذ الأمر شهرًا أم سنة.. لايهم أبدًا. لم أنقل الخبر إلى دفعتي في الكلية إلا بعد مرور عدة أشهر من الزمن حين استعدت نفسي جزئيًّا. نظرات الشفقة من كل من حولي. لم أفهم لماذا الجميع كان مصرًّا أن يتدخل في خصوصياتي حتى لو كانت بنظرة شفقة.. لماذا؟! أنا امرأة لي الحق في الحياة كما أريد؛ فلماذا تسلبونني حياتي التي اخترتها بمشيئتي؟!

تخرجت من الجامعة بعد فصل إضافي. بدأت أبحث عن شغف جديد لأنمي مواهبي.. أو لأقتل وقت الفراغ الكبير حتى أجد الوظيفة التي تشغلني. بدأت أبحث عن نفسي من جديد. ندمت كثيرًا أنني لم أجدني في

الجامعة وأنشطتها. ندمت كثيرًا على تلك السنوات التي مضت سريعًا حين تخليت عني. لم أخرج منها إلا بشهادة لا أكثر. تذكرت معلمة اللغة العربية في مدرستي الثانوية وكانت مسؤولة عن الأنشطة الطلابية في المدرسة. تذكرت وشاح التخرج الذي كتب عليه: «لا تتراجعي عن تحقيق نفسك».

كتبت ذلك معاتبة لي على خلفية ابتعادي عن الأنشطة الطلابية التي كنت فاعلة فيها وترأست بعضًا من جماعاتها وحققنا عدة مراكز متقدمة على مستوى الدولة. حينها كان عذري أنني أنوي التركيز على الدراسة؛ لأحصل على درجة عالية تقودني إلى حلمي حيث الجامعة والتخصص. الآن أدرك جليًّا ما كانت تعني بكلماتها؛ فتلك الكلمات لربما أنها لم تنبع إلا عن تجربة خاضتها وخبرة متراكمة لسنوات.

بدأت بمتابعة التطورات السياسية والمجتمعية في البلد. كان أمرًا جديدًا ومربكًا بسبب عزلتي عن المجتمع والحياة بشكل عام من أجل دراستي الجامعية التي لم أحصل فيها على معدل عال كما حلمت رغم كل الجهد الذي بذلته. ما قيمة تلك التضحيات الآن وأنا لم أحصل على ما كنت أطمح؟! معادلة غريبة كيف أننا نتخلى عن أنفسنا من أجل هدف واحد فقط ثم لا نحصل عليه. إنني أؤمن الآن أنه كان علي ألا أتخلى عن كل شيء من أجل شيء واحد فقط.

9

تركت كلمات جاري وزياراتي المتكررة لصفحة ملحد عربي ندبات في لاوعيي. لأن وعيي كان منشغلًا بين الدراسة والبحث عن كل ما يقوم ويقوي حججي للرد على أصحاب المنشورات الكفرية في صفحات الفيسبوك. اكتشفت فيما بعد أن عددًا كبيرًا جدًّا من الصفحات التي تحاول الإساءة للدين الإسلامي موجودة في الفيسبوك وتنشر أفكارها بكل حرية. كان الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة لي، أيعقل أن كل هذا العدد من الناس كفار ملحدون وعرب في ذات الوقت؟!

لكن شغفي الأكبر كان حضور جلسات الخميس التي اعتدت حضورها مع صديقي صاحب مدونة «مهرطق» وبقية أصدقائه، أو في الحقيقة الذي أشك أنه صاحبها. لأنه حتى الآن رفض التصريح ولكنه أيضًا لم ينكر ادعائي بشكل جازم.

توطدت علاقتي به رغم اختلافنا الفكري والأيديولوجي في شتى نواحي الحياة. حتى نظرتنا للحياة وكل الأشياء من حولنا كانت تختلف وتتمايز بشكل كبير وجلي. أي شخص يستطيع أن يستشف ذلك مباشرة من حديثنا ولو لمدة خمس دقائق.

كانت صداقتنا غريبة بالنسبة لمن حولنا من المعارف، من يعرفونه جيدًا، وعرفوني أنا جيدًا فيما بعد. يكاد نكون نحن الاثنين فقط من يختلفون جذريًّا على كل فكرة تطرح على طاولة النقاش. أما بقية الحضور، كنت أحيانًا أتوافق

معهم وأحيانًا أخرى أختلف معهم. بيد أن صداقتنا استمرت وتوطدت أكثر. لا أعلم السبب الحقيقي بالضبط الذي جعله يقبل هذه الصداقة الغريبة، قد يكون رأى في إنسانًا آخر غير الذي أدعيه وأتقمصه ظاهريًّا. قد يكون رأى في إصراري على البحث والتحرر من القيود. رغم أني لم أكن أعي أن كل حماسي واستماتتي للدفاع عن أفكاري مجرد صراع داخلي للتحرر من قيود الموروث التي كبلت عقلي عن التفكير وترديده كالببغاء.

أما أنا فرأيت فيه الإنسان المختلف والمجنون بكل شيء وفي كل شيء، المتمرد على كل سائد. لاحظت أن فلسفة التمرد بالنسبة له ليست على المستوى الفكري فحسب بل تتجاوز الأمر لأكثر من ذلك، نظام حياة يحدد من خلاله خياراته اليومية وحتى سلوكياته الشرائية. لا أعلم إذا كان يمارس كل هذا بوعي أم لا، هل يدرك أن تمرده تجاوز مكنون جعبته الفكرية وأصبح يُرى على ظاهر حياته؟! يمكن ملاحظة ذلك في خياراته، في اقتنائه للأشياء، مثل الهاتف النقال، الحاسب المحمول، وحتى نظام التشغيل الخاص بحاسوبه!

مع مرور الزمن اكتشفت هذه الميول لدي. ارتياحي لغريبي الأطوار من الناس الذين يفكرون بشكل مختلف وينظرون للأشياء من حولهم بشكل مختلف. المتمردين على كل القيود الاجتماعية والدينية والسياسية. لا شعوريًّا كنت أحرر نفسي بهذا النوع من الصداقات التي تعيدنا إلى فطرتنا الأولى.. إلى طفولتنا. عندما كنا أطفالًا كنا نندهش كثيرًا. ما لبثنا حتى غابت عنا تلك الدهشة. كم نحتاج لتلك الدهشة لنستيقظ من سباتنا العميق، ونفكر ولو قليلًا.

في إحدى جلساتنا، اكتشفت أن هناك فريقًا من المسلمين يطلق على

نفسه بالقرآنيين. أحد الحاضرين كان يتبنى أفكارهم ويدافع عنها وأخذ يذكر الأسباب التي جعلته يتبنى هذا الفكر والدوافع التي ساقته لهذا المنحى. بالنسبة لي هذا نوع من الكفر وخروج عن جادة العقيدة الصحيحة وصراط الحق؛ فلا ينكر السنة النبوية إلا كافر. وحسب فهمي فإن القرآن واضح وصريح في نظرته للسنة النبوية التي لا تخرج إلا من مشكاة واحدة جنبا بجنب مع القرآن.

بينما كان مندمجا في ذكر حججه، كنت أردد آيتين في داخلي وأتجهز للانقضاض عليه بأدلتي القرآنية التي لا يمكن أن تعلوها أي حجج أخرى مهما كانت قوتها ومنطقيتها.

(وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى).

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر).

أليس القرآن يؤكد عصمة نبيه الذي لا ينطق إلا بوحي من رب السماوات والأرض؟! ألا يأمرنا الله في كتابه صراحة بإطاعة نبيه وقرنها بإطاعته؟! ولا يكتفي بذلك، يؤكد علينا نحن معشر المسلمين أنْ إذا اختلفنا في شيء نرده إليه يعني كلامه، وإلى رسوله يعني السنة النبوية. وهل توجد حجج أقوى من صراحة هذه الآيات؟!

الغريب في الأمر، كانت هذه أول مرة اختار فيها الاستماع على المبادرة في الحديث. لا أعلم السبب. استمر الحوار قرابة ساعة، هو يدافع عن حججه والبقية بين مؤيد ومعترض. الجميع منهمك في النقاش والنزاع، إلا أنا وصديقي. كان جل همه تدخين سيجارة تلو أخرى وهو يجلس غائصًا في الكرسي رافعًا ساقه اليمنى على اليسرى. كأنه يقول بكل صراحة وثقة أنا غير

مكترث لما تهرفونه، هناك قضايا أهم تستحق النقاش، أو أكثر تشويقًا بدلًا من هذا الخلاف السخيف. لم ينبس بكلمة حول الموضوع. اعتبرته نوعًا من العنجهية. كل ما قاله لي عندما لاحظ صمتي بخلاف العادة:

- ما رأيك؟

وبعد تدخين حوالي ثلاث سيجارات:

- غريبة ليست من عادتك السكوت.. لماذا؟!

أهم ما ذكره صاحبنا القرآني من حجج هو تأخر كتابة الحديث ومن البديهي تعرضه للزيادة والنقصان وتداخل المصالح السياسية والدينية كون الفترة التي سبقت كتابة الحديث والفترة التي كتب فيها الحديث، كانت فترة صراع داخلي في البيت المسلم الواحد. وعلميًّا لا يمكن أن يتناقل الرسالة شفهيًّا عدد كبير ومن ثم تبقى بنفس المضمون؛ فطبيعي أن يشوبها التغيير من الزيادة والنقصان بقصد أو دون قصد. كذلك وجود الكثير من الأحاديث التي تخالف القرآن والمنطق أيضًا. بيد أن ما شدني ولفت انتباهي أكثر حقيقة عدم وجود نسخة لأهم كتاب في الحديث النبوي وهو كتاب البخاري تعود لمؤلفه أو لعصره. أقدم مخطوطة كاملة تعود لفترة ما بعد وفاة البخاري قرابة مائة وخمسين سنة!

رجعت البيت ولم أستطع النوم تلك اللية. أصابني تشويش عميق فقدت بسببه ثقتي بنفسي، ثقتي بمقدساتي. خاصة عندما أتذكر الأمثلة التي ساقها ليقوي بها حجته. الغريب في الأمر أن معظم الأحاديث التي ذكرها كنت أجهلها ولم أكن أدري بوجودها في الصحيحين! والبقية أعرفها لكنني لم أكن أقارنها.

أعتقد أن الوصول لمعايير المقارنة هي الطريق الأمثل للتميز وزيادة الوعي، وترسيخ أدوات التقديس هي الطريق الأنجع للتضليل وتوجيه العقل.

يومها قررت أن أقرأ الكتب التي نصحني بها صديقي. مرت أشهر منذ استعارتي الكتب، وتنزيل البقية من الإنترنت. لم أتجرأ على قراءة الكتب لأني خفت على إيماني وعقيدتي من التضليل. وهذا ما أكده لي شيخي عندما أعلمته بما حدث وذكرت له أسماء الكتب.

- هذه كتب كفرية وفيها من التضليل والمغالطات الذي يجبرني أن أحذرك من قراءتها... أصلًا الذين كتبوها أكيد كلهم ملحدون وزنادقة والعياذ بالله.. الذي بيده القرآن وكتب الصحاح وأمهات الكتب مثل كتب الإمام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب لماذا يحتاج قراءة كتب أخرى يمكن أن تزعزع من إيمانه؟!

لا أعلم هل شيخي قرأ تلك الكتب.. أو يعرفها أصلا؟! هل إيماني ضعيف لهذه الدرجة الذي يمكن أن ينهار بكل سهولة بسبب قراءة مجموعة من الكتب؟! هل الله ضعيف لدرجة لا يستطيع فيها حماية دينه لكي يحتاج لمثلي للدفاع عنه وعن دينه؟! هل لله فريق اختاره ونحن لا نعلم؟! في الحقيقة كنت يومًا ما أعتقد أني أعلم.

مثل هذه الأسئلة نبتت في رأسي وبدأت تنمو سيقانها وتحفر عروقها في وعيي تلك الليلة. اتصلت بصديقي وأخبرته بما جرى وحددنا موعدًا للقاء. ثم أرسل لي رسالة نصية كأنه أحس ما بداخلي من ضياع:

«لا تكترث لهراء الوعاظ ورجال الدين، فهم يشغلونك بسطحيتهم عن جوهر الدين. واحذر من الشخص الذي يقدس قناعاته العقدية

والأيديولوجية أكثر من قيمة الإنسان.»

لم أستطع النوم إطلاقًا رغم كل محاولاتي للتحايل على النوم لكنه أبى كأن تلك الأسئلة تنفره وتخوفه من القدوم. عندما يئست قررت أن أقرأ أخيرًا. اخترت أصغر الكتب حجمًا وكان لعلي شريعتي، «النباهة والاستحمار». لم أتركه حتى فرغت منه تلك اللية. لم أفهم كل شيء. كتبت ملاحظات لكل ما قرأته ولم أفهمه ناويًا الرجوع لها لقراءتها من جديد ومن ثم مناقشتها مع صديقي في جلسة خاصة.

انتظرت أذان الفجر وصليت في المسجد ثم نمت.

10

فضولي زاد أكثر بعد قراءتي الكتب التي نصحني بها صديقي، شكوكي وأسئلتي زادت، لكن ما زلت أشعر أنني قادر على الإجابة على تلك الأسئلة. كنت دائمًا أحاول أن أرتب أفكاري وأكتبها في دفتر ملاحظات خصصته لهذه المهمة. الناظر لي سيتصور أنني بصدد اكتشاف نظرية كيميائية من كثرة الملاحظات وأسلوب ترتيبها في جداول مختلفة الأحجام.

بدأت أقرأ أكثر، وأقلل من حضوري لجلسات الخميس بحجة الانشغال، وإذا حضرت أكون في الغالب مختليًا بصمتي. أصل متأخرًا وأنصرف مبكرًا. بدأت أتحاشى الحضور لولا إصرار بعضهم لمشاركتهم. لم أفكر وقتها لم كل هذا الشعور، فقط إحساسي بعدم الرغبة في الذهاب كان كافيًا بالنسبة لي. لكنني أتصور أن السبب الحقيقي يعود إلى شعوري بالضياع؛ فما الذي سأقوله وأصر عليه وسأدافع عنه مثل قبل؟! وقد يكون بسبب تنازلي عن عدد من الأفكار التي استمت في الدفاع عنها يومًا ما، وخجلي من إيضاح ذلك.

المرة الوحيدة التي شاركت فيها عندما أعيد طرح موضوع القرآنيين ورؤيتهم حول الحديث النبوي وموقفهم منه، وكنت حاضرًا. الذي ساعدني في المشاركة هو اطلاعي بشكل موسع حول هذا الموضوع وتعمقي في قراءة أفكار أشهر رواد هذا التوجه. لكن الأهم من ذلك هو صمتي ذلك اليوم عندما طرح الموضوع لأول مرة؛ فلم أشعر بالخجل لأني سأتخلى عن أفكار سبق وأن دافعت عنها. صحيح أن ما قلته كان صادمًا ورأيت هذا في عيون

من كانوا يتقاربون معي في الأفكار، فكم ساندتهم وساندوني في النقاشات. كلامي يعد انقلابًا ضمنيًّا عليهم، هذا ما قالته أعينهم.

- ليس صحيحًا أن جميع القرآنيين ينكرون السنة بالمجمل.

- ....

- على العموم أنا صرت أؤمن بمنهجية من يرد كل ما يخالف القرآن وينسب للسنة، وأميل لطريقة تفكيرهم.

- ....

- أتوقع من الطبيعي أن تجد أحاديث تخالف المنطق والقرآن أحيانًا، لأن المشكلة في منهجية علم أصول الحديث، يتم التركيز على السند أكثر من المتن. لكن هناك مشكلة أكبر في علم الرجال الذي يسمى علم الجرح والتعديل وأحد فروع علم أصول الحديث. فكيف يعقل أن يحكم على فلان أنه ثقة ويمكن أن تأخذ روايته من ظاهر أعماله فحسب؟! أيضا موضوع الثقة كان قائمًا على التحزب السياسي والفكري أو المذهبي. أعني لو أن هناك شكًّا فقط في أن الراوي يحمل بعض الأفكار المخالفة، أصبح غير ثقة، ولهذا تجد أن الكثير من الأحاديث تختلف بين السنة والشيعة مثلا! لكن هناك سؤال منطقي كيف يعقل أن الصحابي أبا هريرة يروي قرابة خمسة وعشرين بالمئة من الأحاديث وهو لم يعايش الرسول أكثر من سنتين بالكثير.. سنتان لم تخلُ من حروب وإشكاليات في إدارة الدولة التي كانت دون أدنى شك ظروفا أبعدت النبي طويلًا عن أبي هريرة بجانب مشاغله الخاصة.

كنت أقرأ لأجيب على التساؤلات التي كانت تزيد بعد انتهائي من قراءة كل كتاب. لكن بعد هذا الحوار زادت ثقتي بنفسي أكثر وشعرت أنني بدأت من جديد أرسو على بر. وانكببت على القراءة بيد أنني بدأت أشعر أن إجاباتي أصبحت تزيد وفي ذات الوقت تقل أسئلتي. كأنني في سباق ووصلت خط نهاية الأسئلة؛ فلا يمكن أن يكون بعد هذا الخط مزيد من الأسئلة.

بعد هذا اليوم واظبت على حضور جلسة الخميس. ووجدتني تلقائيًّا أستميت دفاعًا عن أفكاري الوليدة التي لا يتجاوز عمر بعضها أيامًا وبعضها أسابيع بالكثير. وبعد عدة حوارات صاحبها الكثير من الجدال والاختلاف وأحيانًا الخلاف، قررت النشر في صفحتي الخاصة عبر الفيسبوك منشورًا كخارطة طريق لمساري الديني والفكري الجديد، ليكون شمعة هداية لي ومنظارا يبص من خلاله الآخرون على يقينياتي الجديدة وحقائقي المطلقة. طرحت الفكرة على صديقي ورحب بها على مضض ووعد بمساعدتي في صياغة أفكاري بشكل أوضح. كتبت المسودة الأولى وأرسلتها له لمراجعتها بلاغيًّا ونحويًّا، والأهم من ذلك لمساعدتي في تأصيل الفكرة بشكل أوضح.

فكرة الدولة الإسلامية تنافي مبدأ العالمية للرسالة المحمدية

أعيد هنا ترتيب بعض النقاط والأفكار التي قد طرحتها على طاولة النقاش مع مجموعة من الأصدقاء عبر عدة حوارات دارت بيننا. ولا أدري هل خانني التعبير أم حقا استطعت التعبير عنها بكل وضوح. وأقصد هنا «قناعاتي الحالية» وبصيغة أخرى الحقيقة التي أعيشها. شخصيا لا أؤمن بعبارة «البحث عن الحقيقة» في أمور الغيبة. لأننا لا يمكن معها أن نصل

للحقيقة المطلقة أبدًا.

لذا الاستمرار في البحث عنها والعيش في اللاأدرية ستكون عواقبها وخيمة على الإنسان الذي جبل على العبادة، وليس «العبودية» كما يسميها البعض، وهذا تصور مناف لإيماننا بعدل الله مع عباده وبين عباده، ولا يمكن أن يتحقق ذلك العدل إلا إذا تحقق الاختيار الحر للإنسان، فكيف يحاسب من هو عبد مجبور!

وجبل الإنسان على العبادة لأنه خلق من مادة «الجسد» وروح «المعرفة». وهذا ما يميزه عن الكائنات الحية الأخرى، التي تملك الحياة فقط بجانب النزعة الحيوانية وهي الغريزة، مثلما يملك الإنسان النزعة البشرية وهي النفس. ورغم عدم استقراري على فهم واحد حتى الآن لماهية الروح، إلا أنها هي التي تصنع الفارق بين الإنسان وغيره من الكائنات. وهي التي تجبله على العبادة عن طريق الاستسلام والخضوع الحر ليصل لمرحلة السلام والطمأنينة.

- أؤمن بوجود الله مع توحيد ربوبيته وهو الإيمان بأنه خالق الكون وكل ما فيه، وتوحيد ألوهيته وهو الإيمان باستحقاقه للعبادة وحده فردًا صمدًا.

- الإسلام هو التسليم بوجود الله الخالق المستحق للعبادة.

- العبادة هي أفعال وتصرفات وسلوكيات اختيارية غير مرتبطة لا بطريقة معينة ولا زمن معين ولا مكان معين، بل هي مرهونة بصدق النية وحرية الاختيار. وهذا على خلاف من واقعنا بشكل كلي. السواد الأعظم يمارس «الشعائر» ويسميها عبادة تحت وطأة العادة وضغط المجتمع والخوف من النار. أليس هذا هو النفاق والكفر؟! الكافر ليس من لا يؤمن بما أؤمن به، بل هو الذي يغطي ويخفي ما بداخله بغطاء

ممارسات وشعائر معينة زائفة.

لماذا فرقت بين العبادة والشعائر؟ العبادة هو العمل الصالح الذي يقوم به الإنسان بمختلف الوسائل والطرق والأشكال كما ذكرت أعلاه. والشعائر ممارسات توقيفية ثابتة ومعروفة يقوم بها الإنسان في كل الملل كتعبير رمزي للعلاقة بين الإنسان وربه الذي يؤمن به. وهي ضد الفطرة البشرية حيث إنها لا تنسجم معها، لذا جاءت كتكليف. والالتزام بها يعتبر واجبًا شخصيًّا يفرضه الإنسان على نفسه وتؤتى حسب الاستطاعة مع صدق النية. (فاتقوا الله ما استطعتم)، (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها).

- عبر التاريخ اختار الله من عباده أنبياء يدعون ويذكرون بتوحيد الألوهية والربوبية، ويأمرون أتباعهم بعبادة الله حسب شريعة الرسول الذي سبقهم. الرسول هو النبي الذي بعثه الله برسالة جديدة «تشريعات» ناسخة لما قبلها من رسالات لكي تتوافق مع الوعي والإدراك الجمعي أو بمعنى آخر لتواكب التطور البشري والحضاري.

- من أهم ما تميزت به نبوة محمد وشريعته هي الخاتمية، وهذا يعني أن الله لن يبعث من بعد محمد نبيًّا. لأن الوعي الجمعي والتطور الحضاري عند الإنسان أصبح قادرًا على الاستيعاب والانتقال من مرحلة الحاكمية الإلهية إلى مرحلة الحاكمية البشرية، ولن تحتاج البشرية لنبي جديد ليكون كلمة الله في الأرض على عباده عن طريق الوحي.

- أيضا، تميزت رسالة محمد بالعالمية. ولا يمكن أن تكون عالمية إلا إذا توافقت مع الطبيعة البشرية القائمة على التدافع والديناميكية الاجتماعية بسبب الاختلاف والتعددية الذي ينتج عنه التطور الحضاري. والتوافق هذا يدفعنا للإيمان والتسليم بوجود الفهم المتباين والمتنوع للرسالة.

ومبدأ العالمية ينافي فكرة الدولة الإسلامية التي ستنحصر في ثالوث الزمان والمكان والفهم الواحد.

- الحديث النبوي ظني الثبوت، وتأثر بالعامل السياسي والاجتماعي قبل التدوين، وهذا شيء طبيعي ومنطقي عند من يفهم في علم الاجتماع. ولا يمكن أن نعتمد عليها لمعرفة ماهية شريعة محمد. لكن يمكن أن نستأنس بها إذا كانت لا تخالف القرآن. أيضًا، الحديث النبوي إن صح فإنه لا يتميز بالعالمية، بل كان موجها لمخاطبة عقل معين في زمن ومكان معين.

- من خلال القرآن يمكن أن نفهم شريعة النبي محمد ومقتضياتها مع عدم حصرها في رؤية أحادية. الغاية واحدة وهي توحيد ألوهية وربوبية الله والوسائل للوصول إلى ذلك غير محصورة وتعتمد على فهمنا للقرآن.

- الأصل في كل شيء الإباحة إلا ما حرمه الله في كتابه. لذا من يحرم ما أحله الله، ومن يحلل ما حرمه الله هو آثم ومتعد على حدود الله وعلى حاكميته. وكل المحرمات ذكرت في القرآن وتحمل طابع الأبدية. وكل ما عدا ذلك فخاضع للحاكمية البشرية.

- السنن الكونية عادلة إذا كنا نؤمن بعدل الله. لذا هي تسري على جميع البشر مع اختلافاتهم ومشاربهم وتنوع قناعاتهم. على سبيل المثال: الدول المتحضرة ما وصلت لهذا التقدم إلا عندما أوجدت وخلقت بيئة سياسية واجتماعية وتعليمية واقتصادية حرة وصادقة وعادلة بجانب الجهد والجد.

- من أهم أسباب التخلف الاجتماعي والاخلاقي عند المسلمين هو

التبني لقاعدة مختلة وناقصة وضعيفة في وصفنا للشخص المسلم، وهي حديث أركان الإسلام الخمسة. وهذا الاختزال في تصوير الإنسان المسلم ساعد في التساهل وظهور وانتشار مثل: الغش والكذب وغيرها من الأخلاق. إضافة إلى فكرة ترديد بعض العبارات وصوم بعض الأيام التي يقال إنها تجب ما قبلها وما بعدها من ذنوب! يعطي إحساسًا بالثقة أنه مسلم ومن خير أمة لأنه قام بتلك الممارسات الشعائرية التي يرتكز عليها إسلامه فهو مسلم لا ريب فيه. نفسيًّا ولا إراديًّا أحيانًا، يؤدي ذلك إلى التساهل في الأمور الأخرى التي يراها من سفاسف وصغائر الأمور. والله الغفور الرحيم سيغفر له بكل سهولة عن طريق الصيام وترديد بعض العبارات.

- ميزان التفاضل عند الله يوم القيامة قائم على سيرة الإنسان في الدنيا ما ظهر منها وما بطن، وليس على الشعارات التي يرفعها ويعرف بها.

(هـ)

أعجبت به ثم تحول ذلك الإعجاب إلى حب. كنت أشعر بأنه جزء جميل من نفسي.. تلك النفس التي أعيتني في فهمها. وجدته يفهمها أكثر مني. سعدت جدًّا بذلك؛ فقد وجدت من يفهمني وأفهمه أيضًا. ارتاح لي قلبه. منذ أول مكالمة بيننا، تحدث بكل شيء في نفسه وتحدى الكثير من المحرمات الفكرية التي يرفض المجتمع مناقشتها.

قال لي:«أنا لست مؤمنًا». كان أول من قابلته ويعلنها صراحة أنه ليس بمؤمن.

سألته: هل يعني ذلك أنك ملحد؟

تعمق في إجابته: «عدم الإيمان لايعني الإلحاد؛ فربما أنا مؤمن بوجود خالق أو قوة فوقية عظمى ولكنني أكذب وجود الأديان كرسالات سماوية. أنا حتى الآن لست متأكدًا من مدى إيماني بوجود تلك القدرة من عدمها.. أو لعلي لا أكترث أيضًا بوجودها من عدمها».

قال الكثير لكني حينها لم أفهم من قوله إلا القليل. هل لأني جئت من بيئة فكرية مختلفة تمامًا أم لعل إيماني المفرط بالحقيقة المطلقة التي أحملها حينئذ منعني من سماع ما قاله بإنصات فضلا عن فهمه وتقبله.

كانت تلك الأحاديث شيقة لأنها كانت منه فقط. تساءلت كثيرًا لأطيل المحادثة لأكبر قدر ممكن من الوقت، وكان يجيب بكل حماسة عن كل سؤال. لكن مع الوقت وكثرة الاتصالات بيننا أربكني وجود تلك الإجابات منه التي كانت في الحقيقة معظمها تساؤلات وإجابات تزيدك حيرة بدل أن

تشفي فضولك. ووجدتني أسألني عن وجود الله وماهية حقيقة وجود الأديان والأنبياء وغيرها من الأسئلة الوجودية.

زاد ارتباكي ودخلت في مرحلة شك كبيرة عن ماهية الدين. لم يجب عن أسئلتي ولكنه زاد المزيد من التساؤلات، ثم أرشدني إلى مشاهدة عدة برامج يوتيوبية ونبهني ألا أتابعها إلا بالترتيب الذي أعطاني. وفي ذات الوقت أعطاني قائمة كتب نصحني أيضًا بقراءتها مع ذات التنبيه. حينها لم أفهم القصد من التنبيه لكن بعد تقدمي في القراءة والمشاهدة أدركت سبب تنبيهه. لعله كان يدرك تأثير الصدمة الكبيرة التي قد تصيبني لو شاهدت أو قرأت ما نبهني لقراءته فيما بعد. النتيجة سيفشل مشروعه الشيطاني «الطريق إلى جهنم» كما كنت أحب ممازحته، وسأترك كل شيء.

١١

لم يطل التغيير الذي أصاب جانبي الديني على المستوى الإيماني والعقلي فحسب، كما فعل جاري؛ فتمرد صديقي تسلل إلى شخصيتي في غفلة مني مع مضي الأيام. انتشر في جسمي دون علمي ولم اكتشفه إلا صدفة فوق كرسي الحلاق. ذهبت للحلاق كالعادة لحلاقة شعري وتشذيب لحيتي. عندما انتهى الحلاق الباكستاني من حلاقة شعري بالكامل بماكينة الحلاقة رقم ثلاثة كالمعتاد.

- كيف تريد حلق الحية؟

وجدتني أطلب من الحلاق دون سابق تخطيط أن يحلق لحيتي «زيرو»! لم أصح من نشوتي إلا بعد تكرار السؤال من قبل الحلاق وعيناه بدتا فاغرتين من تجويفهما، وكذلك فمه.

- اللحية كيف تريد حلقها؟!

استدركت الموقف

- لا لا تعمل زيرو بصير شكلي غير جميل، ما هو الرقم موجود الأكبر لديك؟

هكذا هربت من أول متطفل على خياراتي، برغم أن الحلاق لا أعرفه ولا يعرفني. لا أتذكر أني دخلت ذلك المحل سابقًا، ولم أدخله إلا لأن صديقي أراد أن يحلق ورافقته؛ فقررت أن أغتنم الفرصة بدل أن أتعنى مشوارًا آخر.

لم يكن الحلاق ملتحيًا أو تبدو عليه مظاهر التدين لكي يدين طلبي وينظر لي تلك النظرات العجيبة ويشممني راحة فمه الكريهة.

بعدما رجعت شقتي وقرر جسدي النوم من التعب، حينها عقلي قرر أن يستمر صاحيا كما عودني أحيانا. استذكرت الموقف وأنا أضحك. بعدها تذكرت أن صديقي لم يعلق إطلاقًا على الحدث، وأنا كذلك. لأني بعدما نهضت من كرسي الحلاقة وبدأت أمسح على كتف دشداشتي وأنفض بقايا الشعر ثم سحبت محفظتي من جيبي لأدفع أجرة الحلاقة، نسيت الموضوع وانشغلت.. لماذا لم يعلق؟!

عدم اختلاطي بطلاب تخصصي ساعدني كثيرًا للوقاية من الأسئلة والأعين المتطفلة، فلم يكن لي تقريبًا إلا أربعة زملاء دراسة فقط. حاولت تجنب مقابلة كل واحد على حدة أو بعضهم، وتعمدت ألا ألتقي بهم إلا وأنا متأكد أن جميعهم موجودون.

- أفاااا وين اللحية؟!

- تغيير.... نعم. صحيح، على فكرة كيف كانت محاضرة الشيخ في مسجد الجامعة؟

حاولت تقديم إجابة مقتضبة دون أن ترافقها أي ابتسامة وسابقت في تغيير الموضوع مباشرة، متمنيًا أن يفهموا أني غير راغب في مناقشة الموضوع بتاتًا. شكرت سرعة بديهتهم ودعوت الرب حينها أن تزيد سرعة بديهة كل من أعرفهم إذا لم يستجب لي دعوتي في وقايتي من الأعين المتطفلة.

المتطفلون من أقبح الناس الذين لابد من أن تتأذى من شرهم. يحاولون التدخل في خصوصياتك والتطفل لمعرفة أدق تفاصيلها، وحتى خياراتك

الحياتية اليومية. ليس هذا فقط، حيث لا يتورعون من تأليف القصص والأكاذيب ويتقنون سردها باحتراف، إذا خانتهم موهبتهم التطفلية «مرضهم» ولم يصلوا إلى مبتغاهم الفضولي.

***

مضى قرابة شهر منذ حلاقة لحيتي ولم أنزل القرية خلالها محاولا تجنب ردة فعل شيخي وأهل القرية. لا أتوقع أني كنت أكترث لنظرات والديّ وأخي. وكما عودتهم وعودوني، لا يتدخلون في شؤون حياتي وخياراتي. حتى حينما لم أرجع أكثر من أسبوعين لم يتصل بي أحد، وبادرت من طوع نفسي بإرسال رسالة نصية إلى أبي أخبره بعدم تمكني من الرجوع للبيت متعذرًا بالعدد الكبير من الاختبارات.

في الحقيقة كنت أنتظر أن تنمو لحيتي، حتى لو لم أمهلها لترجع لسابق عهدها، لكن على الأقل أن تصبح أطول قليلا من طولها ما بعد الحلاقة. بعد شهر ونصف تقريبًا، قررت أن أرجع ومثل ما توقعت لم يسألني أحد في البيت. وصلت البيت قبل صلاة المغرب بقليل، لكنني لم أذهب إلى المسجد للصلاة، وكذلك فعلت مع صلاة العشاء. تجنبت الذهاب لأن في العادة في هاتين الصلاتين يكون عدد المصلين أكبر بكثير عن بقية الصلوات، وهذا يعني أن عدد المتطفلين أكثر. اخترت صلاة الفجر لأن عدد المصلين قليل جدًّا؛ فدفء الفراش وأحضان الزوجات أحلى وألذ من متعة الصلاة في المسجد، والله غفور رحيم.

تعمدت عدم الانصراف حتى يخلو المسجد من بقية المصلين. بقي في المسجد الشيخ وأنا وأحد المصلين، أخذ إحدى زوايا المسجد ليقرأ القرآن.

كنت متجهزًا ومتسلحًا بحججي للنقاش. هذا الحوار هو عنق الزجاجة لكي أستطيع أن أتحرر من الماضي بكل أفكاره، لكي أنعتق من عبودية الإله الجبار، المكار، شديد البطش والعذاب، وأعبد بمطلق حرية الاختيار الإله الرحمن الرحيم.

أنا مصدوم فيك. واضح أن الحياة في العاصمة غيرتك. ما أحد ضيعك غير أصدقاء السوء والكتب الكفرية التي تقرأها.. رغم أني حذرتك منها. ولهذا أنا لست متفاجئًا، لأنني شعرت أنك غير مقتنع بكلامي في نقاشنا الأخير، لكن توقعت أن إيمانك قوي وسيحميك من مكائد ومصائد الشيطان.

عدت البيت وأنا محمل بمشاعر مختلطة. شعور بالسعادة وشعور آخر لا أستطيع أن أحدده ولا أصفه بالضبط كلما تذكرت وجه شيخي المتجهم، أو من كان شيخي عندما كان يجادلني ويوبخني. أتذكر أكثر آخر منظر لوجهه وقت مغادرتي له. هل كان يوحي بكرهه لي، أم بالشفقة عليّ؟! ثلاث ساعات قضيتها معه كانت من أطول ساعات حياتي. لم أكن أصلًا مضطرًّا للحديث معه أخلاقيًّا فهو ليس أبي ولم يعد يعنيني كثيرًا مثل السابق أيضًا، بيد أن حاجتي النفسية هي من اضطرتني أن أذهب وأن أصبر كل تلك الساعات.

في البدء لم أستطع نسيان ما حدث لأني لم أتمكن حقًّا من قول كل ما أريد، شيء ما قيدني. كنت فقط أطلق اعتراضات بين حين وآخر. لو كان هناك جمهور يستمع لنا؛ لرجحت كفته بسهولة. أعتقد السبب أنني كنت أنطلق من قاعدة مهزوزة غير ثابتة، لأن أركان يقينياتي تهاوى منها الكثير ولم يبق منها إلا القليل وقتها. أما هو بدا شديد الصلابة ويجادل بكل ثقة إيمانًا منه أنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. ما أصعب التعامل مع الأشخاص الذين يملكون دائمًا الإجابات النهائية والمطلقة لكل شيء.

بحكم قربي منه، أخذت كلامه بمحمل شخصي في البداية لكن مع مرور الأشهر والسنوات تعلمت أن ما قام به لا يختلف إطلاقًا عما يقوم به آخرون أحيانا وهم لا يعرفونك أصلا، ما بالك إذا كان شخص تعرفه وتعنيت له لجداله. مجتمعنا يحب ثقافة العقل الجمعي، لا يؤمن بالفردانية ولا يعرفها. لكن يحارب بكل شراسة كل شخص مختلف وشاذ وناشز عن القطيع لتطويعه وترويضه للعودة مهزومًا مطأطئ الرأس ليكون عبرة لغيره.

يستمتع البعض بلعب دور الوصي أو الأب على الآخرين بحجة إرشادك للصراط المستقيم، ويخاطبك كأن قناعاتك وأفكارك شر مستطير، وقناعاته حقائق مطلقة ختمت بخاتم الوحي. أما البعض الآخر، يكتفي بالمشاهدة والتصفيق. هذه أزمة العقل الجمعي المقدس؛ فتجده يستميت في الدفاع عن قناعة ما وحتى على الفكرة وليدة اللحظة كأنها ختمت بخاتم الوحي ويهمش ويقصي الفكرة وصاحبها. فردانيته مطموسة وتسيطر عليه روح الإمعية في نسق التفكير واتخاذ القرار والتصرفات؛ فلا يندهش ولا يشك ولا يتساءل بل يفعل العكس يوميًّا عندما يبحث فقط عما يواكب هواه من معلومات وأفكار ليزيد بها تحجره. هذا النوع من العقول يقدس كل شيء اعتاد عليه، الأصنام الملموس منها وغير الملموس، الدين والتاريخ والعادات والتقاليد.

قررت أن أرسل ردي له عبر خاصية الرسائل الخاصة في الفيسبوك في البداية، لأني علمت منه بوجوده أيضًا في الفيسبوك عندما حاول أن يتباهى بصلابة وثبات إيمانه رغم وجوده في الفيسبوك. لم أرغب بالتواصل معه عبر الرسائل النصية كإشارة مني أنني لست أنا الماضي، وكذلك علاقتنا. أرسلت له طلب صداقة وقبلها. بيد أني غيرت رأيي متوقعًا أن إرسالي ما أريد عبر هذه الوسيلة سيدخلني مرة أخرى في جدال وسفسطة بيزنطية أنا في غنى

عنهما. فقط كل ما أريده أن أفرّغ ما يحز في نفسي ويجثو على صدري، لا أكثر. ثم قررت أن أنشر ما أريده في صفحتي ويستطيع أن يراه الجميع، وأكيد سيراه هو وسيفهم، ولن أرد عليه لو علق.

«أنت من ورثت ديانتك وعقيدتك ومذهبك من والديك كيف تتجرأ أن تسخر من الآخر الذي ورث أيضًا مثلك، الفرق أنه ورث شيئًا مختلفًا! هل قرأت كل شيء في كل شيء لتتأكد أنك أنت الأفضل؟! متى ستكتفي من الالتصاق بذاتك الدينية والعقدية والمذهبية للنظر أبعد من ذلك وتقرأ في جميع الأديان والمعتقدات والمذاهب ولو كانت في النقيض التام. للأسف أنت لم تستطع التحرر من ثوب المقدس الديني، مما أدى إلى انحصار زاوية فهمك للدين رغم سعته وتعددية الطرق إلى الله. تعرف لماذا؟ لأنك متصلب في رأيك وتعتقد أنك تملك الحقيقة المطلقة، وهذا يرجع إلى نسق تفكيرك المغلق، أنت تتبنى فكرة ما وتبحث لها عن الأدلة، والصحيح هو النسق المفتوح.. أفهم كما أرى.. وأرى كما أفهم، دورة لا يمكن أن تنفصل في فهمنا للأشياء إذا أردنا أن نخرج بحكم يلامس واقع «زمن وفضاء» معين.

لماذا تخاف من لحظات الشك؟! لماذا تخاف من الأفكار الجديدة؟! لماذا تخاف أن نقرأ للآخر المختلف؟! لماذا لا تؤمن أن في ممارستنا للشك وقراءتنا للآخر وبحثنا عن الأفكار الجديدة أننا نمارس إنسانيتنا؟!

أدعوك أن تقرأ. اقرأ.. اقرأ.. اقرأ. لا أنكر أن القراءة ذاتها تصل بك أحيانًا لمرحلة تكاد أن تقرر فيها ترك القراءة نهائيًّا. يأتيك هذا الشعور نتيجة اكتشافك حجم الجهل الذي تحمله في عقلك كل ما تقرأ أكثر. من خلال القراءة تكتشف حجمك الحقيقي في هذا العالم».

بعد هذا المنشور، سريعًا أقل من يوم وجدتني نسيت الموضوع وبدأت أفكر بالحياة الجديدة والمستقبل الذي ينتظرني. هكذا كنت أشعر حينها أني

ولدت من جديد وأن مستقبلًا أجمل ينتظرني. كان أيضًا لا بد من التخلص من كل تبعات ونتائج تفكيري السابق. قررت تغيير تخصصي بالكامل والانتقال إلى كلية أخرى. فعلت وتخرجت بعد زملاء دفعتي بسنتين.

الفصل الثاني

الحق أبلج والباطل لجلج؟!

«الولادة الثانية»

نحن من نصنع حظنا وليس العكس؛ فكل ما نواجهه من خير وشر ما هو إلا نتاج خياراتنا في الحياة!

٦

تخرجت من الجامعة بعد سنتين منذ تخرج زملاء دفعتي الذين خالفهم الحظ في الحصول على وظيفة؛ فمعظم زملائي الذين تخرجوا قبلي في جل التخصصات ما زالوا عاطلين عن عمل يحسبون الأيام والليالي. ثلاثة من زملائي المقربين في الجامعة قرروا إنشاء مشاريعهم الخاصة بهم بعدما أقنعوا أنفسهم بأهمية الأعمال والمشاريع الخاصة، وبعدما أقنعوا أنفسهم أيضًا أن العمل عبادة ولا يوجد ما يعيب أي وظيفة.

أحدهم قرر تربية الأغنام والأبقار والدجاج في مزرعة أبيه بحجة أنه مهندس زراعي! والاثنان الآخران خريجا كلية الإعلام والعلاقات العامة، قررا شراء سيارة تويوتا ياريس بالأقساط بعد إقناع أحدهما أخاه الأكبر ليكفلهما، وتحويل الياريس إلى مشروع تكسي يتناوبان عليه كل أسبوع، رغم أن المسافة التي تبعد بينهما لا تقل عن مئتين وخمسين كيلو مترًا! نسيت أن أسألهما أيضًا ما علاقة تخصصهما بهذا المشروع؟! لعله يكون أن سائق التكسي بحكم طبيعة وظيفته يمارس نوعًا من العلاقات العامة وهو يحاول إقناع زبائنه.. أو لعله يسهم في نشر أخبار البلد بين مدينة وأخرى؛ لا يقل تأثيره عن الصحف الصفراء التي لا يهمها المضمون قدر المردود المالي.

في الحقيقة لم تكن كل هذه المبررات إلا مداواة لجروح كبريائهم التي أصابتها أشواك الحاجة والسؤال للمساعدة من قبل الأهل لأكثر من سنة. لم يكن الأمر سهلًا أن ترجع للاعتماد على والديك وتسألهم حاجاتك الخاصة أو المال لشرائها بعد شعورك بالتحرر التام والاعتماد على ذاتك لأكثر من أربعة

سنوات. كيف يعقل أن يتجاوز عمرك الثالثة والعشرين وما زلت تستأذن والديك في كل سكناتك وحركاتك؟! هذا ما سيحدث تلقائيًّا ولا شعوريًّا كردة فعل من الوالدين بعدما ترجع فترمي بنفسك في حضن احتياجك لهما؛ فلا مال يمنح بلا سؤال يتبعه جواب، وسلطة يتبعها خضوع.

صحيح أن المبلغ الذي كنا نحصل عليه من الجامعة كمعونة شهرية لكل طالب لم يكن يكفي إلا للضرورات الأساسية، حتى الضرورات كان لابد من اختزالها من الضرورات إلى ضرورات الضرورات. فحاجة وجود غرفة ملائمة للمذاكرة والنوم المريح، وملائمة للخصوصية الفردية كان لابد من الاستغناء عن كل هذا والاكتفاء بوجود مكان للنوم فحسب، مهما كانت طبيعة النوم وتوقيته. لأن تلك المعونة كانت تشعرك بالاستقلالية وانتقالك من مرحلة الطفولة التي تحتاج المراقبة وتلبية احتياجاتها من قبل الوالدين إلى مرحلة الرجولة التي تدفعك لفعل ما تشاء دون رقيب أو حسيب، أو هكذا كنا نعتقد مقارنة بالقيود التي خرجنا منها.

شخصيًّا لم أشعر بذلك التغيير الكبير بعد دخولي الجامعة ليس لأني لم أخرج من بيئة وأسرة بها الكثير من القيود مثلها مثل غالبية المجتمعات والأسر في بلادي، بيد أني أتيت بقيودي معي.. إلى غرفتي التي نتشارك النوم فيها.. إلى الفصل الذي أدرس به.. إلى المسجد الجديد الذي بدأت أصلي فيه.. إلى كل الطرق التي كنت أسلكها بينهما. القيود التي فُرضت عليّ طواعية وتنازلًا مني بعدم الخروج من ذلك المثلث قرابة سنتين، لم تكن موجودة معهم خاصة الطلاب الذين يأتون من محافظتنا، إلا من سلم نفسه لها إيمانًا بالخلاص الأبدي، مثلي. حتى إن منحة الجامعة كانت تكفيني أكثر من غيري، وتزيد.

- أنا مستغرب بجد كيف تكفيك المنحة لآخر الشهر؟!

هكذا علق أحد زملائي بعدما علم عن وضعي المالي. لكن زميلًا آخر لم يكتف بذلك التعليق منتظرًا إجابتي بل سارع ليضيف تعقيبه الخاص:

- المطاوعة[8] هكذا يمسكون الفلوس. وهو يدخل سبابته بين فكيه ليعضها.

***

أنا، كنت محظوظًا إذ لم أحتج إلى حجج سخيفة لكي أبرر سبب عملي في مكان لم أختره ولا يتناسب مع طبيعة تخصصي ومستوى مؤهلي العلمي. أقل من خمسة أشهر وحصلت على وظيفة في ديوان البلاط الملكي في دائرة العلاقات العامة بحكم تخصصي في الإعلام والعلاقات العامة. ورغم أن المسمى الوظيفي الذي تم منحي إياه كان إخصائي علاقات عامة، لكن في الحقيقة لم أكن أكثر من منسق ليس إلا، بيد أن الفرحة والتباهي الذي كان يغمرني بحصولي على هذه الوظيفة يعود سببه إلى طبيعة مكان العمل. طبعًا لم أكن منسقًا كمنسق في شركة مغمورة أو في قسم تابع لوزارة خدمات، بل في مؤسسة تمنحك الهيبة والسلطة منذ أيام عملك الأولى. الأهم من ذلك، شبكة العلاقات التي يمكن أن تبنيها مع المراجعين للمؤسسة وهم علية القوم، المراجعون الاعتياديون.

العمل في ديوان البلاط الملكي ينقلك لا شعوريًّا إلى مستوى اجتماعي آخر. بيئة العمل المملوءة بالأسرار والتحفظات.. طبيعة المراجعين واحترامهم الإجباري لك تزلفًا، يعطيك شعورًا بانتقالك من مستوى اجتماعي معين إلى مستوى اجتماعي آخر أعلى. مع الأيام وجدتني شخصًا

8. مطاوعة جمع مطوع وتستخدم في الدارجة الخليجية لوصف المسلم الملتزم بمظهر معين جميعها تلتقي في شكل اللحية الطويل والثوب القصير. (الرسول)

آخر لست أنا، إلا من بقاياي الشكلية. لهجتي وأسلوبي في التحدث تغيرت. نظام حياتي تغير. حتى شكل ملابسي تغير. كان لابد عليّ أن ألبس الدشداشة بطريقة تفصيل معينة كإشارة للانتماء للوطن قالبًا؛ فالقلب لا يكفي. الشيء الوحيد الذي لم يتغير، ما زلت مسلمًا رغم كل شيء ومتمسكًا بقوة بالأفكار التي استطعت مواءمتها مع احتياجاتي وقتها. الأهم أن أحصل على ما أريد وأبقى مسلمًا حاملًا راية الإسلام الصحيح النقي.

من ضمن الأشخاص الذين تعرفت إليهم وتوطدت علاقتي به منذ الأشهر الأولى في العمل، شخص يعمل في القصر الملكي مرافقًا للملك. بتوصيف دقيق خادمًا للملك في قصوره. ما وطد علاقتي به وجود صديق مشترك بيننا من قريته. صديقي صاحب مدونة «مهرطق» أو كما أتوقع، الصديق الذي كان له فضل كبير عليّ على المستوى الديني. ساعدني كثيرًا للتخلص من الأفكار المتطرفة السابقة. ولأني كنت أثق به وأكن له احترامًا كبيرًا توطدت علاقتي بالمرافق.

أظن أنه أيضًا كان هناك سبب آخر كامن في داخلي دفعني لا شعوريًّا لقبول هذه الصداقة.. الفضول. منذ ريعان الشباب وبداية إدراكي لما يقال خلف الجدران همسًا حول طبيعة علاقة الملك بخدمه الجميلين أصحاب الشعر الطويل والدشاديش الملونة.. الذين بين وليلة وضحاها يركبون أجمل السيارات الفارهة وأغلاها، ويسكنون أضخم البيوت اتساعًا وأفضلها موقعا، ويملكون مزارع بالأميال على مد البصر، لا لتصدير الفاكهة والخضروات وتربية المواشي لكن لاستيراد النساء المليحات ليحللن مكان النجوم في سهراتهم بحضور الوزير والوكيل وعلية القوم.

وياليتني لم أفعل. لا.. يا ليتني فعلت لو يرجع الماضي إلى الماضي لأفعله من جديد. لا أعلم في الحقيقة هل عليّ أن أندم وأتأسف على تلك المعرفة لما

عانيته جراءها بعد ذلك، أم أبتسم لتلك الصدفة لأن عواقبها أخرجتني من غفوتي إثر سكرة طويلة.

***

سنة 2011، أكن لها الكثير من مشاعر الحب، وأدين لها بولادة ثانية أخرجتني من ظلمات إلى نور.. لكنه نور ساطع جدًّا. هذه السنة أعطت لحياتي ألوانًا أخرى، وأدركت أن هناك أصواتًا متنوعة أخرى. ورغم أني عشت تجربة بسيطة مشابهة على المستوى الديني سابقًا، بيد أنها لم تكن ولادة إلا على مستوى محدود، ثم التوى الحبل المقدس على رقبتي وتعسرت الولادة. منذ تلك المحاولة وأنا ما زلت عالقًا ولم أر أكثر مما أتاحته لي فرجة القراءة المحدودة حينها.

سنة 2011 كانت عاملًا مباشرة ورئيسًا في توظيفي وعدد هائل من العاطلين عن العمل من أبناء الوطن المتكدسين عبر سنوات فوق أسرتهم، وأمام التلفاز، وعلى حافتي الطريق يندبون حظهم. لم أرد أن أصدق السبب الحقيقي وراء توظيفي، وصدقت ما قاله التلفزيون الملكي عندما أكد أن عملية التوظيف ليست ردة فعل بل هي خطة مدروسة تم الإعداد لها منذ سنوات وحان أوانها.

صدقت أن هناك مجموعة من أبناء الوطن قد سولت لهم أنفسهم بتشويه صورة البلد جاحدين غير مبالين لكل إنجازات الحكومة الرشيدة وملكها الحكيم. بل كذلك يحاول بعضهم أن يخل بالأمن والأمان عن طريق الحرق والتكسير وقطع الطرقات وترهيب الناس. لم أصدق إلا ما أملاه عليّ عقلي الباطن المملوء بالكثير من الصور الزائفة والأخبار الكاذبة منذ نعومة

الأظفار.

في الوقت الذي كان فيه المخربون خلف قضبان السجن، كنت أجلس مختالا على كرسي العمل الدوار ممدود الرجلين أجرب سرعة دورانه بين حين وآخر من قلة العمل وكثرة الموظفين. وعندما أشعر بالضجر من قلة العمل وبطء مرور الوقت أبدأ أطبق العلاقات العامة لكن خارج مكتبي.. أتعرف على الموظفين وأجامل قدر المستطاع وأتعلل بأي حجة للحديث. أعجبتني كثرة المجاملة وحجم الألقاب التي تكال لمن يستحق ولمن لا يستحق حتى لمن تقابلهم بالصدفة في الممر ولا تعرفهم ويوحي مظهره بعلو شأنه في السلطة أو مع السلطة.

الذي أجهله حتى الآن هو لماذا بالضبط تم تعييني في هذه المؤسسة.. لم أقدم أوراقي لهم!؟ لكني وقتها لم أفكر بهذا الشيء، فكان كل همي أن أتوظف فحسب. لعل لوالدي يدا في الموضوع رغم إنكاره، لأنه يعمل في مؤسسه قريبة من مؤسستنا إداريًّا وتنسيقيًّا. حسب علمي فإن مؤسستهم هي الأعلى سلطة في بلادنا، أو هكذا كنت أشعر بحكم تعاملنا اليومي مع موظفيها. وهذا ما أكده لي المرافق ذات يوم في إحدى سهراتنا:

- تعرف أن المكتب الملكي الخاص هو من يحكم البلد وفيه حكومة ظل تتحكم بكل شيء

2

اهتزاز صورة الملك المقدسة في عقلي التي تكونت عبر سنوات عمري الماضية بأدوات تجهيل وتغييب مختلفة ومتنوعة، حركت في داخلي ملكة الشك والسؤال من جديد حول أقنوم مقدس آخر. زاد فضولي وزاد معه بحثي. تذكرت سنواتي الأولى في الجامعة عندما بدأت أشك في أقنوم الدين.. المقدس جدًّا ويعني الخطير جدًّا. بدأت أدرك أن الجهل المقدس موجود في كل شيء نتعامل معه ونعيش معه.. الفكرة والشيء. بدأت أدرك أني كنت جاهلًا جهلًا مركبًا؛ فلم أكن أعلم كل ما يدور حولي في عالم السياسية وأبسط تفاصيلها التي يحتاجها كل مواطن لمعرفة حقوقه ومعرفة الدفاع عنها وما هي واجباته بالضبط دون زيادة أو نقصان. وكذلك لم أكن أصلًا أعلم أني لم أكن أعلم، وهذه أصل المشكلة. لأنه بكل بساطة أول ما أدركت أني كنت جاهلًا في الدين بدأت أقرأ، وعندما أدركت كذلك أني مغيب في السياسة بدأت أبحث.

كيف لم أتساءل يومًا رغم أن كل شيء من حولي كان يستدعي الحيرة والسؤال؟! لماذا إذا حصلنا على حق من حقوقنا، نحصل عليه كمكرمة رغم أن الثروات الوطنية هي حق الجميع إلا إذا كان هناك صك إلهي يقول إن الثروات هي حق أصيل لأفراد وأسر معينة فحسب.. ويتكرمون بها لمن شاؤوا! كيف لم أتساءل يومًا وأنا شهدت بأم عيني عندما رمى الملك الأموال من سيارته على الحاضرين من المواطنين في إحدى جولاته[9]

9. الجولات السنوية عبارة عن مخيمات يقوم بها الملك المقصود بشكل سنوي في مساحات فضاء مختلفة من البلاد، ويعرفها الإعلام الملكي بأنها جولات تهدف إلى تواصل الملك بشعبه والوقوف بقرب من مطالبهم ونواقصهم. (الرسول)

السنوية؟! كانت المرة والأولى والأخيرة التي أزور فيها مخيمه في مدينتنا وقت جولته. كان المشهد مهين وحقير.. يتصارعون مثل الكلاب على الأموال، وهو يرمي.. ويرمي.. ويبتسم.

ما يحزنني أكثر الآن، هو عندما لم أشارك الآخرين جمع الأموال ليس لأني أحسست بالإهانة.. ليس لأني شعرت بكرامتي توطأ بالأقدام، فقط لأني كنت ملتحيًا وأحسست من المخجل أن أشارك، لحيتي كانت أهم من كرامتي. آآه أي إهانة ترعرعنا عليها منذ نعومة أظفارنا. حتى نظامنا التعليمي رغم حجم التجهيل الذي يمارسه علينا وفي حق وعينا، أجسادنا لم تسلم منه. أتذكر كم مرة أخرجونا من فصولنا الدراسية ونحن في المرحلة الابتدائية والمتوسطة، لنصطف بالساعات على جانبي الطريق تحت أشعة الشمس الملتهبة منتظرين الموكب الميمون؟!

***

بدأت أعيش نوعًا من الانفصام بين شخصيتي في العمل وشخصيتي المجهولة في الفيسبوك. بعيدًا عن حسابي الشخصي الذي يحمل هويتي الحقيقية الذي كنت أناقش فيه أحيانًا مواضيع اجتماعية ودينية، فتحت حسابًا آخر بهوية مزيفة ومجهولة لمناقشة المواضيع السياسية. بعد فترة من الزمن بدأت أرى نفسي في الحساب الجديد أكثر من السابق. هل لأنني كنت اعتقدني مجهول الهوية ولدي مطلق الحرية لقول ما أريد، أم لأني وجدت ذاتي أكثر في القضايا السياسة؟! لا أعلم بالضبط لكن هذا ما حدث فعلا.

في البدء أتتني فكرة للتواصل مع عدة شخصيات عرفت اسمها عن طريق البحث في الإنترنت وكان لها دور في الحراك الشعبي سنة 2011، بيد

أن الخوف منعني من ذلك في البداية واكتفيت بمتابعتهم من بعيد. حاولت طلب صداقة كل من عرفت أن له حراكًا سياسيًّا وحقوقيًّا سواء كان ميدانيًّا أو تنظيريًّا. ساعدني وجود هذا الكم الكبير من الصداقات الفيسبوكية لمعرفة ما يدور حولي في الدولة. وكذلك لفهم ما فاتني من أحداث وتفاصيل خاصة ما له علاقة بالحراك الشعبي. لكن ما أحزنني عدم وجود أدبيات كافية يمكن الرجوع لها والحصول على أجوبة وافية للكثير من الأسئلة التي كانت تدور في رأسي حينها.

من ضمن الكتابات التي أفادتني كثيرًا، تعرفت على مجموعة من المدونات لمدونين محليين. بعض هذه المدونات كان أصحابها مجهولي الهوية وهي في العادة الأكثر حدة في الطرح. لم ألاحظ أن هناك خطوطًا حمراء أو تحفظات من نقد أي شخصية مسؤولة في البلد. الجميع كان تحت طائلة النقد.. والنقد اللاذع. هذا النوع من المدونات صدمني في البداية بقوة طرحها لكن الصدمة ما لبثت أن اختفت بعد فترة عندما بدأت الصورة تتضح لي أكثر. بدأت أنظر للقضايا بمنظور مختلف.

بعض التدوينات حقًّا لم أستوعب بعض تفاصيلها واحتجت قراءتها لأكثر من مرة. أحيانًا حتى إعادة القراءة لم تسعفني واحتجت الاستعانة بمحرك البحث جوجل لفهم بعض الجزئيات وبعض المصطلحات.. من ضمنها كلمة دستور توافقي. لاحظت عدة تدوينات تتحدث عن هذه الجزئية بالخصوص لكن لم أستوعبها. بعد فترة وجيزة بدأت أشعر أني حقًّا كنت مغيبًا خاصة عندما قارنت وضعي بالأشخاص الذين كتبوا هذه التدوينات.

- يا ترى كم نسبة هؤلاء مقارنة بنا.. نحن المغيبين؟!

إحدى هذه التدوينات التي لم أستوعب بعض نقاطها منذ البداية كانت هذه التدوينة.. طبعًا لا أنكر أنها أفادتني كثيرًا فيما بعد:

قراءة: الدستور التوافقي بين الطموح وشماعة الجاهزية الشعبية

يبدو أن مفهوم تركيز السلطات بحسب عدد من الباحثين مفهوم قائم على عدم الفصل بين السلطات التي تتولى مهام الدول المختلفة؛ بهدف سيطرة فرد أو مجموعة أفراد أو تنظيمات على الفوائد السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن هذه السيطرة. هذا الأسلوب بحسب الباحثين يولد مخاطر كبيرة مرتبطة بعدالة الأفراد الاجتماعية، والمساس بالحريات المختلفة، وغيرها من المخاطر. ورغم أن تركيز السلطات، وعدم فصلها منبوذ بحثيًّا أكاديميًّا ولدى أعراف وثقافة الدول المتقدمة إلا أنه يشكل واقعًا في طبيعة الإدارة لدولتنا.

التجربة السياسية في بلادنا منذ عام 1965 تعد واحدة من التجارب الفريدة؛ إذ إنها بقيت على دعائم أساسية لم تحد عنها على مر الخمس الأربعين سنة الماضية؛ فالملك منذ توليه مقاليد الحكم وهو على رأس السلطات الثلاث «التنفيذية والتشريعية والقضائية» في الدولة، مما يفتح تساؤلات حول مدى تطبيق مفهوم فصل السلطات في المملكة، والتأثيرات الحالية والمحتملة في استمرار مركزية السلطة، وأبعادها على حياة المواطن.

وعندما نتحدث عن مركزية السلطة؛ فلا يمكن أن نغفل المحاولات التي قام بها بعض المواطنين سواء أكانت بصورة فردية «مثل ما حدث مع أول رئيس وزراء عام 1967 حين تقدم باقتراح للملك في إقامة مملكة

دستورية، أو بصورة جماعية «مثلما حدث في يوليو 2010 عندما تم تقديم عريضة موقعة من خمسين مواطنًا تطالب الملك بتشكيل مجلس وطني؛ لصياغة دستور جديد قوامه الشراكة والتعاقد بين الشعب والملك».

وفي الثالث والعشرين من فبراير 2011 أيضًا، تم رفع عريضة أخرى بعد مسيرتين سلميتين تدعوان للإصلاح، وقد أطلق عليهما حينها «المسيرة الخضراء الأولى والثانية»[10]، وقد نُظمتا من قبل مجموعة من الشباب الطموح، وكانت مطالب العريضة قد تضمنت عمل إصلاحات في مجلس الوزراء والمجلس التشريعي بشقيه بينها: المشاركة السياسية مع تعيين رئيس وزراء، وهي المطالب ذاتها التي تم رفعها مرة أخرى في بعض ساحات الاعتصام فيما بعد.

بعد الحراك الشعبي 2011، أجبرت السلطة لاستخدام عدة «كروت» متتالية؛ لتمتص غضب الشارع آنذاك. البعض منها لم يكن مدروسًا بشكل جيد، وظهر الخلل بعد فترة وجيزة، وكل هذا كان نتيجة طبيعية لتلك الإصلاحات والتعديلات التي لم تكن مبادرات وأفعال من قبل السلطة بقدر ما هي ردود أفعال سريعة وإجبارية. ومع هذا يُحسب للسلطة سرعة استجابتها لحِلِّ مطالب «غالبية» من خرج من الشعب تقريبًا والتي تمثلت حينها في مطالب معيشية ومؤقتة.

نوعية النبرة الإعلامية الجديدة كانت أحد وأقوى تلك «الكروت» التي استخدمتها السلطة لتنويم الشارع، وإرجاعه لاإراديًا إلى مسكنه وحياته اليومية. ورغم تأخرها في ذلك – بعد ما أنكرت الحراك في بدايته وجابهته،

10. المسيرة الخضراء عبارة عن تظاهرة شعبية قام بها مجموعة من الشباب مطالبين فيها بمحاربة الفساد ومجموعة من المطالب السياسية الإصلاحية. (الرسول)

لكنها استسلمت للواقع بعد ذلك وحاولت أن تستغل الموقف لصالحها – إلا أنها نجحت بشكل يحسب لجهودها السريعة نحو احتواء الوضع الراهن في البلاد.

وأهم الخطوات التي قامت بها أنها غيرت في بادئ الأمر واجهة ممثلي الإعلام في الحكومة، وأقصد هنا وزير الإعلام ورئيس الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون. ونلاحظ أن التغييرات كانت ذكية حينها، حيث إن الوجوه التي استُخدمت لهذين المنصبين كانتا من المحسوبين على الوسط المثقف كشابين من الوسط الأكاديمي ولهما قبول بين عدد من المهتمين بالوضع الثقافي في البلاد، كما كان أحدهما مدونًا ومعارضًا لبعض من سياسات الدولة قبل أن يعتلي كرسي الوزارة. وهذا يختلف نهائيًّا مع السياسة المعتادة المتبعة في التعيينات الوزارية والمناصب الأخرى العليا المعتمدة على التوازن القبلي سياسيًّا، وبعض الأسر الثرية تجاريًّا. إضافة إلى ذلك، ما قامت به السلطة في وسائل الإعلام باختلافها، أنها انتهجت سياسة مختلفة ظاهريًّا عن السابق وأعلت راية «الرأي والرأي الآخر»، «والتطوير»، «وحوار الشباب».

ولعب المسؤول الحكومي أيضًا دورًا بارزًا في ذلك، عندما في إحدى الحوارات الشبابية المفتوحة، قائلا: «نعم الجهاز الإداري للحكومة مترهل وغير منظم، ولا يقوم بأداء الخدمة كما ينبغي». فلم تتوقف محاولات السلطة المستمرة للوصول للشعب برسالة واحدة وهي: «نحن نفهمكم».

ومع هذا كله، لم تهتم السلطة حتى الآن لعدد من المطالب الرئيسية في إحدى ساحات الاعتصام 2011. ولعل أحد أهم هذه المطالب لدى الكثير من المثقفين والناشطين والمطالبين بالإصلاح: مطلب الدستور التوافقي، الذي يراه كثيرون الضمان الديمقراطي الأنسب لاستقرار البلد حاضرًا

ومستقبلًا، والضمان الوحيد للبدء بقفزات إصلاحية حقيقية بعيدًا عن الفقاعات الإعلامية.

أقول تجاوزًا : ماذا لو وجه الملك إلى سعادة رئيس البرلمان – بما أنه رأس هرم البرلمان وهو ممثل للشعب – خطابًا محتواه الآتي: «هل فكرة الدستور التوافقي يصلح تطبيقها في البلاد؟، إذا كان الجواب نعم أو لا، فلماذا؟ وما هي المعوقات وما المطلوب فعله؟». ولإضفاء الطابع الديمقراطي وإيصال رسالة للشعب مفادها «نحن نسمعكم»؛ سيوجه السؤال للشعب.

أقول: قبل إجراء أي خطوة إصلاحية، يجب أن يكون هناك اعتراف بوجود خطأ أو مشكلة – كما أسلفت–، وهذا ما حدث قبل فترة بشكل خجول لكنه «دبلوماسي» عندما صرح مسؤول الحكومي بترهل الجهاز الإداري للحكومة، لكنه غير كاف ولا يعطي صورة تفاؤلية حول رغبة السلطة بالمضي بإرادة قوية وطموح كبير نحو إصلاحات جذرية بعيدًا عن الحلول «الترقيعية»، والتي تسببت في ترهل الجهاز الإداري للدولة.

نحن أمام مشكلة حقيقية وأزمة كبيرة ومطب يجب تجاوزه، بحسب الإمكانيات الواقعية وبرؤية استراتيجية واضحة المعالم، والدستور التوافقي حاجة وضرورة رغم كل المعوقات، وهذه الحاجة وتلك الضرورة يجب أن تُتبع بصدق وطموح من السلطة لتجاوز الأزمة.

ما المشكلة؟

1- ثقة الملك بمن حوله لأسباب تاريخية قديمة حتى قبل توليه الحكم، وحديثة تتزامن مع الفترة التي تلت توليه الحكم والمتسببة بوجود مركزية كبيرة في السلطة، والناتجة عن تولي الملك الكثير من المناصب المؤثرة

والحساسة في أمن البلاد نموه. قد نتفق مع هذه المركزية في السلطة في السنوات الأولى منذ تولي الملك الحكم؛ بسبب الحاجة الملحة لذلك، ولمصلحة البلد آنذاك مستحضرًا الحروب الداخلية، وعدم استقرار البلاد وأمية غالبية الشعب. لكن استمرار هذه المركزية حتى الآن غير مبرر نهائيًّا، فهي مسبب حقيقي لبطء التنمية وتراجع الإنتاجية. وأصبحت هذه المركزية هي المغذي الأول للبيروقراطية الإدارية، وباتت تقتل روح الإبداع، وتحجم العزيمة والمبادرة لدى المسؤولين.

2- القبلية السياسية وتأثيرها على القرار السياسي وعلى ثقافة المجتمع، وهي طبقة مستفيدة من مركزية السلطة ومن الفساد بشكل عام.

3- طبقة التجار وتأثيرها على القرار السياسي، وينطبق عليها ما ينطبق على القبلية السياسية.

4- القوى الخارجية والمتمثلة في الشركات النفطية وتأثيرها في القرار السياسي. إذ إن كل محاولة إصلاح ستتجه نحو التأميم للنفط، وهو ما سيشكل خطرًا على مصالحها. وكما هو معلوم أن نسبة كبيرة من النفط تذهب عوائده للشركات الأجنبية بشكل مباشر -إذا تجاهلنا النسب الأخرى التي تعد غير مباشرة وغير مصرح بها.

5- نضج الوعي السياسي لدى الشعب واستعداده وجاهزيته لأي استحقاق سياسي ديمقراطي. يقول جورج برناردشو منتقدًا بلهجة استعلائية وقاسية هذا الضعف: «إن الديمقراطية لا تصلح لمجتمع جاهل؛ لأن أغلبية من الحمير ستحدد مصيرك». وهذا برأيي ما يجعل السلطة تتكئ عليه أمام أي مطلب إصلاحي في فصل السلطات بشكل حقيقي، ولتقويض مركزية السلطة، ولا بد من حضور التعليق الدائم الذي يبرر

استمرار المركزية: «الشعب غير قادر على إدارة نفسه". ورغم واقعية السبب تقريبًا، لكنه ليس السبب الوحيد كما هو واضح في الأسطر السابقة. كما أنه أيضًا ليس سوى نتيجة لفشل السلطة الشمولية المركزية لعقود طويلة.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن سلطة البلاد هي سلطة شمولية مركزية، ولعقود طويلة فرضت سيطرتها وما زالت على جميع أنشطة المجتمع المدني، وهي تضع الخطط المختلفة وتتحكم بها بشكل كامل، وتهيمن على الإعلام المقروء والمرئي والمسموع بشقيه الحكومي والخاص، وتغذي مفهوم القبلية السياسية وتراعي مصالح طبقة التجار عن طريق تقديم خدمات استثنائية لهم.

كل هذا يسهم في بناء منظومة الأفكار والقيم لدى المواطن، والتحكم بنوعية وطريقة تفكيره وتشكيل وعيه، لذا فإن أي خطاب من هذه السلطة «الشمولية المركزية» حول ضعف أو عدم قدرة الشعب على إدارة نفسه، وعدم نضوجه أمام أي استحقاق سياسي لا يعد سببًا مقبولًا، وهو في الحقيقة اعتراف ضمني بعدم نضوج تلك المنظومة الشمولية التي أنتجت هذا النوع من الوعي في المجتمع.

كل ما ذكر أعلاه، هي أسباب قوية يجب أن تدفع السلطة لعمل إصلاح جذري، والمضي نحو الدستور التوافقي. كما أنها في الوقت نفسه لا تزال هي ذات المعوقات أمام تطبيق هذا النوع من الإصلاح.

ولكن لماذا الدستور التوافقي وماذا سيقدم للمواطن؟

لا أريد الإسهاب في التفاصيل القانونية حول أنواع الدساتير والفروق بينها، وليس هذا حديثي ولا مجال تخصصي، لكن ما أستطيع قوله إن الدستور التوافقي هو نقلة نحو الديمقراطية بوسيلة أقل خطرا، وبتوافق شعبي وإرادة سلطوية تنشأ بطريقة التعاقد بين الحاكم والشعب، ويعد جسراً ينتقل من خلاله المواطنون من مرحلة التغييب والرضوخ والسكون -كما هو في دستورنا- إلى مرحلة المشاركة واتخاذ القرار السياسي عبر تأكيد حقوقه وتكريسها، وتحديد صلاحيات الحاكم والسلطات خاصة.

وكمواطن، يهمني أن يضمن هذا الدستور عدة نقاط وهي: أن يعزز مفهوم المدنية والمواطنة، باعتبارها الركيزة الأساسية التي يؤخذ بها في الحقوق والواجبات وتوافر الفرص. كما يضمن أيضًا وجود رئيس وزراء منتخب أو معين مبدئيًّا مع تداول السلطة، ويضمن إعطاء البرلمان الصلاحيات التشريعية والرقابية الحقيقية، ويؤهلها نحو فرض دورها الرقابي على جميع الوزارات بما فيها الديوان الملكي والمكتب الملكي الخاص والاستخبارات والدفاع والشؤون الخارجية والنفط والغاز وغيرها، وبخاصة فيما يتعلق بممارساتها المالية والإدارية، ويضمن وجود محكمة دستورية، ويضمن تفعيل دور المحافظين والمجالس البلدية على مستوى المحافظات، وأخيرًا يضمن بناء استراتيجية طموحة تنظم وتدفع دفة التطور في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمية والصحية تدركها كافة شرائح المجتمع.

أختم حديثي بالتأكيد على أهمية إرادة السلطة، وأهمية قيمة ونوع الطموح الذي تسعى خلفه هذه السلطة في العملية الإصلاحية وعلى سرعة التنمية؛ لأنه بدونه لن نمضي إلى مرحلة التأسيس للدستور التوافقي ولو

اقتنعت السلطة بأهميته. وبدون إرادة السلطة وطموحها، لو وافقت السلطة على تطبيق الدستور التوافقي كحل ترقيعي تخديري؛ لن يتغير الوضع بل من المحتمل أن يتجه للأسوأ. ومع إرادة السلطة، ومع الطموح الكبير وبدون وجود الدستورالتوافقي، هناك نماذج مشرفة يقتدى بها في سرعة التنمية والتطور، لكنها أيضًا بدون ضمانات مستقبلية واضحة.»

***

المقال السابق كان له فضل كبير في دخولي عالم السياسة بشكل أكبر، ونقلني من السطحية إلى العمق أكثر. أثار لدي عدة تساؤلات كانت غائبة عني، ومغيبة عني في آن واحد. لم أكن أعلم بجل ما ذكر فيه من معلومات. تطلب مني البحث كثيرًا لاستيضاح الكثير من النقاط التي ذكرها المقال رغم أنها في الحقيقة لم تكن بذات صعوبة والعمق لكن أميتي في هذا المجال مثل معظم مواطني بلدي هي التي صعبت علي المهمة.

بعد فترة اطلاع استمرت قرابة أسبوعين أكاد أكون فهمت الكثير حول موضوع الدساتير وأهميتها في بناء الدول وتماسكها، نشرت كما هي العادة منشورًا في الفيسبوك:

«هل الدستور غاية بحد ذاتها أم مجرد وسيلة؟! هل الديموقراطية وتداول السلطة، وفصل السلطات، والتأكيد على الإرادة الشعبية كقوة وحيدة حاسمة دون قيد أو شرط، ومجابهة جميع العوائق التي تمنع سيادته، وتكريس كل الوسائل التي تحافظ عليها، والتربية على أن الدولة مؤسسات خدمية فعالة شكلها المواطنون من أجل خدمته، كركائز دستورية مدنية توافقية، هي مجرد وسائل يسعى لها الإنسان للحفاظ على كرامته وتحقيق

العدالة بعظهم ببعض، أم إنها غايات في حد ذاتها؟

شخصيًّا لا أرى أنها أكثر من وسائل وجب تنصيصها بالتوافق عليها فيما يسمى بالدستور الذي يشترك فيه المواطنون في وضعه لأنه سينظم حياتهم وسيحفظ حقوقهم وسينظم واجباتهم عن طريق لجان متخصصة ومن ثم يشارك عامة المواطنين بالاستفتاء عليه لتأكيد إرادته عليهم من عدمها لتحقيق الغايات الكبرى مثل العدالة والحريات والكرامة والحقوق الإنسانية والمواطنة.

لكن ماذا لو تحققت تلك الغايات الكبرى في سلطة مركزية شمولية فردية أو أوليغاركية.. هل ما زلنا نحتاج للدستور التوافقي الذي يؤكد على تلك الوسائل وينظمها؟! لكن هل توارث السلطة يضمن توارث الإرادة ذاتها؟!»

(و)

هل يعقل أن يكون كل ذلك وهمًا؟! هكذا ردت بيني ونفسي في لحظة شرود مع الذات. لم تأتي من فراغ. كان قد مر أكثر من ثلاثة أشهر منذ بداية مشروعه الذي طبقه علي بنجاح تام وأفضل مما كان هو يتوقع.

آآآه، كيف يمكن لك أن تتخيل أن حياتك جميعها مجرد وهم، وكل الأفكار التي تم تلقينها لك منذ الصغر هي مجرد وهم! يا إلهي كيف يكون ذلك؟! يا إلهي هل أنت حقًّا موجود؟! هل أكتفي بالإصرار على أننا نحن المسلمين شعب الله المختار، والجنة مصيرنا الحتمي، وسيشقى الكافر في النار.. وأريح عقلي من التفكير بالتقليد؟

بدأ الشك ينخر عقلي أكثر فأكثر. كيف لي أن أستوعب أن كل ما أعيشه هو مجرد مسرحية وكذبة صدقناها وما زلنا نصدقها، ولا يزال الجميع يدافع عنها بشراسة.. عن قدسية ربما لاتكون حقيقة.. عن تاريخ.. عن حكايا وأساطير لا يوجد دليل على وجودها. هل لك أن تتخيل أنك فجأة تدرك أن كل دفاعك كان عن أسطورة.. عن تاريخ لا تملك دليلًا ماديًّا على وجوده في الحقيقة؟

عشت أسابيع بل شهورًا وأنا أتمايل بين الشك واللاشك.. بين اليقين واللايقين. كان سهلًا جدًّا علي أن أنكر كل معلومة قرأتها، أو كل شك خطر على عقلي؛ لأعيش بنفس الطمأنينة التي اكتسبناها وراثة. ابتعدت عن الدين، عن الصلاة، عن كل شيء، وخلوت بنفسي لكي أفهمني.

قراءاتي زادت ثقتي فيَّ كوني أنثى.. كوني امرأة. بدأت أتحرر من الكثير

من القناعات التي رسمها العقل الجمعي الذكوري باسم المقدس. رغم أني لم أؤمن يومًا أن علي أن أطيع رجلًا مهما ظلمني ومهما أخطأ في حقي، ويجب علي أن أستجدي رضاه لأنني سأدخل النار إن لم أفعل. لم تتشوه فطرتي في هذا الأمر وهذا لحسن حظي؛ فكنت كلما سمعت أحدهم يتحدث في هذا الشأن باسم الدين أشعر بالغثيان. كيف يجيدون تقديس الرجال ويحرمون المرأة من أبسط حقوقها! وهل أصبحت الجنة خاصة بشهوات الرجال فقط.. ماذا عن المرأة ورغباتها؟! لماذا يتم معاملتها دوما كملكية خاصة وتابعة للرجل؟

الآن أستطيع أن أقول إنني تخلصت من هذه الأفكار التي كنت مجبرة على أن أطيعها من أجل جنة لا أعلم حقيقة وجودها. من أجل مجتمع لايحترم المرأة كإنسان.. ككائن مستقل. من أجل دين لست مقتنعة بمعظم ما يحتويه لأنه يخدش كرامتي وحريتي. نعم أؤمن بوجود إله ولكن لا أؤمن بكل هذه الترهات.

3

في بداية الأمر لم أصارح صديقي بأفكاري الجديدة ليس لأني لا أثق به، لكن لأني كنت أعلم أنه لا يهتم لمثل هذه المواضيع.. فلم أر أن هناك داعيًا لمشاركته مثل هذا الأمر إلا لو استدعى الأمر صدفة فسأذكر الموضوع.

في إحدى السهرات ذَكر لي خبر قد سبق ونشرته عدة صحف على شكل بيان صادر من النيابة العامة يؤكدون فيه أنهم أمسكوا بأكبر المخربين والمسيئين في حق السلطة. من طريقة تعبيره تقريبًا فهمت موقفه من الموضوع منذ البداية.

- واضح أنك متضامن مع البيان وصدقت تفاصيله

- أنا متضامن مع الوطن وأمنه.. وأثق بمؤسسات الدولة.

- لكن هل أنت متأكد أن هذه المجموعة قد قامت بالتخريب؟! هل أنت متأكد من نوعية الإساءة.. ما تعريفك للإساءة.. هل هي مخالفة للقانون.. هل جميعهم مسيؤون؟!! ألا تلاحظ أن هناك عدة أسئلة يجب أن نجيب عليها قبل أن نصدق الخبر؟!

- أنت لماذا تعقد الموضوع إلى هذه الدرجة.. مؤسسات الدولة لماذا وجدت؟!

- أنا لا أعقّد الموضوع، لكن كمواطن من حقي أن أتساءل في كل ما تقوله وتنفذه الحكومة.. أم أن السؤال في السياسة حرام وفي الدين

حلال؟!

- لا أنا لم أقل ذلك، لا تقوّلني ما لم أقله.. لكن....

قاطعته:

- اسمع.. رأيي من حق الأجهزة الاستخباراتية أن تعمل بكل وسائلها في حماية البلد من العدو الخارجي. لكن ليس من حقها أن تحاسب الناس في طريقة حبهم لوطنهم.. وليست من حقها أن تصنع منهم أعداء.

بعد سكوت دام قرابة نصف دقيقة، أضفت:

- الدول التي تحترم شعبها لا يصنع بها قرار «خذوه فغلوه» كما يحدث في أوطاننا.

رأيت استغرابه من كلامي في عينه؛ فهو لم يتعود مني هذا النوع من الحديث. أصلاً لم نكن نناقش مثل هذه المواضيع إلا عرضًا. وكان دائمًا رأينا مطابقًا لما تقوله الحكومة تقريبًا. أحسست بنشوة الانتصار والتفوق عليه.. أصابني الغرور وتماديت وأخبرته عن حسابي الجديد في الفيسبوك وعن نيتي في إنشاء مدونة شخصية لكن لا تحمل هويتي الحقيقية. شيء في داخلي دفعني لكل هذا.. كأنه انتقام أو محاولة لتسيد الموقف. كفاية أنه تسيد الموقف لعدة سنوات بحجة أنه أكثر عمقًا وانفتاحًا في القضايا الدينية والفكرية.. حان دوري، ويا ليتني لم أفعل.

في الصباح الباكر وأنا في طريقي للعمل تذكرت ما حدث بالأمس؛ فأحسست برغبة للتعبير أكثر عن موقفي. وأيضًا بما أن صديقي أضافني

في حسابي الجديد فأكيد سيرى ما سأكتبه.. سأقول له ما جال في خاطري وكذلك أكمل حواري معه بطريقة غير مباشرة. استغللت الزحمة الكبيرة في الشارع ونشرت في صفحتي:

« **رسالة:**

لا تنجروا خلف تعليمات وتوجيهات الأجهزة الأمنية، سواء كانت على شكل إغراء أو ترهيب، التي تحاول بكل الوسائل والطرق أن تحرفكم عن مساركم النقدي والإصلاحي لغرض إنتاج خطاب مائع من منطلق فكرة مسك العصا من المنتصف!

أنا لا أزايد ولا أشكك أبدًا في وطنية الكثير من أفراد الأجهزة الاستخباراتية ونواياهم الصالحة لخير البلد، لكن الواضح أن هناك انفصالًا تامًّا وواضحًا في فهمنا للوطنية وكل منا ينطلق من أرضية مختلفة. هم يؤمنون أن «التطبيل» المستمر يبني وينهض بالبلاد.. وأنه الدليل القاطع الذي لا يختلف عليه اثنان في إثبات وطنية مريديه. وأنا أقول العكس، أن النقد الموضوعي المرتكز على المقارنات والحقائق التاريخية والواقعية هي الوسيلة الأنجع للنهوض بالبلاد إلى مصاف الدول الكبرى

ولا أنكر، كما يقال، أن من يده في الماء ليس كمن يده في النار. وأيضًا، ليس من العدل والإنصاف أن يعرض الإنسان نفسه للاعتقال والسجن بشكل متتال ومستمر، فقط ليثبت وطنيته وثباته على مبدئه. بيد أنه ليس من الوطنية والمصداقية أيضًا أن يستبدل الإنسان بمواقفه الناقدة المشرفة خطابًا مائعًا لا يرتكز على نهج واضح، أو يصل به الأمر لينزلق في مستنقع التطبيل. قل الحق أو اصمت إن لم تستطع التضحية، خير لك من أن تصبح طبلًا خاويًا يتغنى بالاستبداد وشريكًا في الفساد. فكن معولًا صلبًا في وجه الفساد ولا تكن يد الفاسد التي تعاون وتساعد، ولاتكن عصا المستبد التي

يُضرب بها أخوك المواطن. لولا وجود المواطن الفاسد لما نجح المسؤول الفاسد واستشرى الفساد، ولولا وجود المواطن الكلب لما استكلب المستبد واستفحل الاستبداد.

الموقف هذا يذكرني بكلمة المفكر الألماني الكبير كانط الشهيرة، عندما تعرض للتضييق والتهديد وواجهت كتبه المنع من قبل الأصوليين ومن الملك غليوم الثاني بشكل مباشر: «قد لا أقول كل ما أعتقد به ولكني لن أقول شيئًا لا أعتقد به». مع العلم أن كانط تجاوز كل المحظورات والخطوط الحمراء قبل تولي هذا الملك، وبعد موته. وبذلك ضرب كانط لنا مثلًا مشرفًا على استقامته الشخصية ونزاهته الفكرية وثباته على مبادئه».

4

أسست مدونة بعد تفكير لعدة أيام في اسم المدونة. في الأخير اخترت هذا الاسم «الحق أبلج والباطل لجلج». ونشرت أول تدوينة عنوانها مشابه لعنوان المدونة. سأرفق لكم نسخا أصلية من تلك التدوينات الأولى دون تحديث أي تغيير عليها وفاءً للحق المزعوم والحقيقة حينها.

الحق أبلج والباطل لجلج... والنار مصيركم

(1)

قال تعالى: (إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) صدق الله العظيم،

الله سبحانه وتعالى يسلط المستبد للانتقام من عباده الخاملين الواهنين ولا يرفع عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة. وهناك عبارة معروفة (كما تكونون يولى عليكم). نعم إذا كنا شعبًا ذليلًا فمن السهل أن يستبد علينا؛ فعقاب الله هو أن يرسل الذين يشاركونه في عظمته وجبروته ليستعبد الخاملين؛ فالظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه، ومن أعان ظالمًا على ظلمه سلطه الله عليه.

(2)

كما يولى عليكم تكونون

عبارة أخرى في خط مواز في السبب والنتيجة مع العبارة الأولى كما تكونون يولى عليكم. فأصعب أنواع الاستبداد هو «استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل والروح»[11]، ينتج عنهما شعب ضعيف متخلف في جميع نواحي الحياة؛ فالاستبداد والظلم وغياب العدل وغيرها من الصفات التي تسمى في مجملها أخلاقًا، ويقول الشاعر: إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

(3)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر» صدق رسول الله،

كل مستبد حاول أن يظلم ويستعبد الآخرين لسلطانه؛ فإن الإنسان مأمور بمقاومته ومجابهته، لأنه بكل بساطة ومن غير اللائق والجائز أن يقبل المؤمن بعبودية لغير الله وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى جل جلاله كرم الإنسان فخلقه حرًّا وإذا ما ارتضى لنفسه الذل وقبل بالظالم والمستبد دون أن يثور عليه فإن عقابه لا يقل عمن مارس الطغيان؛ فالمستبِد كالمستبَد عليه والطاغية كالقابل بالطغيان والظالم كمن ارتضى الظلم. فالنار هي للاثنين معًا، فصاحب الجلالة وسع كرسيه يقول في محكم كتابه العزيز واصفا الظالم والمستبد «فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى» ويقول

11. وضع الكاتب هذه الجملة بين تنصيص وبعد البحث وجدت أنها تعود للمفكر الإسلامي المعروف عبدالرحمن الكواكبي. (الرسول)

أيضًا في محكم كتابه واصفًا من قبل بالظلم والطغيان «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار».

(4)

رسالة،

- الحق أبلج والباطل لجلج و «الله سبحانه ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة»[12].

- «لاحق كلب صياد يومًا أرنبًا فعجز عنه ولم يستطع إدراكه، فسأل الكلب الأرنب، كيف سبقتني وأنا أقوى منك وأسرع! فأجابه الأرنب لأني أعدو لحسابي وأنت تعدو لحساب صاحبك.»[13]

***تنبيه[14]**

12. وضع الكاتب هذه الجملة بين تنصيص كذلك وبعد البحث وجدت أنها تعود للفقيه المعروف باسم «ابن تيمية (الرسول)

13. مروية رمزية من الأثر ذكرها الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد وصارع الاستعباد». (الرسول)

14. هنا أعتذر للكاتب وللقارئ معا؛ فقد أخذ الكاتب مني وعدا بعدم التعديل والتغيير في المسودة التي أرفقها لي.. إلا أنني ارتأيت تأجيل بعض ما لحق هذا النص إلى آخر المسودة في المرفق 1. (الرسول)

(ز)

في المقابل حين كنت أنا أتجه إلى وعي من نوع جديد على بيتنا ومجتمعنا.. في الوقت الذي بدأت أستيقظ من الكابوس، كان أحد إخوتي الأربعة يتجه إلى الطريق المعاكس تمامًا. يغرق في عالم أصبحت لا أؤمن به.. بدأ يسلك الطريق نفسه الذي أحاول التراجع منه ومحو كل الآثار التي تركها على روحي وجسدي. كنت أرى ذلك التغيير كيف يحدث بكل وضوح أمام عيني وعقلي.. لأني أتيت منه توًّا.. ما زالت جراحي طرية.

عاش أخي حياة طبيعية لا تختلف كثيرًا عن الشباب الآخرين في حين لم تكن لديه مشكلة واحدة مع الحياة والفن وكل ما هو جميل. لكن لعل هناك بذرة موجودة في عقل كل مسلم نتيجة الموروث الجمعي نتيجة الخطاب السائد. هذه البذرة تبقى شبه ميتة حتى تجد من يرويها ويعتني بها حتى يخرج المسلم من نسق الحياة الطبيعية الواقعية الآنية إلى حياة تريد أن تعيش الماضي وترى مستقبلها في ماضيها.

لا أعلم كيف يتخلى الفرد عن الحياة الممتعة المليئة بالحيوية والحياة والفن والطرب والموسيقى من أجل حياة أخرى يحرم فيها نفسه من أن يعيش بحرية، ويكبت كل جوانحه الثائرة؛ لتثور في نفسه مرات عدة. يفضل أن يعيش بازدواجية من أجل لا شيء! هل نحن مجبرون أن نعيش هكذا.. بلا حياة؟!

حين تخرج أخي من الجامعة وبدأ يعمل في المدينة المجاورة، تعرف على صاحبه هناك.. صاحبه «المطوع» الملتزم الذي يذهب إلى الدولة المجاورة؛

ليدرس العقيدة والفقه والسنة.. ليتعلم المزيد من التعصب المذهبي.. مزيدًا من الانغلاق. لعله أراد أن يصبح وهابيًّا بطريقة أجمل وربما متحضرة أكثر.

كيف لشاب يرى التطور يسابق الزمن بأم عينه وهو في المقابل يرضى أن يدرس بين يدي شيخ ترفض أدبياته أن يملك سيارة؛ لأنها أمر مستحدث في الحياة ولا حاجة له بها؛ فكيف يتنقل بسيارة والرسول لم يكن يستخدمها.. إنها بدعة. شيخ جاء من مدرسة كان مشايخها لا يملكون هواتف ولا يستخدمون الإنترنت ويحرمون أبناءهم من اقتنائها وإجبارهم التمسك والالتزام بالسنة والعقيدة والفقه؛ ليتوارثوا إرثهم في العلم ونشر الإسلام! إنه عالم آخر لا يمت لعالمنا بصلة.

يأتيك هذا الطالب المجيد؛ ليمتدح أستاذه الشيخ وحجم ما يؤمن به من محرمات وحجم قسوته على أبنائه في عدم تجاوزهم لتلك المحرمات! فجأة يصبح مثاله وقدوته في الزهد في الدنيا وعدم الاهتمام لهذه الكماليات التي تعتبر ملذات زائفة زائلة تحرم الإنسان من الاستمتاع بآخرته.

كان أخي يومًا بعد يوم يعجب بكل قصة سمعها عن هذا الشيخ، وعن صاحبه الذي يروي له حياته الشخصية وعن جده شيخ القبيلة المتزوج من أربع نساء ولديه ما يقارب تسعة وعشرين من الأبناء الذكور والإناث. يا إلهي كيف له أن يربيهم ويحفظ أسماءهم وهو مشغول في حياته المليئة بالمشاغل!

أذكر أخي كيف كان يفتخر به: «لوكنت أملك المال؛ لتزوجت أربع نساء كما أمر الإسلام وأنجبت الكثير من الأولاد؛ ليكونوا عونًا وعزة، كما يقول القرآن «المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

كنت أرد عليه دائما ساخرة منه كل ما ذكر هذا الموضوع:

- إذا وجدت واحدة من الأربع ترضى بك؛ فتزوجها إن استطعت.

بدأت رحلة التزمت والتدين مع أخي. قصّر الدشداشة وأطال اللحية، وبدأ يؤذن بالصلاة في المسجد. وأصبح بين ليلة وضحاها شيخًا أعلم بالدين من كل فرد في العائلة. ما أسرع تدينهم وما أسرع طريق الحق لديهم! حتى إنه أزعجنا بانتقاده الدائم وخطبه العصماء في المنزل حين يجدنا نمارس شيئًا من محرماته؛ فحتى أبي طالته تلك الانتقادات. أذكر يومًا كان أبي يجلس أمام التلفاز يشاهد مسلسلًا خليجيًّا فيه النساء كجميع النساء في المسلسلات.. فاتنات جميلات.

- أبي هذه المسلسلات حرام، ابحثوا عن قناة أخرى.. ويفضل أن تكون دينية. هذه المسلسلات لا تجلب أي فائدة ولا تحصل منها إلا الذنوب.

أبي حين ضاق به الكيل من حواراته الكثيرة والمملة دائمًا، صرخ في وجهه:

- ادخل غرفتك إذا لا تريد أن تشاهد ما نشاهد.

وقف مكانه صامتًا زامًّا وجهه دون أن يرد بكلمة. توقعته سيرد لكنه اكتفى ثم دخل إلى غرفته وأغلق الباب بكل غضب.

كنت أراه يستيقظ صباحًا قبل الأذان؛ ليذهب إلى المسجد مبكرًا ليؤذن بالناس. وعندما حل رمضان كأن لعنة حلت على البيت بسبب تدينه الأخرق. تدين أنت حر فيما تفعل لكن اتركنا وشأننا. ادخل نفسك الجنة التي تريد وتؤمن بها بدل محاولاتك التي لا تنتهي بإدخالنا نارك الملعونة.

كنت أقول لأمي: أخاف أن يذهب لجماعات متشددة أكثر في التكفير

ولهم أفكار إرهابية. يرد قلب الأم المحب الذي يرى في الابن الكمال مهما كثرت الشوائب:

- لا، هو رجل واع لا يمكن أن يتورط بهكذا أفعال وجماعات.

لم تمض أكثر من سنة حتى تفاجأنا باتصال منه يودعنا ويطلب من والديّ أن يسامحوه على تقصيرة. غادرنا للعمرة ولم يرجع.

5

أفادني التدوين كثيرًا. ساعدني كثيرًا للارتقاء بحسي النقدي وتطوير ملكة الكتابة. لا أزعم أني كنت كاتبًا.. كنت لا أعدو كوني مدونًا مبتدئًا في أول مشواره. في الحقيقة كنت ضعيفًا في مهارات اللغة وكذلك فكريًّا في معظم القضايا العامة. كان جل اهتمامي في تخصصي والقضايا الدينية في حيز مستوى تفكيري وسعته حينها. لكن الكتابة لا شعوريًّا كانت تدفعني للبحث أكثر.. والقراءة أكثر.

من ضمن الأشياء التي ساعدتني في رفع مستوى ثقافتي احتكاكي بمجموعة من الناشطين وحضور جلساتهم.. وحضور بعض الصالونات التي كانوا ينظمونها. كنت في البداية أتخوف الاحتكاك بهم وبقيت لعدة أشهر أتابعهم من بعيد إلا أني بعد ذلك تشجعت. بيد أني لم أتشجع أكثر من ذلك؛ فلم أصرح عن حسابي الفيسبوكي الذي كنت نشطًا سياسيًّا فيه، ولم أكون صداقات خاصة بأي أحد منهم.. كانت رفقة درب وصداقات سطحية فحسب.

ثقافة الخوف التي غرستها الأجهزة الاستخباراتية جعلت المواطن يخاف من أقرب الناس له، وهذا له أثر سلبي كبير في بناء الوطن يمتد تأثيره حتى على ثقافة الإبداع، لا إبداع بدون حريات. بهذه السياسة تعمل الأجهزة الاستخباراتية السيطرة على المجتمع وليس عن طريق القانون.. بهذه السياسة الأجهزة الاستخباراتية استطاعت أن تتغلغل في كل مفاصل الدولة وتحكم قبضتها وهي قادرة على أن توقف أي شخص عن عمله أو

تسبب له أي مشكلة باتصال واحد من أصغر موظفيهم إلى أكبر مسؤول في الجهة التي يعمل بها المواطن المغضوب عليه.

بدأت أدرك هذه الإشكالية مع الوقت لكن رغم ذلك بقيت أسيرًا لها، مثلي مثل الكثير من المواطنين إلا ما ندر. هناك أشخاص حقًّا أغبطهم وأتعجب من شجاعتهم.. وقد يكون تهورهم. لا أعلم حقًّا.. هذا الموضوع أصبح شائكًا الحكم فيه بسبب ما لحق بي بعد ذلك.

أتذكر حينها نشرت منشورًا في الفيسبوك قلت فيه:

«وماذا يقوي السلطة غير الصمت!»

بالصمت تصنعون طواغيتكم.. لنكن صريحين ولا نجاملنا ولا نجعل الخوف سدًّا منيعًا أمام قول الحق، سبب تخلفنا هو صمتنا عن قول الحقيقة بأعلى صوت. الحقيقة هي أن بلادنا تعاني سوء إدارة وتخطيط، وتحكم عقل واحد بجميع مفاصل الدولة. كل ما نحتاجه هو وجود دولة مدنية تؤمن بالمواطن والمساواة وتقدس الحريات وتحارب كل نزعة وميل وصرخة في تقديس حذاء الحاكم على حساب الشعب.

وكما تكونون يولى عليكم مقولة لا يمكن أن تتحقق إلا بوصولنا لمرحلة الإرادة وهي ثمرة لمرحلة تسبقها وهي مرحلة الوعي، وتأتي بالجدل الداخلي والمقارنة. وفي الحقيقة لا يوجد خيار ثالث: فإما طريق طويل وصعب عنوانه الإصلاح وتصحيح المفاهيم والمعتقدات، وإما طريق قصير وسهل عنوانه التخلف والجهل.

وأي تهرب عن هذه الحقيقة بقصد أو دون قصد، وأي شكل من أشكال السكوت، هو تواطؤ مع الظلم والظالم، مع الفساد والمفسد، مع الاستبداد والمستبد. ومن يقفون في الحياد وبال على وطننا.. وبال على الإنسانية. فمتى

تحررنا من ثوب المقدس السياسي، حينئذ من حقنا أن نسأل عن حقوقنا، بل في الحقيقة، الحقوق ستأتي دون أن تسألها لأن المقدس سيحاول مغازلتك.

لكن لا تنتظروا الخير أن يأتي بسهولة ويسر على سجادة حمراء إذا رأيت قارون وبلعم من باعورا كجناحين يرفرفان لحمل فرعون، ورأيت فرعون يراقصهما حسب كل أغنية استهوتهما. ولكن الحقيقة الأمر أنه لا يوجد ما هو أسوأ من رجل دين يعقد صفقة الشيطان مع حاكم مستبد. الحاكم يشارك في صناعة الاستبداد الديني والإرهاب والتخلف إذا كان يدفع من أموال الشعب إلى أناس مهمتم في الدولة فحسب، تمثيل الله في الأرض.»

أتذكر جيدًا بعد نشري هذا المنشور دار حوار بيني وأحد أصدقاء الفيسبوك حول المنشور. قال الكثير لكن ما لفت انتباهي حينما قال:

- طالما أنك تؤمن أن الاختلاف من جماليات الحياة، فلماذا تصرخ في وجهه؟

- الاختلاف يولد التدافع، والتدافع يولد التطور. وهذه سنة الحياة، وهذا هو الجمال. لكن المشكلة عندما يحاول «البعض»، أن ينظر لهذا الاختلاف بنظرة قبح وشذوذ؛ فيحاول أن يجبر الجميع لكي يبحر في مركب واحد. وهذا دون شك، سيؤدي لوقت قصير إلى نوع من الهدوء والاستقرار، لكن النتيجة جدًّا وخيمة بعد أمد طويل. سيتحول المجتمع إلى ماء آسن. ولهذا أنا أصرخ في وجه الاختلاف، ليس لأني أقبحه، ولكني أعيش جماله بخلق حالة التدافع التي يحتاجها أي مجتمع، لكيلا يتحول إلى ماء آسن.

***

من ضمن المدونات التي استفدت منها كثيرا كانت مدونة تحمل اسم صاحبها. مدونة محمد. لم تتح لي الظروف لكي يعرفني لنتبادل أطراف أحاديث لهموم مشتركة، لكنني التقيت به صدفة مرتين. مرة التقيت به في إحدى جلسات الصالونات القرائية.. والصدفة الثانية التقيت به مع صديقي في نادي الطيران[15] .. ولأني سبق وتعرفت عليه في المصادفة الماضية، ميز وجهي مباشرة. مباشرة دعوته لمشاركتنا سهرتنا. كنت راغبا ومتخوفًا في ذات الوقت. وافق وجلس معنا. أدركت من هذا الموقف أن مثل هؤلاء الناس لا يفهمون لغة المجاملة. لعل هذا واحد من أسباب صدامهم المستمر مع السلطة. ينظرون إلى الحق كأنه أبيض أو أسود فقط.. لا توجد ألوان أخرى للحقيقة في المنتصف. أعجبت بأحاديثه حينها.. الأهم إعجابي أكثر بأفكاره المتمردة في كل شيء تقريبًا.[16] أما الآن فأكاد أنظر لهم نظرة شفقة.. فعلا أرأف بحالهم. مخدوعون بالحقيقة. أي حقيقة!

في هذه الفترة كنت ضائعًا بين توجهين كانا سائدين في المنطقة. ونادرًا ما تجد خطوطًا ومسارات أخرى ينتهجها المؤثرون في المنطقة. والمواطن العربي مثلي ضائع بين علمانية الاستبداد وديمقراطية الإخوان والإسلام السياسي بشكل عام.

كنت أتساءل بشكل يومي ما الأصلح للأمة في الظروف الراهنة؟ هل عقل مستبد يحاول فرض العلمانية رغم الاستبداد أم عقل مؤدلج

15. لعل المقصود بنادي الطيران هو نادي لموظفين تابعين لمؤسسة حكومية أو شبه حكومية لها علاقة بالطيران. قيد يكون أيضا أن عضوية النادي مفتوحة لغير الموظفين بشروط معينة. (الرسول)

16. لعلك فهمت الآن، لماذا وثقت بك وأرسلت مسودة مخطوطتي لك أنت بالذات فقط رغم تحفظي على بعض أفكارك الليبرالية وقتها.. لكن الأمر تغير فيما بعد. (الكاتب)

بالإسلام السياسي يدعو للديمقراطية؟ بات من الصعب الاختيار بين مثقف أو سياسي يدعو للعلمانية ويؤيد الاستبداد، ومثقف أو سياسي يدعو للديموقراطية وهو مؤدلج بالإسلام السياسي. من الصعب الاختيار في ظل انحسار الأفراد والجماعات الداعية للعلمانية، وفي الوقت ذاته رافعة راية الديموقراطية ومعارضة للأنظمة الاستبدادية.

ممثل الإسلام السياسي الأبرز «الإخوان المسلمون»، ألم يعث في الأرض العربية فسادًا وخرابًا عن طريق برغماتيتهم السياسية تحت عباءة الدين؛ فكل أرض يحلون بها تحترق بنار صراعات لا تنتهي. وللأسف، التاريخ يقول: تم استخدامهم واستغفالهم من قبل السلطات المستبدة في الوطن العربي بطرق شتى. تارة للعب دور الكومبارس كمعارضة سياسية، وتارة لتمرير بعض القرارات المستبدة باسم الدين، وتارة تم استخدامهم كجماعة الحشاشين للاغتيالات السياسية، وتارة أخرى، كما حدث في الربيع المصري، تم استخدامهم كجسر عبور ودرع ليتلقى كل الضربات حتى تستقر الظروف ثم تم التخلص منهم ورميهم مثل الكلاب بكل سهولة.

ألم يستخدم الإخوان كأحد أدوات الثورات المضادة الفعالة ضد الربيع العربي حتى تسلل الشك إلى الكثير من القلوب حول نية الربيع العربي نتيجة هول ما يحدث في بلدان الربيع؟! الربيع العربي لم يكن مجرد كذبة، لم يكن مؤامرة، بل كان حقيقة والواقع المرير هو من صدقها، بيد أن جذور الشر والفساد والاستبداد كانت أعمق مما تصوره المواطن الحالم المتفائل البسيط الذي لا يفهم أنه لا يمكن أن تنبت العدالة والحرية والديمقراطية وغيرها من مبادئ الإنسانية في أرض سقيت الفساد والظلم وتجولت فوقها الوحوش لعقود طويلة الا بعد جهد طويل من الحرث.. بعد أن يدرك، ومن ثم يؤمن، أن الإنسانية أوسع من الأوطان، والأوطان أوسع من الأديان،

والأديان أوسع من المذاهب والنحل. عندما تتشبع القلوب بالإنسانية، تتحرر العقول.

كل هذا الإخفاق المتوالي لهذه الجماعة أراه طبيعيًّا جدًّا في ظل الفلسفة الحالية، وعدم وجود مجددين لأدبيات الجماعة تواكب متطلبات واحتياجات الواقع، كما حدث ويحدث مع إخوان تونس الذين أصبحوا أقرب للرؤية العلمانية في فهمهم لشكل إدارة الدولة والمجتمع ويبتعدون يوميًّا عن تنظيرات الإسلام السياسي غير الواقعية التي أثبتت فشلها.

ولو يريد، حقًّا، قادة الإخوان الخير لهذه الأمة فلم يعد لهم أي خيار آخر إلا أن يحلّوا الجماعة ويكفوا الأمة العربية من شرها وخيرها. ومن ثم يحق لمن أراد منهم الاستمرار في مزاولة العمل السياسي تأسيس أحزاب سياسية لأغراض سياسية بحتة كما فعل رجب أردوغان عندما انشق عن أستاذه نجم الدين أربيكان وحزبه، وأسس حزب العدالة والتنمية العلماني الوطني.

لكن هل العلمانية وحدها تكفي في ظل غياب مناخ الديمقراطية الحقيقي، وليست الديمقراطية الشكلية المحصورة في صندوق، والتي يمكن أن نرى انعكاساتها في الممارسة اليومية بين المواطن والمواطن الآخر وبين المواطن وحكومته، وفي ظل غياب أبسط مفاهيم الليبرالية في تقبل الاختلاف والفردانية؟

من تدويناته التي أعجبتني كثيرًا في وقتها:

بين فجوة الاستقرار وحرب السيطرة والصراع على المعلومة

يقول جورج أورويل صاحب رواية «مزرعة الحيوان» في روايته الديستوبية الأخرى المعنونة بسنة 1984 كأحد فلتاته الإبداعية في أدب الخيال السياسي: «الجماهير لا تثور من تلقاء نفسها أبدًا، كما أنها لا تتمرد أبدًا

لمجرد أنها مضطهدة. والواقع هو أن هذه الجماهير لا يمكن حتى أن تصبح مدركة لحقيقة اضطهادها طالما ظل امتلاك معايير للمقارنة غير متاح لها».
أتفق مع هذه الفقرة إلى نسبة كبيرة جدًّا لو قورنت بالواقع المحلي، الواقع الذي تتشارك فيه جميع المجتمعات التي تعيش تحت وطأة نفس الظروف أهمها وجود سلطات مركزية توتاليتارية طوال عقود قادرة على تقنين مدخلات الوعي الجمعي عن طريق توجيه وتضخيم وتشويه المعلومة وحتى أيضًا حجبها. ولهذا سعت هذه السلطات، عندما أحست أنها بدأت تفقد هذا الدور الشمولي في السيطرة على المعلومة مع ظهور مواقع التواصل الاجتماعي وفضاء الإنترنت المفتوح، باتباع منهج آخر لكن لا أستطيع أن أصفه بالجديد قدر ما هو بثوب جديد لغاية قديمة. فاتهمتا بالمساس بالنظام العام والتقليل من هيبة الدولة، التهمتان الجاهزتان المغلفتان عن طريق الأجهزة الاستخباراتية والنيابية ما هما إلا وسيلتا استعادة سيطرة على المعلومة ومسارها. تدرك هذه السلطات كما أوضح أورويل أن فقدانها السيطرة يعني السماح لتوافر معلومات قد تدفع العقل الجمعي الموجه المستغفل المنوّم بأن يبدأ بامتلاك معاييره الخاصة ويقارن؛ لتكون المحصلة مع الأيام ارتفاع نسبة الوعي الجمعي وهذا ما لا تريده وتخافه السلطة. لأنه ببساطة ارتفاع نسبة الوعي لدى المواطن يعني إدراكه للواقع وللحقيقة، ما سيؤدي إلى زيادة فجوة الاستقرار، وسيجد نفسه تلقائيًّا في صدام مباشر مع السلطة، تبدأ على مستوى المعلومة وقد تنتهي إلى صعيد آخر أكثر حدة وتطرفًا. وهذا سيربك الاستقرار كما يطلق عليه نعوم تشومسكي عندما يوصف منتقدًا ركائز علاقة القوى العظمى مع هذه السلطات.

هذه القراءة، عبارة عن مقاربة لصور بانورامية لمشاهد عدة من واقعنا توضح مدى السيطرة التي تفرضها السلطة على مسار ونوع المعلومة التي

يتلقاها العقل الجمعي بوعي ودون وعي وعلاقتها بفجوة الاستقرار. قد يساعد تسليط الضوء عليها في امتلاك بعض المعايير الدافعة للمقارنة. وأزعم -أو حتى أكاد أجزم- بخطأ من يعتقد أن بناء وتشكيل الوعي الجمعي الذي قد يولد القوة لقول «لا» قد يأتي مباشرة بعد قراءة مقال أو كتاب أو حتى مشروع فكري فردي، هذا على مستوى الفكرة. أما على مستوى الزمن فهو يحتاج لفترة ليست بالقصيرة بتاتًا تعتمد على عدد التجارب التي يواجهها أي مجتمع وسرعة التعلم منها. وبناء على فلسفة التاريخ الهيجيلية فإن العقل هو من يحكم العالم في نهاية المطاف رغم كل السوء والظلام ومظاهر الفوضى الذي تعيشه البشرية؛ فالتقدم باهظ الثمن جدًّا ويحتاج إلى تراجعات أحيانًا ومواجهة مخاضات لكي يحصل التقدم.

فجوة الاستقرار.. بين توقعات الشعب وقدرات الحكومة

هناك دائمًا مستوى قدرات تملكها الحكومة ومستوى توقعات تملكها الشعوب، وكلما زادت هذه الفجوة بين مستوى القدرات وبين مستوى التوقعات زادت فرصة حدوث الثورات وعدم الاستقرار. ويرجع السبب في زيادة الفجوة بشكل مستمر إلى عاملين مهمين: الأول، أن الحكومة تقدم وعودًا مستمرة في تحسين ورفع مستوى معيشة المواطن وفي شتى جوانب صميم مسؤوليتها مما يساعد في رفع مستوى التوقعات لدى الشعب، والنتيجة تكون خلاف ذلك. ثانيًا، عندما يدرك «بعض» من الشعب مستوى القدرات الحقيقية للدولة، وهي قدرات أكبر مما تعلنه الحكومة عبر أجهزتها، مما ساعد في رفع مستوى توقعاتهم وتأثيرهم على الوسط الاجتماعي بآرائهم وفقدان السلطة سيطرتها على المعلومة.

في 2011 كانت الفجوة في أعلى مستوى لها وهذا ساعد بالتأثر المباشر

والسريع بشرارة الربيع العربي آنذاك. ورغم تلك الفجوة الحاصلة قبل الحراك، وكانت ظاهرة للعيان، إلا أن الحكومة لم تبادر بتحركات فعالة لإدارة الفجوة قبل الحراك لأسباب أو احتمالات أهمها: 1 - ربما الأجهزة المسؤولة لم تكن تدرك حجم تلك الفجوة وكانت بعيدة كل البعد عن الواقع وهذا دليل على ضعف الأجهزة في استقراء الواقع. 2 - ربما لم تتوقع نهائيًّا تلك الأجهزة قدرة الشعب على التعبير عن غضبه ميدانيًّا، وكانت تتكئ على مستوى الخوف الذي زرعته في نفوس المواطنين طوال السنوات الـ الأربعين السابقة وأيضًا على مستوى سيطرتها على المعلومة، وهذا أيضًا دليل آخر على ضعف التقدير.

بيد أنه بعد الحراك حاولت تلك الأجهزة تدارك الوضع ليكون لصالحها عن طريق لملمة وترتيب أوراقها بطريقة ذكية والتركيز على نقاط القوة التي تملكها الحكومة. فنجحت بعمل ردات فعل ولو لم تكن مدروسة بشكل جيد، حيث ظهر الخلل بعد فترة وجيزة. وهذه طبيعة ردات الفعل بخلاف الفعل «المبادرة». ساعدت تلك الكروت في تقليص تلك الفجوة، وكانت من أهم تلك الخطوات هي تلبية بعض المطالب المعيشية المؤقتة مثل رفع الرواتب والتوظيف وتقديم وعود لحل بعض مشاكل الشباب مثل توفير صندوق للزواج، الذي لم يرَ النور حتى وقت كتابة هذه الأسطر. في الوقت ذاته تجاهلت السلطة ولم تكترث لبقية المطالب الرئيسة وأهمها مطالب الإصلاح السياسي مثل الدستور التوافقي ، والفصل التام للسلطات الثلاث، ومنصب رئيس الوزراء، ومحكمة دستورية، وصلاحيات تشريعية ورقابية لمجلس النواب.

كل ما قامت به الحكومة لإدارة تلك الأزمة هو حق مشروع لها، لكن أيضًا للمواطن الحق في الشك والتساؤل ورفع مستوى توقعاته ولو أدى ذلك

إلى زيادة الفجوة من جديد. وسأستخدم هنا لغة الأجهزة الاستخباراتية، من حق تلك الأجهزة أن تعمل بكل وسائلها السلمية لتوجيه نظر الشعب إلى الجزء المملوء من الكأس فحسب، لكن أيضًا من حق الشعب بعد النظر للجزء المملوء من الكأس، أن ينظر للجزء الفارغ ويتساءل لماذا هو فارغ ويعمل وفق القانون سلميًّا لمعرفة ذلك. فقمة الإيجابية عندما تقارن وتنتقد وتقول الواقع وتذكر الحلول المناسبة إن استطعت، وقمة السلبية عندما تتهرب عن الواقع وتزيف الحقائق. السؤال الأهم الآن: ما مستوى حجم فجوة الاستقرار حاليًّا خاصة بعد ما فقد تقريبًا أغلبية الشارع الثقة في القضاء بعد تداعيات عدة قضايا أصبحت شعبية وتابعها المواطن بشكل مباشر؟

الحاكم.. بين النقد والتقديس

«كلنا ندعي أننا نحب الحق ونريد نصرته من صميم قلوبنا، ولكننا في الواقع لا نحب إلا ذلك الحق الشعري الذي نلهج به دون أن نعرف حدوده في الحياة العملية. أما الحق الصارم الذي يهدد مصالحنا فنحن أبعد الناس عنه.» من العبارات التي ترسخت في رأسي بعد قراءتي كتاب «مهزلة العقل البشري» للمفكر وعالم الاجتماع علي الوردي رغم مرور على الأقل ثلاث سنوات، وهذا من النادر أن يحدث عند شخص مثلي ابتلي بضعف الذاكرة. بيد أن واقعية العبارة هي من فرضت نفسها بالقوة وقاومت امتصاص الثقوب السوداء لذاكرتي وما أكثرها. كيف سأنسى العبارة ولو أردت أن أتناسى وأنا أشاهد حجم التناقض الذي يعيشه «البعض» في منهجية النقد التي يتبعونها؟! وأعني بالبعض هنا المواطن المُغَيِّب والمُغَيَّب. البعض هذا يعبر عن حبه لوطنه وولائه لملكه واحترامه للأجهزة الاستخباراتية بتصديه المستمر لكل محاولة نقد، عن طريق التكذيب أو التشخيص. وهذه هي

المواطنة السلبية.

هل يعقل أن تنتقد مسؤولًا ما على تقصير معين في أدائه كمسؤول في الدولة، ومن جهة أخرى نجد الشخص ذاته يقدس ويبارك ويهلل لمسؤول آخر في الدولة بدون أن يوجه له أو يفكر أن يوجه له أي انتقاد على أدائه في قضية معينة في يوم ما. مع العلم أن المسؤول الذي يقدسه يتحمل الوزر الأكبر أو مساويًا منطقيًّا وأخلاقيًّا، لأن الأخير هو المسؤول الأول وهو من عينه وهو من يقيله. فما بالك لو كان هذا المسؤول «المقدس» هو الحاكم الذي يسيطر على جميع مفاصل الدولة كونه القائد الأعلى للقوات المسلحة وجميع سلطاتها الثلاث وكل مجالسها العليا وأهم وزاراتها؟! الاحترام لا يعني التقديس، والانتقاد لا يعني عدم الاحترام، وكل مسؤول في الدولة مهما قدم للوطن يبقى مواطنًا كغيره وإنسانًا قبل ذلك، غير معصوم عن الخطأ وغير مرفوع عنه وغير منزه عن الانتقاد. هذا واجبه كموظف في الدولة وليس كرمًا ولا تكرمًا، بل حق للوطن والمواطن. وقد لا يدرك غير المواطن في بلدي ما أعنيه، لأن الكلمات أحيانًا تقف عاجزة عن التوصيف بشكل دقيق للوضع القائم. الحاكم في بلدي هو إله الخير فحسب، وكل إله سواه هو إله الشر وكل عيبة ونقيصة.

فيا ترى هل يوجد حول العالم اختزال لوطن وإرادة شعب وثروة بلد، في شخص واحد، وإرادة واحدة، ومزاج واحد، فقط، كما هو موجود في بلادي؟! النشيد الوطني، ما هو إلا نشيد ملكي ودعاء لشخص الملك! العيد الوطني، ما هو إلا عيد ميلاد الملك! الدستور، ما هو إلا منحة من الملك! كم من الحقوق الأساسية التي هي حق أصيل للمواطن، لا تأتي إلا بمكرمة من الملك! جميع خيرات البلد، لا ينقص ولا يزيد منها إلا بأمر من الملك! رؤية الوطن 2020 الفاشلة ورؤية 2040 القادمة، لم تخرج للعلن إلا بإذن وتوقيع

الملك! لا يوجد مجلس ولا سلطة عليا، إلا على رأسها الملك!

يقال: لا أحد أكبر من بلده، لكن الملك خالف هذه القاعدة؛ فلو كنت تنتظر تشريع قانون فسيأتيك من الملك، ولو كنت تطمح في تنفيذ مشروع فسيأتيك من الملك، ولو كنت تتحين حكمًا قضائيًّا فسيأتيك من الملك أيضًا.

«ولو كنت أحد سكان العاصمة، فحتمًا في الغالب ستقود سيارتك في شارع الملك، وستمر بجانب مسجد الملك الكبير، وميناء الملك، وقد تكون خرّيج جامعة الملك، وتشاهد مباريات كرة قدم في مجمع الملك الرياضي، ذلك قبل أن تعود لبيتك في مدينة الملك، أحد أحياء العاصمة.»[17]

هو الملك القائد الرئيس الوزير المحافظ الذي يملك البلد، أرضها وثرواتها وإرادة شعبها. هو صاحب الصوت الواحد الأحد ولم يكن ويكون له كفؤًا أحد!

يقول أفلاطون: «نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكر، ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر، وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر». لكن في الواقع، التفكير يسبقه نقد ويرافقه نقد وينتهي بالنقد، لكن كل سلطة شمولية عن طريق سيطرتها الكلية على المعلومة عن طريق أدواتها ووسائلها كالإعلام وأجهزة المخابرات ومساندة وعاظها ومثقفيها، استطاعت بكل جدارة تطبيق النظرية المكارثية وشيطنة كل نزعة إصلاحية وكل دعوة هدفها التغيير في أذهان الناس. حتى أصبح مفهوم النقد لدى الكثير، ما هي إلا دعوات تخريبية مدعومة من منظمات مشبوهة. ولكن إذا حصل النقد ووجد طريقه وفرصته، جاء للأسف في الغالب مشوهًا ومقلوبًا وناقصًا للمنطق ولا تؤطره المبادئ.

---

17. هذه الفقرة وضعها الكاتب بين تنصيص دون أن يذكر السبب. وقد يعود السبب لأن الفقرة مقتبسة. (الرسول)

رسالة: كلما ساد الرأي الواحد باسم الوطنية اضمحل العقل ونهب الوطن، وكلما تعددت الآراء وتنوعت الافكار تحررت النفوس وازدهر الوطن. من كان جزءًا من المشكلة لا يمكن أن توكل له مهمة حلها.

طريق الإصلاح أكبر من الجميع

طريق الإصلاح لا يمكن أن يختزل في شخوص معينة وزمن معين وطريقة معينة، بل هو واجب أخلاقي ووطني على كل مواطن، وكل مواطن حسب رؤيته وإمكانياته. ومن يحاول محاصرة مفهوم الوطنية في ركن معين فهو واهم، فنحن هنا نتحدث عن شيء نسبي لا يمكن لأي شخص كان أن يقتصر بمعناه في ممارسات أو نهج كتابي معين أو حتى طريقة تفكير واهتمام لنحو ما. الغريب في الأمر هو ما تقرأه وتسمعه خلاف ذلك وخاصة من الفئة التي هي في موقف مضاد ودائم من الأشخاص الناشطين سياسيًّا وحقوقيًّا وخاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي: أن هؤلاء المعتقلين يتبجحون دائمًا بوطنيتهم وأنهم هم فقط من يحمل فكر الإصلاح والتغيير. مشكلة البلد ليست في الأشخاص المخالفين لك في المبدأ، هذا حق مشروع والاختلاف صحي؛ لكن مشكلتها هم الأشخاص الذين يتلونون حسب مصالحهم أينما وجدت.

أنا أستطيع أن أؤكد وأتكلم بلسان جميع الناشطين لا أحد منا يتكلم بهذا المنطق، ولا أحد منا يؤمن أن ما يفعله ويقوله ويكتبه هو السبيل الوحيد للإصلاح، وإذا افترضنا جدلا يوجد نعم من يؤمن بذلك أقول له لا يوجد لك متسع بيننا، ويوجد مئات بل آلاف من المواطنين يخدمون البلد بأفعالهم وبصدق وهم صامتون وتأثيرهم أكثر مما تحمله جعبتك من أفكار مشوهة.

وطريق الإصلاح طريق واسع جدًّا ولا توجد به حدود معينة، لكن تبقى هناك بدون شك ملامح تحدد إذا كان هذا المتحدث يريد الإصلاح أم «التطبيل». حيث نشاهد شخصا ما يقف موقفًا متزمتًا بشكل كلي لأي انتقاد يوجه إلى الأداء الحكومي ويحاول أن يوهم الآخرين وفي الحقيقة يوهم نفسه بإنكاره كل السلبيات بشكل مطلق «نحن بخير وأهم شيء الأمن والأمان». وبالنسبة لي من يتخذ الطريق الأول عن قناعة وإيمان، أفضل بكثير من أي شخص يقرر أن يسلك ذات الطريق أيضًا لكن فقط لحماية مصالحه الخاصة لا أكثر رغم معرفته بالحق.

وفي الأخير أقول إن فكرة الإصلاح والتغيير يجب أن تترسخ في أذهاننا جميعًا لتنعكس بعد ذلك في سلوكياتنا وحديثنا وكتاباتنا. ولكن كما قلت في الأعلى، لا توجد هناك طريقة واحدة للتعبير فيها عن فكرك الإصلاحي، وأقله أن تحاول أن تصلح في مكان عملك وتقول قول الحق؛ فالصحفي بمقالاته، والطبيب في مستشفاه، والمعلم في مدرسته وهلم جرا. ليس من حقنا أن نطلب من الآخرين بأن يفكروا مثلنا، وإذا لم يفعلوا نعتناهم بالغباء لأن الحقيقة أكبر من الجميع، ومركب واحد لا يمكن أن يتسع لنا جميعًا حتى لو كانت غايتنا متشابهة، فضلا عن تباين الغايات. وكما قلت سابقًا أيضًا، إن ملامح طريق الإصلاح واضحة المعالم، ومن يريد «التطبيل» والنفاق والمجاملة لن يخدع إلا نفسه وسيبقى بفكره الأناني والجشع أسفل الأسفلين في نظرة المجتمع مهما ارتقى كما هو يرى نفسه.

***تنبيه**[18]

---

18. هنا أعتذر للكاتب وللقارئ معا مرة أخرى؛ تم تأجيل بعض ما لحق هذا النص إلى آخر المسودة تقريبا في المرفق 2. (الرسول)

(ح)

أن تؤمن بإنسان هو أن تدفعه دائمًا إلى تحقيق نفسه وأن تقف بجانبه مهما كانت أحلامه وأفكاره لاتتوافق مع رأيك. نحن نبحث دائمًا عمّن يشابهنا في الحياة، ولكننا نتخلى عنهم حين نكتشف أنهم تغيروا وأصبحت أفكارهم جديدة علينا. إننا نقاوم التغيير بشيء من المبالغة وكأنه لعنة سوف تحل علينا وتعذبنا طويلا. كيف يستطيع الإنسان العيش بنفس الوتيرة من الحياة والنمط من غير تغير بسيط؟! وحين يصاب بلعنة التغيير يجن جنونه وكأن حربًا تم إعلانها ضده.

كان مختلفًا عني لكني أحببت اختلافه أكثر من أي شيء آخر. عشنا كأصدقاء مقربين وأحباء أكثر قربًا. تكونت تلك العلاقة بسرعة لا محدودة. فهمنا أنفسنا كثيرًا. كنت مجنونة أحدثه بكل شيء، وكان أكثر جنونًا يحكي لي مغامراته التي لاتنتهي. كان جميلاً جدًّا وسيبقى كذلك في قلبي دومًا.

جمعتنا تغريدة علقنا عليها معًا. كنت أتساءل كثيرًا هل تلك الصفة الخيميائية التي كان يتحدث عنها باولو في كتابه حقيقية؟ ما زلت أنا وهو لا نعلم لماذا اجتمعنا.. ما حكمة الصدفة التي جمعتنا.

***

وجدت فيه الصديق والحبيب الذي أرتاح له مهما طال وقت مكالماتنا وكثرت اختلافاتنا. كنا نتحدث لساعات طويلة، نضحك، نحكي الذكريات الجميلة والسيئة.. تلك الذكريات التي لم يعلم أحد بوجودها في قلبي. كنت

أخبئها عني وكل من حولي.. وأهرب من مواجهتها لكني حكيتها له. لديه أسلوب جميل في إقناعي بالتحدث رغم أنني أجد الغصة في كل ذكرى. بيد أن إنصاته كان يشملني راحة وطمأنينة.

مضت الأيام واقتربت روحنا سريعا لبعضهما البعض. كأن كل واحدة منها كانت تبحث عن الأخرى منذ سنوات. ارتاح هو الآخر لي وفتح قلبه المغلق. لم أكن أعلم أي شيء عنه سوى اسمه ونشاطه السياسي الذي أثار الكثير من المشاكل مع السلطة. لا أتذكر أنني سألته وقتها عن حياته الخاصة أبدًا. كان بالنسبة له أمرًا غريبًا أن أسأل عن أي شيء يتعلق بخصوصياته. ولهذا ذات مرة سألني:

- لماذا لم تسأليني عن عائلتي وعن تفاصيلي الشخصية الأخرى، هل تتعمدين ذلك؟

- نعم، لا دخل لي بتفاصيل حياتك الأخرى إلا إذا أدخلتني أنت فيها، حينها تصبح مهمة بالنسبة لي. كل ما أحب وجوده هو أنت.. وكل ما يربطني بك هو علاقتنا نحن الاثنين فقط، وهي ما تهمني. بكل بساطة لا أريد أن تتشوه هذه العلاقة بوجود أشخاص آخرين لا دخل لهم فيها.

«حبيبي،

أتعلم كم أحبك؟ بالطبع لا. فأنت لا تعلم أصلًا غير إعجابي بفكرك ونشاطك، وبعيدًا عن هذه الفكرة لا تعلم شيئًا. لم أقلها لك حين سألتني. أكدت عليك بأني معجبة لا أكثر. لم أكن فعلًا حينها متأكدة

بحبي لك. كنت أعلم بأن قلبي ينبض لك.. وأعلم بأن هذا النبض لن يتوقف إلا بموتي. مجنونة هي الفكرة التي يعيشها أي إنسان حيث التعلق والجنون بداية كل علاقة.»

عندما رأى منشوري في الفيسبوك، أخذ صورة له وأرسه لي عبر الهاتف مع الكثير من الاستفهامات. اتصلت به مباشرة. كنت متأكدة من حبي لدرجة الجرأة لقولها مباشرة له دون أي تردد.

- نعم.. أحبك

- ماذا؟؟ أعيدي ماقلتِ مرة أخرى.. لم أسمع.

- لماذا أعيد وأنت قد سمعت. ولكنك تريد أن تسمعها مرة أخرى.. أحبك.

- جريئة جدًّا. كنت قد شككت بذلك بنسبة كبيرة، أنني من تقصدين في كتاباتك الفيسبوكية.

- نعم، كنت أقصد حبك أنت.. أنت وحدك.

أليس مبكرًا جدًّا على الحب.. ثانيًا لو اجتمع قلبانا، هل تتوقعين أن يجتمع جسدانا يومًا ما أيضًا؟

6

مكان عملي، وتوطد علاقتي بالمرافق بحكم وجود صديق مشترك بيننا، مكناني من معرفة أسرار كثيرة، بعضها غريب، وبعضها الآخر خطير. صديقي كان بشكل مستمر يلح عليّ لحضور سهراتهم في أحد الفنادق.. وأحيانًا يسهرون في مزرعة المرافق. كنت أعرف أن صديقي يحب الشراب ومن الطبيعي سهراتهم ستحيطها قناني البيرة أو أكواب الويسكي؛ فكنت أعتذر عن الحضور وأختلق لكل مرة حجة مختلفة. لم أتخيلني يومًا أتعامل مع سكران فضلًا عن أقدم بنفسي لأشرب وأسكر!

بعد إلحاح طويل وافقت بشرط ألا أذهب إلى أي فندق،

- ممكن لو سهرتم في المزرعة سأذهب معكم.. تعرف أخاف أحد من معارفي يراني في الفندق. مع ذلك لن أشرب. لكن لم يستمر الحال طويلا، فبعد عدة زيارات للمزرعة شربت.

سبب امتناعي عن مشاركتهم سهراتهم في الفندق كان عذرًا غبيًّا؛ فكيف سيعيبك فلان أو علان لو رآك وأنتم تتشاركان نفس المكان ونفس العيب من منظور المجتمع؟! بعد فترة، وأنا أحادثني متخيلًا شخصًا يعرفني رآني بالصدفة في بار الفندق وذهب يشي بي عند أهل قريتنا:

- لم أخبركم ما رأيت، اليوم شفت فلانًا في بار الفندق!

سينظر له الجميع بريبة، وسيرد بعضهم بصوت واحد وهم يليحون فمهم على جنب:

- وأنت ماذا تفعل في البار.. لماذا ذهبت؟!

هكذا بدأت أضحك على نفسي عندما أقنعتني مشاركتهم سهراتهم الفندقية. لعل تعودي متعة الشراب وفضولي لسماع الأسرار التي يبوح بها فم المرافق وهو سكران أصبحتا أكثر أهمية من الحسابات الأخرى. خاصة أن صديقنا المرافق وهو سكران يصبح ذا موهبة عالية في السرد ويتحول إلى حكاي محترف.

في الحقيقة لم أوافق إلا بعد بحث طويل للحصول على مدخل فقهي يساعدني على حل أزمتي، فعقلي وقتها ما زال عالقًا في شبكة الحلال والحرام والبحث عن الرخص إن أمكن، مثلي مثل الكثير من المسلمين الذين يريدون مواكبة العصر أو الاستمتاع بالحياة وفي الوقت ذاته يبقون في دائرة الحلال أو المباح. لا توجد لدينا منظومة أخلاقية إلا داخل منظومتين أكبر منها تشكلانها، منظومة الحلال والحرام الدينية، ومنظومة العيب الاجتماعية.

بعد بحث طويل لأُقنعني، ولو بالحيلة، وجدت ضالتي عند السادة الأحناف.. وعلقت بيني ونفسي متهكما:

- من اليوم وصاعدًا أنا على المذهب الحنفي.

***

لاحظت بعد فترة من الزمن، أن بعض زملاء المرافق يطلقون عليه على سبيل المزاح «الحمار الأسود» عندما يحادثهم متصلين به أو يتصل به. لا أعلم لماذا يفضل دائمًا استخدام مكبر الصوت في أغلب اتصالاته، حتى بعضها

لها علاقة بتفاصيل عمله. سألته عن الأمر لكن لم يجبني وحاول تأجيل الموضوع. تناسيت الموضوع حينها على أمل أن أسأله من جديد بعد مضي ثلاث ساعات على الأقل. سيكون حينها على سجيته أكثر وسيبوح بما لديه دون تحفظ. هكذا يكون مفعول الشراب على بعض السكارى.

أحيانًا أشبه الشراب بالدين. قد يراه البعض تشبيهًا سخيفًا وسطحيًّا مثل رأي صديقي عندما ذكرت له التشبيه. لكن أحيانًا الحقيقة هي كذلك سطحية ولا نحتاج لمعرفتها الغوص والتعمق أكثر مما تستحق، وإلا فلن نصل إلى نتيجة.. سنضيع. بعد ما اعتدت على ارتياد الحانات مرتين أو ثلاثة مرات بدأت تنبت هذه المقارنة في رأسي ما لبثت حتى تأصلت. كم شاهدت أناسًا محترمين وخلوقين قبل أن تكون الكأس رفيقة سهرتهم تلك الليلة، وما هي إلا ساعات حتى يتحولوا إلى مسوخ.. يظهر كل عفنهم الداخلي على وجوههم ولسانهم كلما شرب أكثر. الشراب يظهرهم على حقيقتهم ويكشف عنهم غطاء الأخلاق الزائفة. وهناك من يفعل الشراب به عكس ذلك.. يزيدون إنسانية ويصبحون مرهفي القلوب، وقد يبكون لأتفه موقف إنساني.

وكذلك الدين يفعل عندما يتشرّبه أشباه البشر؛ فكلما تشربوه أكثر وتعمقوا فيه يبتعدون أكثر عن الإنسانية ويتحولون إلى مسوخ. بيد أن هناك من يقوده تدينه إلى الإنسانية أكثر فلا يفهم ولا يطبق الدين خارج نطاق الإنسانية ولا يحاول أن يقف عقبة أمام تقدمها.

نجحت الخطة وبدأ يسرد لي القصة:

- قد لا تصدق ما سأقوله لك الآن. سأخبرك عن قصة الحمار الأسود وغيرها من قصص.. الموضوع له علاقة بمليكنا، لم أسمع هذه القصص بل شاهدتها بأم عيني. زملائي يمازحونني أحيانًا بهذا اللقب

بعد ما أخبرتهم عن القصة حيث إنهم لم يشهدوها ولم يصدقوها رغم أنهم شهدوا مواقف غريبة أيضًا. أحدهم قال لي مازحًا: أنت والحمار الأسود سيان، كلاكما مقربان منه.. يأخذ منه الحظ، ويأخذ منك الحب. كنت قريبًا ولم أعد، لعل وشاية عكرت صفو حبه لي. كنت من الفئة الأولى المقربة منه وما زلت في نفس الفئة قانونيًّا، لكن لم أعد قريبًا من القصر مثل الماضي. أكاد لا ألتقي به إلا أيامًا بسيطة كل سنة وبقية أيام السنة في إجازة غير اختيارية. أتوقع لو أن شخصًا آخر مكاني وكانت هناك وشاية ضده؛ لجرده مولانا من كل شيء. من الممكن أن مستوى محبته لي أو ضعف حبكة الوشاية هما من شفعا لي. أتذكر مرافقا آخر، كان مقربًا جدًّا أيضًا منه.. جرده من كل شيء، أرصدته، سياراته، أراضيه، قصوره، مزارعه. أخذه إلى نفس المكان الذي صادفه فيه أول مرة، ورماه مثل الكلاب. سمعت أنه قال له:

- تخونني يا عديم الأصل، نسيت أنا الذي ألبسك وجعلت منك شيئًا بين الناس؟!

قاطعته:

- يعني لم يفعل بك شيئًا إطلاقًا؟!

- هذه قصة أخرى دعنا منها الآن، سيحين وقتها يومًا ما.

على العموم نعود لقصة الحمار الأسود. قبل حوالي سبع سنوات كنت من ضمن مرافقيه في جولته السنوية. وعادة في مثل هذه الجولات، يخرج كل مساء بعد المغرب للتجول بسيارته وحيدًا ويصطحب معه أحد المرافقين المقربين. في أحد الأيام وصلتني أوامر لمرافقته، وقبل أن نخرج من المخيم

قال للحرس سيأتي حمار أسود.. لا تقربوه وافسحوا له المجال لعبور المخيم.

بعد قرابة نصف ساعة تقريبًا أتت جماعة من الحمير الأهلية وبينها حمار لونه أكثر غمقًا ويميل للسواد. قال لي: ترجل وابتعد بالسيارة متجهًا نحوها ثم وقف على مسافة مئة وخمسين مترًا بيني وبينه تقريبًا. لم تغير الحمير اتجاهها ولم تهرع وتهرب كالعادة، بل استمرت بالمضي باتجاهه كأنها تُهرع إليه. بعد ذلك توقفت جميع الحمير على مسافة تبدو من حيث أقف لا تتجاوز العشرين مترًا، إلا أغمقها استمر في الاقتراب من السيارة حتى وصل بمقربة من الباب. ثم رأيت مولانا يتناول شيئًا من السيارة بدا وكأنه عقد من الذهب ويعلقه حول رقبة الحمار. سريعًا انصرف الحمار وتبعته بقية الحمير.

شدني مشهد انصرافها، بدت كأنها تتدرب على مشية عسكرية ويتقدمها قائدها. الحمار الأسود على رأس المجموعة وبقية الحمير خلفه واحدًا تلو الآخر في طابور منتظم حتى اختفت عن مستوى رؤية العين.

- ماذا تتوقع يحمل ذلك العقد؟

قال مازحا وهو يقهقه:

- لعله إكسير الحياة على شكل تعويذة إفريقية

- هل تتوقع موته متعلق بموت الحمار؟

وهو يقهقه

- لا تقل لي أنك من اليوم وصاعدا ستبدأ البحث عن الحمار!

***

زاد فضولي لمعرفة تفاصيل وأحداث حول ما يحدث داخل القصر، وكل ما له علاقة بالوجه الآخر للملك. سمعت سابقًا الكثير من القصص تتناقلها الألسن همسًا لكنها جميعها تبقى في دائرة الأسطورة ويصعب تصديقها، لكنني في ذات الوقت كنت دائمًا أقول لا يوجد دخان بلا نار. أكيد أن هناك حقيقة لا يعرفها إلا قلة. في الحقيقة حتى القصة التي رواها لي صديقنا المرافق تبدو ضربًا من ضروب الخيال، كنت حائرا أصدقه أم أكذبه. إذا كان مثله لا يعرف الحقيقة فمن يعرفها؟!

لم أتركه تلك الليلة حتى قلت له ما أعرفه من قصص منتظرًا منه نفيها أو تأكيدها أو تصحيحها. من القصص التي أكدها قصة الذهب الذي يُرمى في البحر بمقربة من قصور مولاه كما يفضل أن يسميه. لم أستخدم هذا اللقب يومًا قط حتى عندما كنت أجله وأراه قائدًا حكيمًا كما كان يقوله لنا التلفزيون الملكي.. كان ثقيلًا على لساني. لم تسمح لي كرامتي يوما بنطقها قط. لفظ هذه الكلمة وكل مرادفاتها المستخدمة ولو همسا، تدفعني لا إراديا لتخيلني أجر في أحد أسواق العبيد وقيد الحديد حول رقبتي ورجلي.

كذلك من القصص التي أكدها لي هو ذبح ودفن الأبقار بمقربة من مخيماته في جولاته السنوية. ومن القصص المضحكة التي رواها بنفسه بعد ذلك، طريقة تعامله معهم. الغريب أنه كان يتحدث عنها كأنها شيء طبيعي. أحيانًا كان من الصعب عليّ تمييز جديته من مزاحه.

- تعرف.. مرة من الأيام نادانا مولاي وجمعنا في ساحة صغيرة في حديقة القصر. كان عددنا اثني عشر مرافقًا للتو انتهينا من العشاء. طبعًا نحن كمجموعة مقربة منه نتناول العشاء معه. أمرنا أن نصعد باصًا صغيرًا (ميكروباص). ونبه علينا لا أحد يصعد في الأمام. ثم ركب هو مكان السائق وأدار المسجلة على موسيقى أجنبية صاخبة.

- «اليوم أنا سائقكم وسآخذكم في جولة».

- بعد مضي قرابة ساعة رجعنا ووجدنا مجموعة من السيارات الفارهة جدًّا عددها 10 سيارة مختلفة. أنزلنا بعيدًا عن السيارات بمسافة تبعد حوالي مائة متر وأمرنا أن نصطف على الخط الذي رسمه بعصاه على الأرض.

«من أقول لكم انطلقوا، كل شخص يتوجه إلى السيارة التي يريدها»

- لم يحالفني الحظ ذلك اليوم، لكن حالفني في مرة أخرى. جمعنا كذلك بعد العشاء في ليلة عيد ميلاده في نفس الساحة ولم نكن نعلم السبب. وكالعادة السؤال ممنوع. فجأة أخرج من جيب دشداشته مجموعة من المفاتيح وقال: سأرمي المفاتيح إلى الأعلى، ولك السيارة التي ستلتقط مفتاحها. ساعدني طولي ذلك اليوم.. التقط ثلاثة مفاتيح. لا أتذكر كم كان عددنا ذلك اليوم لكن من المؤكد أن نصف العدد تقريبًا لم يحصل على شيء.

***

بدأت أتحاشى أي سهرة تجمعني بالمرافق. لأنني بدأت أحتقره وأحتقر نفسي بمصاحبته خاصة عندما علمت ماذا فعل به الملك. حقًّا إن صفات العبيد تنطبق عليه. من صفاتهم الخنوع وكل ما دست على كرامتهم أطاعوك وخضعوا لك أكثر.

أكدت على صديقنا المشترك أني غير راغب إطلاقًا بالسهر مع المرافق من جديد.

- أنت حر في خياراتك.. لن أتدخل فيها. أنا وأنت بيننا هم يجمعنا وهو الجانب الديني لكن لا يوجد من اليوم وصاعدًا أي مشترك بيني وبينه لكي تجمعنا طاولة في مقهى أو بار.

أيعقل يوجد إنسان ولديه كرامة يعرف كل ما يعرفه وما زال يقدس تقديسًا؟! أيعقل أن يدخل كوت الجلالي[19] دون أن يعلم بالضبط لماذا لمدة ثلاثة سنوات؟!

هذه صفات عبيد المال والعصا.. يتشاركون في الخنوع؛ فكل ما دست على كرامتهم أطاعوك وخضعوا لك أكثر. العبيد يبقون عبيدا وكلما جوعتهم أكثر تبعوك، وإذا لم يتبعوك ولم يمشوا بجانب الحيط.. الخيزرانة على مؤخرتهم علاجهم. لكن ما أقبح العبودية عندما تكون اختيارية. دون أدنى شك هناك خلل نفسي وعقلي.

19. كوت الجلالي هو سجن يستخدمه الملك المقصود ليشفي به غليله من الأشخاص الذين يغيظونه ويزعجونه بشكل شخصي ومباشر. (الرسول)

الفصل الثالث

مملكة اللايقين

«ولادة أخرى.. ربما»

وما الحياة إلا مسرحية وكواليس، استمتع بالأولى واصدق في الثانية.

٦

قبل أيام فقط أكملت ثلاثين سنة منذ ولادتي الأولى.

2

لا أشعر أن لدي رغبة في مواصلة حياة اللاجدوى. سأموت يومًا ما، وقد يكون فجأة؛ فلماذا أنتظر الموت لكي ينهي تعاستي! لماذا لا أذهب إليه.. أواجهه بكل شجاعة.

كم تيقنت

على هذه الأرض ما يستحق الحياة

لكن كل ما وجدته

قض الملل منه مضجعي

ثم تيقنت

ليس هو ما يستحق الحياة.

(ط)

ارتأيت أن أكتب عن تلك اللحظات التي مرت علي. ذلك الحدث الذي لم يسبقني إليه أحد من عائلتي الفقيرة. قد أكون أسرفت كثيرًا في وصف واختزال تلك المشاعر التي نشأت ونمت بين أضلعي واجتاحت أفكاري الهشة في فترة من فترات حياتي حين كنت أخدع نفسي باحثة عن الحقيقة في أقنعة مصطنعة أجبرني التفكير الجمعي للمجتمع أن أرتديها بغير وعي مني، ومع هذا فإن مساحة الوعي التي ملكتها والتي تغلبت على تلك الأفكار لاتزال غريبة بالنسبة لي أو بتعبير أدق إنما هي غامضة بعض الشيء. لا أستطيع تحديد الأسباب المختلفة التي أعتقد أن باجتماعها ولدت ثورة داخلية في أعماقي، أجبرتني على المغامرة باندفاع تام على كل ماكنت أؤمن به من حقائق رغم تكلسها.

خمسة وعشرون سنة مضت من حياتي لم أختر مسارها بكل حرية. كنت فعلًا أختار الطريق بإرادتي؛ فلم يكن يجبرني عليه أحد، لكن المحيط كان أقوى تأثيرًا مما اعتقدت. كان يحركني في سياق السائد؛ فلكي يتقبلني أكثر كان عليَّ لاشعوريًّا أن أفكر بعقله، وأشعر بشعوره.

الذي أدركه الآن هو أن أكون أنا فقط، حتى لو كلف الأمر إلى نعتي بأشنع الأوصاف مثل عدم الوطنية والخيانة، عليَّ أن أكون موضوعية ومستقلة في الرأي وفي المشاعر. أما التضامن غير الموضوعي حفاظًا على البقاء ضمن السائد، ضمن القطيع، في نطاق العقل الجمعي الذي يجمعهم سيجعلني رأسًا إضافيًّا في القطيع ليس إلا.. مهما حاولت تجميل الحقيقة

المشوَّهة فلن تستطيع.

لم تكن خمس وعشرون سنة متشابهة، لأنني في تلك السنوات التي سبقت الجامعة كنت أتأرجح بين مسارين في الحياة؛ فتارة أكون مغلفة مقنعة زائفة، وتارةأخرج بوجهي الحقيقي الذي أعيشه الآن بكل صدق معي والآخرين. أو بالأحرى بكل حقيقة صادقة أرغب بها لست آبهة لما سأواجهه من المجتمع، بداية من أسرتي، إلى العالم المختلف الآخر عني فكرًا وسلوكًا ومعتقدًا.

ولعلي أذكر قول صديقتي التي كانت معلمتي يومًا ما في المرحلة المتوسطة والثانوية كذلك. لكن صفة الصداقة طغت على علاقتنا الرسمية وأذابت فارق السنوات بيننا. كانت صادقة معي بكل ما تعنيه الكلمة. ومؤكدًا أنها الآن لا تدري أي منقلب انقلبت عليه؛ فكم من الأفكار لم أعد أحملها.. تنازلت عن بعضها وقتلت بعضها الآخر في داخلي. رغم اتفاقنا في الأسس والمبادئ التي قادت صداقتنا كل هذه السنوات وهو احترام الخيارات الشخصية وعدم التدخل في شأن الآخر إلا عند الطلب، إلا أننا أصبحنا الآن مختلفتين بشكل بيِّن للدرجة التي تهدد استمرار صداقتنا.

في الصف العاشر، أو لعله التاسع لا أذكر أيًّا منهما، ولكن الحدث والمكان لا يزالان عالقين بشكل جيد في ذاكرتي: «أعرفك... أنت قابلة للتغير السريع حين تختلطين بالغير». كانت هذه ملاحظتها وهي تعلق مبتسمة على علاقتي بزميلاتي في المدرسة. ثم طلبت مني أن أبقى قريبة لزميلة لي في نفس المرحلة؛ لأنها تملك أخلاقًا رفيعة وفكرًا مستقيًما حسب توصيفها.

زميلتي التي أصبحت صديقتي فيما بعد في علاقة أشبه بالأرجوحة بين السطحية والعمق كانت مبدعة وهي كذلك حتى الآن حسب علمي. ولكن رغم ذلك لم أستطع البقاء في ذلك القالب الذي كانت له حدود كثيرة بين

الممنوع والصحيح والخاطئ والحرام؛ فبطبيعة شخصيتي متمردة غير مقدرة للعواقب حين يتعلق الأمر بالمغامرة. لا أتوانى عن الخروج وكسر الحواجز تلك دون الشعور بهول الخوف من المجهول.

وربما تكون هذه الصفة التي دفعتني إلى خوض تجربة المخابرات «جهاز المخابرات الملكي» بكل شجاعة وعدم تقدير لأي عواقب وخيمة قد أدفع ثمنها. لم أفكر فيها للحظة، وإنما تملكتني فكرة أن أخوض تجربة تستحق أن أعيشها بكل شجاعة وقوة وجرأة خالية من الخوف الذي هرب مني في ساعتها؛ ليزورني بعد ذلك بأيام.

***

في يوم الأربعاء الثامن عشر من نوفمبر رن هاتفي وظهر لي رقم هاتف أرضي، وحين قمت بالرد:

- السلام عليكم

- وعليكم السلام، كيف حال؟

- الحمدلله بخير

- فلانة الفلاني؟

- نعم، تفضلي

- معك المديرية العامة للتحريات التابعة للمخابرات الملكية. نطلب منك الحضور معنا يوم الأحد

- أي أحد.. هذه القادمة؟

- نعم.

- ولماذا؟ لأجل أي موضوع؟

- عندما تحضرين ستعرفين، لم يخبروني بالموضوع.

- هل طريقة الاستدعاء قانونية؟

- إذا كنت تريدين طريقة أخرى للحضور فليست لدينا أي مشكلة.

- أين؟ والساعة كم؟

- الثامنة، المديرية العامة للتحريات.

- حسنًا.

انتهت المحادثة.

في تلك اللحظة لم أشعر بالخوف وإنما سألت نفسي لماذا؟ وقد كان لدي احتمالان: إما بسبب علاقتي به واكتشفوا الأمر، وإما بسبب بعض تغريداتي ومنشوراتي.

كنت أفكر ماذا أفعل وهل يجب علي أن أخبر أهلي؟ لكنني في آخر المطاف قررت ألا أطلعهم بالأمر. ثم بعد ذلك قررت أن أتواصل عبر الإميل بصديقة جمعتنا معرفة جديدة عبر تويتر بسبب تشاركنا في بعض الأفكار. سبق وأخبرتني بشكل مقتضب أنها تعرضت لنفس الموقف. نصحتني بأن أخبر أهلي ويجب أن يذهبوا معي، لكني لم أحبذ أن أفعل ذلك.

بعد تفكير طويل قررت أن أخبر أحد أبناء عمي فقط وطلبت منه وعدًا أن يبقي الأمر بيننا. تفاجأت أنه لم يغضب، بل اتصل بصديقه وسأله عن الأمر وطبيعة التحقيقات المعتادة وأخبره بأن هذا أمر طبيعي ولا داعي للقلق.

صباح يوم الأحد، الساعة التاسعة، وصلنا أمام مبنى المديرية العامة للتحريات. المبنى كبير وبه عدة بوابات لم نعرف أيًّا منها علينا أن نتوجه. لاحظت من بعيد وجود شرطي يقف بجانب إحدى البوابات. اقترحت على ابن عمي أن نتوجه له ونسأله. فور وصولنا إليه شعرت ببعض الخوف وزاد توتري أكثر بعد مشاهدتي ذلك السلاح الذي يحتضنه بين يديه الاثنتين وطريقة كلامه المخيفة.

استقبلنا شاب ربما يكون في العشرينيات من العمر، وطلب منا الجلوس في غرفة الانتظار. لكنه قبل أن يغادرني طلب مني تسليمه حقيبتي وأضع فيها الهاتف وساعة اليد. كان انتظارا طويلا ومملا ومرهقا. بدأ توتري يزداد شيئا فشيئا. لم أجد ما أفعله إلا التدقيق في كل تفاصيل الغرفة، حتى مساحة الغرفة لم تسلم من ذلك. قمت أجردها بخطواتي ذهابا وإيابا. كان طول أحد أضلع الغرفة قرابة سبعة أمتار والآخر قرابة أربعة أمتار.

إلا أن بعد فترة طويلة من الانتظار قد تكون ساعة ونصف تبدد وتلاشى توتري، كأني بدأت آألف المكان، أو لأني بدأت استرجع حينها القصص التي سمعتها تروى حول تفاصيل الاستدعاءات والاعتقالات وبدأت استوعب الأمر أكثر فأكثر.

وهذا ما يفعلونه في كل مرة يستدعون شخصًا فيها إلى هناك. يتأخرون ساعتين أو أكثر أو أقل بقليل؛ لزيادة الضغط النفسي عليه. إلا أن معرفتي بهذا الأمر قبل ذهابي أعطاني مفعولًا عكسيًّا ساعد على امتصاص توتري

وخوفي بعد ذلك. وقد يكون ما ساعدني حينها أكثر هو رؤيتي للحدث بأنه تجربة يجب عليّ المرور بها بكل شجاعة والإحساس بكل تفاصيلها.. وكنت متحمسة لذلك حينها.

فجأة فتح الباب ودخل نفس الموظف الذي أخذ حقيبتي وأمرني بالخروج من الغرفة، ثم أشار لي بيده التوجه إلى غرفة أخرى ليست ببعيدة مجرد عدة أمتار قد لا تزيد عن عشرة.

لم تكن تختلف تلك الغرفة عن غرفة الانتظار بشيء، إلا ستائرها الزرقاء كانت تخفي خلفها نوافذ مغطاة بعكس غرفة الانتظار؛ فقد كانت النوافذ مغطاة بالورق اللاصق الأسود؛ ليمنع الرؤية ويمنع دخول أشعة الشمس. يريدونك لا تستطيع أن تحدد الوقت إلا من خلال الساعة التي خلت غرفة التحقيق في اليوم الأول والثاني منها، ولكن في اليوم الأخير فقد كانت تقبع فوق الباب الأزرق.

لا أعلم ما سر علاقة الأجهزة الاستخباراتية باللون الأزرق؛ فقد كنت أتساءل حول ذلك من أول يوم تفحصت فيه غرف الانتظار والتحقيق. توجد في منتصف القاعة، طاولة مستطيلة الشكل لونها بني فاتح وقد خالف هذا اللون اللون الأزرق المتغطرس الذي سيطر على كل شيء. ويوجد خلفها ثلاثة كراسي زرقاء اللون، وكرسي آخر أمامها، كما يبدو هو للمتهم الذي سيجرى التحقيق معه. وقد وضع على مسافة بعيدة عن الطاولة، ربما لتفادي المتهم قراءة الأوراق التي يحملها المحققون، أو لتفادي ردة فعل المتهم لو حاول الاعتداء على المحققين.

امرأة ورجل جلسوا على كرسيين من الثلاثة.

- أهلا، كيف حالك؟

وأنا أبتسم:

- حالي تعرفونه

ثم أمسكت المحققة ورقة وبدا عليها الغضب من ردي لكنها لم تقل شيئًا وظلت صامتة فقط تكتب ما أقوله عندما يسألني الضابط.. لفتني جمالها وعباءتها التي بدت كالفستان لكن حذاءها لفتني أكثر. تعجبت كيف كانت قادرة على السير به وكعبه بذلك الارتفاع وتلك النحافة. حاولت أن أتبين من ملامحها من أي قبلية تنتمي هي ومن أي ناحية من بلدي تكون ولكن فراستي عجزت في تلك اللحظة. كل ما استطعت أن أعرفه أنها تمثل أمامي الآن كل الشر.

- نريدك أن تعطينا معلومات عن إخوتك.. من أكبرهم إلى أصغرهم؟

- كل هذه المعلومات التي تطالبون أن أسردها هي موجودة لديكم؛ فلماذا أعيدها عليكم؟

- لأننا نريد أن نعرفها منك.

بعد قرابة ساعة من الأسئلة العامة جدًّا التي كان يلقيها الضابط، نطقَت:

- هل تعلمين لماذا أنت هنا؟

- لا.. لا أعلم.. أخبروني.

- فكري قليلًا. فيماذا شاركت في الفترة الأخيرة.. ماذا كتبت؟

- هل تقصدين تغريدات أو منشورات لي؟

- نعم، وصلتِ.

وبدأت الأسطوانة الاستخباراتية التي طالما سمعتها من معارف وأصدقاء مروا بنفس التجربة. وبدأ التقنع بأقنعة مختلفة وبأدوار عدة بين الطيب والشرير وبين المثقف والمستمع الجيد. محقق يصرخ في وجهك عن إنجازات الحكومة.. عن حقي في التعليم الذي تمن به الدولة علي.. عن كوني امرأة يهدد بإخبار أبيها عنها، وأخيها الذي لن ينال ترقيته التي ستجعله عبدًا آخر للحكومة. محققة تحارب كل النساء على شاكلتي.. امرأة تؤمن بالرقابة الآمنة والأسرية اللصيقة على النساء بحجة حمايتهن.

***

في يومي الأول قبل التحقيق انتظرت قرابة ساعتين ونصف في تلك الغرفة ذات الستائر الزرقاء وحيدة. هكذا يفعلون دائمًا يلعبون على وتر نفسيتك؛ لتنهار أمام أول سؤال.. وأول صرخة في وجهك وأول تهديد، وقبل هذا كله أول كذبة يكذبونها عليك. ثماني ساعات من التحقيق أجهدتني كثيرًا، أجهدت نفسيتي. تكرر حال الانتظار ذاته تقريبًا في الأيام التالية.

وظيفتي التي استلمتها قريبًا مهددة بالزوال. لم أكد أتذوق طعم الاستقلالية إلا وأنا مهددة بفقدانها. تمالكت نفسي، لم أبك في يومي الأول ولا في يومي الثاني، ولكن مقدار الإهانة والخوف التي وجهها جهاز الاستخبارات الملكي إلى امرأة مثلي عندما اتصلوا بأخي لإعلامه وتهديده وابتزازه بوظيفته وقبيلته، دفعني لحافة الجلد والثقة بالنفس. انهرت في اليوم الثالث وبدأت أبكي.

استشاط غضبًا، وكأنني أجرمت في حقه بأمر ما. اتصل بي بعد خروجي

من التحقيق في اليوم الثاني.

- ماهذا الذي فعلتِه؟ عار علينا.. أصابتنا الفضيحة. ألا تعلمين أن جميع أفراد عائلتك يعملون في جهاز الاستخبارات الملكي؟ ألا تعلمين أن هذا المحقق يعرف والدي؟

من شدة صراخه لم أتمالك نفسي ووجدتني أبكي ثم أغلقت الاتصال.

تبًّا لكم، نعم تبًّا لكم. هل هذه هي الدولة التي تريدون؟ متعصبون للقبيلة، متعصبون للعادات والتقاليد، متعصبون لأنني امرأة! أنا لا أستطيع أن أخسرني بعد اليوم.. كيف لكم أن تعاملوني كأنني قاصر والقانون الذي تنادون باحترامه يعترف بأنني أمثل نفسي ومسؤولة عن كل تصرفاتي. أنا لست مسؤولة عنكم.. عن طريقة تفكيركم. لم أطلب منكم أي مساعدة.

أما هم فكاذبون حقًّا. كل منهم لديه شهادة عليا في الكذب. قالوا عن أصدقائي بأنهم خونة وعملاء وفاسدون وليست لديهم أي وطنية. نعتوهم بأبشع الصفات. هل هذه هي أخلاقكم الفاضلة التي تمثل الحكومة الرشيدة؟ قمة العار أن يعتقل المواطن لأيام ويحقق معه وتسحب وثائقه، فقط لأنه طالب بحقه وحق أبنائه وحق الوطن!

مر اليوم الرابع والأخير من غير تحقيق، تركوني أنتظر في تلك الغرفة الزرقاء لساعات. فجأة دخلت علي المحققة لتسألني عن أخي وعن ردة فعله حين علم بالأمر.

- عادي.

- هل كلمك؟

- نعم.

- هل سيأتي؟

- لا، قال بأنكم لم تطلبوا منه المجيء اليوم.

اختفت بضع دقائق ثم عادت.

- سيأتي أخوك ليخرجك. وهي تبتسم بكل شماتة العالم.

ثم أضافت:

- نصيحة لوجه الله اتركي عنك هذا الطريق.. طريق الشذوذ عن القاعدة. أنت وشاكلتك لا أحد أصلًا يعيركم أي اهتمام. كل الشعب ملتف حول القيادة الرشيد.

غضبت فعلًا، ألا يكفي حجم أكاذيبهم على أخي! ألا يكفي اتهامهم لأصدقائي بالعمالة والخيانة والفساد. ماذا سينسيني كل هذه الإهانات التي تعرضت لها؟! لكن جملة (كل الشعب ملتف حول القيادة الرشيدة) واستني حينها. أضحكتني. ومن قال إنه من الضرورة لقياس مدى صحة الفكرة أو الأسلوب، قياس مدى كثرة المؤيدين؛ فكم من الأفكار الرجعية بيننا، ما زال يتبناها العقل الجمعي!

جاء أخي وابن عمي، فقد اتصلوا بهم جميعًا؛ ليشهدوا على تعهدي الذي كتبته عنوة وبعدم رضا مني. اغتصبوا رضاي وأفكاري.. شنقوا حريتي وقطعوها إربًا أمامي. نكلوا بي لأشهد بنفسي عواقب الحرية أمامهم جميعًا.

رحلنا بعدها وهم يمثلون دور الحارس الأمين الذي حافظ علي وأنقذني

من أنياب الأشرار والعملاء وأعادوني سالمة إلى أهلي. نصحوا أخي بتشديد المراقبة علي وحمايتي من نفسي؛ لأنني سأضيع وسط شلة المثقفين الفاسدين. فعلًا أصدقائي هم فاسدو البلد بنهبهم الأموال العامة، وتوليهم المناصب العالية غير المستحقة، وجني ثمار مناقصات رست بالرشوة، وسطوتهم على أراض بمساحات شاسعة. فيما يبقى المتورطون الحقيقيون باسم الوطنية يتمتعون بحريتهم فلا قانون يعلو عليهم.

أدركت حينها عندما يجب علينا أن نختار عدوًّا فلنختر عدوًّا شريفًا لديه مبدأ وليس عدوًّا يستغل عاطفة الآخرين؛ ليحقق انتصارًا لايستطيع القيام به وحده.

3

عزيزتي الكتابة كنت خير صديق وخير أنيس. الآن أستطيع أن أدفع الكرسي الذي أعتليه من أسفلي دون تردد. الآن أستطيع أن أغادر هذه الحياة بسلام. لن أنتظر الموت يهزمني بل سأتقدم له خطوة، وقد تكون خطوات. لا أعلم بالضبط لكن كل ما أعلمه أني مصمم على التقدم بكل شجاعة لأنهي عبثية هذه الحياة؛ فلا توجد في الحياة خدعة أكبر من الحياة نفسها. لم أعد أؤمن بالكثير من الأشياء في الوقت الذي أؤمن فيه بأشياء أيضًا. لكن في الوقت ذاته، قدر ما أؤمن فيها، لا أؤمن فيها كذلك. نعم، هذه هي الحقيقة التي باتت تنخر جمجمتي في النهار، وتؤرق مضجعي في الليل. هل تصدقيني لو قلت لك إن أصعب حقيقة يمكن أن تصل لها؛ هو أنه لا توجد حقيقة أصلًا، على الأقل بالنسبة لنا نحن كبشر. شكرًا لك لقد سمحتِ لي أن أهرطق، وأقول لك ما لا أستطع قوله علنًا، وأكتب ما لا يفترض أن يُكتب.

حبيبتي:

أكرهك لأنك سمحت للموت أن يتغلب عليك وتركتني وحيدًا أمام عبثية الحياة. أكرهك لأنك جعلتني بلا معنى وجعلتِ الحياة من حولي بلا قيمة. لكن حان الوقت للحب أن ينتصر، لحظات يا حبيبتي وستتحد روحي بروحك، إليك أنا قادم.

لحظة.. عبثية الحياة!! ما هو العبث وأين هو؟؟

أليست حقيقة وجود ماهيتي قبل وجودي عبثا؟! أليست حقيقة

وجودي قبل ماهيتي عبثا كذلك؟! أليست قدرتي على الانتحار هو عين ماهيتي؟! أليست قدرتي على الانتحار هو عين وجودي كذلك؟! أليس الانتحار نفسه عبثًا؟! أليس السؤال عن كل ما هو عبث، عبثًا أيضا؟! ثم نسأل عن عبثية الحياة !!

4

قبل يومين

نشرت منشورًا في صفحتي وأنا أبكي حرقة بسبب مناظر الموت العبثية العشواء التي لم يسلم منها حتى الأطفال وهم في عمر الزهور، قائلا: «**هل هناك حقا إله؟! وإذا كان يوجد، هل هو عادل؟! كرهتني، أشعر بالعار والخزي كوني كائنا بشريا.**»

تخيلتني مكان أحد هؤلاء الأطفال: ماذنبي أن أقتل؟! ماذنبي أن تهدر آدميتي؟! تخيلتني أحد الآباء واقفًا أمام كومة من الأشلاء البشرية أحاول تمييز ما تبقى من جثة طفلي! كرهتني في ذلك الوقت كوني كائنًا بشريًّا، لأنه لا يوجد كائن آخر يتجرأ على فعل ذلك.

فعلا لم تكن هذه أول حرب نرى نتيجتها مثل هكذا صور، لكنها تراكمات النفس. تراكمات ألم خبطات الموت الموجعة، بكل أنواعه. كان مشهدًا أصغر آخر فقط من مشهد أكبر، لإحساس ساورني منذ مدة وأنا أتأمل في حقيقة الموت.

فأكثر خبر يهز بدني ويخيفني، خبر الموت المفاجئ.

ليس لأني أخاف الموت؛ فكم تمنيت الموت في لحظات اكتئاب حادة،

وكم حاولت الانتحار وخططت له، لكنه يريني بكل وضوح حقيقة هذه الحياة التافهة. إنها ليست أكثر من عبث نحاول أن نتجاهله رغم معرفتنا به. وكل ما ننسى وننغمس في الحياة ومتعها بشعور أولا شعور، يخبطنا الموت المفاجئ على رؤوسنا خبطة تهوي بنا إلى قاع عدمية متطرفة نفقد بسببها رؤية جميع الألوان، إلا اللون الأسود. لا ترى إلا سوادًا إذا نظرت خلف ظهرك، ولا ترى إلا سوادًا إذا نظرت أمام قدميك، وحتى لو حاولت أن ترمي بنظرك بعيدًا محاولًا تجاوز السواد لا تستطيع، تراه ينتظرك هناك مبتسمًا:

تعال.. تعال.. تعال.

نعيش، ونجاهد لنعيش، ونصارع لنعيش، لكي نموت.. أليست عبثية! بيد أن قمة العبثية أن تموت فجأة!! ولكن لأن الحياة عبث؛ الموت من أجل السعادة أو الموت من أجل الموت، هما الخياران الوحيدان المنطقيان. لكن ماذا لو كانت سعادتي تتنافى مع الأعراف الأخلاقية!

في منشوري طرحت ألمي بفكرة تعمدتها. بطريقة تضمن لي الاستمرار في هذه الحياة، مؤمنًا بحقي الكامل في التعبير عن أفكاري بكل حرية، مثلما قال درويش: «سنكتب من أجل ألا نموت، سنكتب من أجل أحلامنا». والسبب الآخر الذي دعاني لقول ذلك، هو لاختبار حقيقة التسامح التي يدعيها الكثير منا. لم تكن لدي مشكلة مع مَن اختلف مع الفكرة بكل احترام. المشكلة كانت مع من يدعون براءتهم من الأفكار الداعشية المتطرفة كل يوم. في ذلك اليوم ظهروا على حقيقتهم؛ فلو تمكنوا من رأسي وكانت لهم الكلمة؛ لفصلوه عن باقي الجسد. ما أسهل الادعاء بالشيء، وما أصعب تطبيقه في الواقع. من السهل جدًّا أن ندعي الثقافة ونقتبس عبارات التسامح والحرية والديموقراطية ونرددها في كتاباتنا وحواراتنا، لكن المحك الحقيقي

لإثبات ثقافتنا هي مواقفنا. فما أكثر الأوصياء! وما أكثر الدواعش! وما أكثر محامي الرب!

في هذا العالم إجابات كثيرة، وأسئلة قليلة. ما أصعب الأسئلة، وما أسهل الإجابات. ما أصعب حمل السؤال والشك، وما أسهل حمل الحق واليقين. من الصعب أن تشير بأصابع الشك إلى يقينياتك، ومن السهل أن تشير بأصابع الكفر إلى تساؤلات وشك الآخر في يقينياتك. ومن السهل جدًّا أن تحارب عن يقين تدعيه في إيمانك برب ما، ودين ما، ومذهب ما؛ فمعظم البشر يفعلون ذلك بدرجات متفاوتة رغم اختلاف اليقينيات التي يحملونها. معظم البشر لا يتعلم من تجربته، رغم أن ما يدعيه من حق اليوم، بالأمس كان يخالفه. يستمر ويستمر في مسلسل ادعاء الحق المطلق حتى يموت!

ملاحظة: أنا لست ملحدًا، ولم أدع ذلك يومًا. وإذا كنت حقًّا كذاك، فلن أخجل من قول ذلك؛ فهو خيار شخصي وحق أصيل لا يستطيع أي مخلوق منازعتي إياه.

***

بشكل مستمر أواجه الكثير من الانتقاد اللاذع، والسب أحيانًا أيضًا، وأقصد هنا في مواقع التواصل الاجتماعي، من بعض العقول التي لم تتعود وتستوعب حتى الآن فكرة الاختلاف وتعدد وتنوع الرؤى والقناعات. بل تعودت على الصوت الواحد والولاء الواحد والحكمة الواحدة. وفكرة الحظيرة والقطيع، وتمقت أي صوت آخر مختلف عن سائد الأسرة والقبيلة والمذهب والدين والدولة. لا تريد لأي كان أن يفكر بطريقة مختلفة خارج

نطاق الحظيرة، سواء على المستوى السياسي أو الديني أو الاجتماعي، وإلا اعتبر زنديقًا ومهرطقًا وكافرًا وجاحدًا وغير وطني ومحرضا وصاحب فتنة ولديه أجندات خارجية !

ولكيلا أُفهم بشكل خاطئ. لا أعني هنا النقد الطبيعي المعتاد الذي هو من حق أي شخص ويقع على الجميع ويشمل الكل، وأعني الكل هنا بمعناها الحرفي التام.

وفي الحقيقة تجاوزت هذا الموضوع إلى ما هو أبعد من هذا بكثير...

«وفي الحقيقة»!

«وفي الحقيقة»!

«وفي الحقيقة»!

ممم للأسف ما زلت أردد كلمات وعبارات تحمل نَفَس الحقيقة المطلقة! عن أي حقيقة تتحدث يا أخرق؟! ما أجمل أن توجه أقبح عبارات السب إلى ذاتك عندما تستحقها.

على العموم ما أود قوله هو أني تجاوزت هذا الموضوع إلى ما هو أبعد من هذا بكثير، حيث لا أرى أن هناك شخصًا مقدسًا، أو فكرة مقدسة ومنزهة عن النقد بحد ذاتها. وما المقدس إلا نتاج عقولنا وممارساتنا اليومية، وهي أفعال اجتماعية ومرتبطة بالمقدِس وليس بالمقدَس. أن هالة التقديس جاءت نتيجة أفعال اجتماعية فهي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعامل الزمن وحجم

انتشارها وتأصلها اجتماعيًّا، والعلاقة بينهما طردية. بل خطابي موجه إلى العقول التي تتعمد الابتعاد عن الفكرة والتركيز على شخص طارح الفكرة لتمارس وظيفتها المعتادة في السب والقذف، حتى يرجع طارح الفكرة عن ضلاله وغيه المبين، ويعلن توبته ورجوعه السريع إلى القطيع.

أنا.. في صفحاتي الشخصية أمارس حريتي في التعبير عن آرائي ولم أتعد على حريات الآخرين. وجميع مواقع التواصل الاجتماعي تقريبًا أتاحت للجميع متابعة من تريد، وفي ذات الوقت إلغاء متابعة من لا تريد.

في الحقيقة نحن شعوب مريضة بحب السيطرة والاستبداد مع ذواتنا ومع الآخرين...

مرة أخرة «في الحقيقة»

مرة أخرة «في الحقيقة»

مرة أخرة «في الحقيقة»

عقلي اللاواعي مصر على حمل الحقيقة.. ليته يتعلم من حجم وعدد الحقائق التي تولى حملها ودافع عنها بكل شراسة ثم بكل سهولة قذف بها في البحر عندما وجد حقيقة أخرى تراءت له كحقيقة مطلقة ونهائية!

أرجع لحديثي:

نحن شعوب مريضة بحب السيطرة والاستبداد مع ذواتنا ومع الآخرين «ولطالما آمنت بأن الدولة ما هي إلا انعكاس للشعب، وأن شعبًا متحضرًا لا يمكن له أن ينتج سوى دولة متحضرة، بينما لا يمكن لشعب متخلف سوى

أن ينتج دولة متخلفة مهما كثرت المحاولات والتجارب، وهو ما قد يفسر ما نراه واقعًا مُعَاشًا في معظم الدول العربية اليوم، من حيث وجود أنظمة سياسية قمعية دكتاتورية تحكم شعوبًا هي في حد ذاتها قمعية دكتاتورية حتى في معاملات أفرادها بين بعضهم البعض على المستوى اليومي.»[20] الاستبداد بكل أشكاله سواء كان السياسي أو الديني أو الاجتماعي، لا يفرخ إلا صيصان مستبدة. وبدون شك معظمكم صادف الكثير منها في حياته.

نحن مطموسو الفردية وتسيطر علينا روح الإمعية في نسق تفكيرنا وفي رؤيتنا للأشياء وحتى في اتخاذ قراراتنا وتصرفاتنا. ومثلما قال الشاعر: «نحن مجتمع أحمق من الحمق، نتنازع على التفاهات، والترهات، والخرافات. ونرفض دومًا أن نغوص في العمق»[21]. ليس هذا فقط، بل نحب حتى التدخل في خصوصيات الآخرين وفي خياراتهم الحياتية اليومية. ونتقن تأليف القصص والأكاذيب. ونحب الجدال والصراخ والدفاع المستميت للحقيقة المطلقة وحتى للفكرة وليدة اللحظة، ونكره الحوار وتطبيق أبسط معاييره. كل هذا يحدث فقط إذا اكتشفنا أن هناك شخصًا مختلفًا في تفكيره. ومواطنًا رفض أن يكون من ضمن القطيع. وعقلًا رفض أن يتقبل السائد وفضل أن يصنع سائده.

20. هذه الفقرة وضعها الكاتب بين تنصيص دون أن يذكر السبب. وقد يعود السبب لأن الفقرة مقتبسة. (الرسول)

21. هذه الفقرة وضعها الكاتب بين تنصيص دون أن يذكر السبب. وقد يعود السبب لأن الفقرة مقتبسة أيضا. (الرسول)

(ي)

صفعني أخي لأنني كلمت شابًّا هاتفيًّا كما علم من أختي الصغرى. لا يجوز في مجتمعي أن تكلم الفتاة شابًّا كصديق وأخ، ولكن الشاب يجوز له أن يفعل ذلك. هكذا تربينا في مجتمعاتنا. الفتاة يلاحقها العار ولو كان زائفًا حتى موتها، أم الشاب فلديه ألف وسيلة ليغسل عاره.

كلنا نعلم في البيت أنه كانت تربطه علاقة حب بفتاة لقرابة الثلاث سنوات. الأمرّ من ذلك.. انتظرتْه لسنوات طويلة حتى بعد تخرجهما ورفضت كل الذين تقدموا لها لأجله. لكنه حين أخذ الأمر بمحمل الجد وقرر الزواج، رفضها رغم علم أهلها بالأمر. كانوا ينتظرون زيارته مع أهلي. أي كرامة قد أبقاها لتلك الفتاة أمام ذاتها.. أمام أهلها؟!

نعم أحبه..إنه صديقي الذي فهمني وتفهمني كثيرًا. فهم ما أعانيه، فهم أحلامي، فهمني أكثر مني. تبًّا لكم ثم تبًّا لكم مرارًا وتكرارًا. أهذه رجولتكم حين تمدون أيديكم على امرأة ضعيفة سلبتموها حقها في الحياة وسلبتها الحياة القوة التي تستطيع أن تدافع بها عن نفسها. وكلما أرادت أن تصبح أقوى كسرتموها؛ لأنكم تعانون من عقدة النقص التي لا تجدون وسيلة في إكمالها إلا باضطهادكم للمرأة. العقدة التي رباكم عليها المجتمع والدين قبل ذلك. أنا لا أستطيع أن أنسى كل هذا الظلم.

بعد تفكير عميق قررت أن أذهب إلى المستشفى. اتصلت بصديقتي وطلبت منها أن توصلني. عندما رأتني الطبيبة وآثار الضرب على وجهي وعنقي صرخت:

- من الذي فعل هذا بك؟

سالت دمعة لا إرادية على وجهي.. بكيت. عندما رأتني أبكي خرجت ثم عادت بعد برهة. لعلها توقعتني سأحتاج فقط بضع دقائق ثم سأهدأ. هذه المرة لم تخرج وبقيت واقفة كأنها تطالع مشهدًا تمثيليًّا ثم ناولتني منديلًا. كأن هذا المنديل احتضنني وأشعرني بأن هنالك من يهتم لأمري.

حين رأتني قد هدأت وقل نحيبي، عاودت تسألني.

- هل أنت متزوجة؟

- لا

- من ضربك؟

- أخي

- نحن لسنا أطفالًا ليصل الأمر إلى هذا الفعل من أخ.. هل هذ الأخ متعلم؟

- نعم

- لا حول ولاقوة إلا بالله، المتعلم يفعل ما لا يفعله الجاهل.

- سأبلغ الشرطة.. يجب أن أفعل ذلك. لأنه يجب أن يُنظر في الموضوع. قد يطلب منه الإمضاء على تعهد لكيلا يكرر فعلته مرة أخرى.

- لا أريد أن أضره، وأخاف من العواقب.

- اذهبي واعملي أشعة للفك، ربما يوجد كسر. لأن وجهك متورم نتيجةالكدمات. هذه المنطقة خطيرة. هنا الأعصاب رقيقة وشديدة الحساسية.

- حسنًا.

وصلت لقسم الأشعة المرتبط بقسم الطوارئ. قام الفني المسؤول بعمل أشعة لوجهي وفكي ثم طلب مني الانتظار حتى يعطيني نسخة من النتيجة. جلست. ثم بدأت تمر الأحداث أمامي عيني بشكل سريع مستذكرة بغصة كل ماحدث.

- الآن أستطيع التحدث بعدما أرجعت كرامة عائلتنا. اختاري هل تريدين أن تكوني خارج طوعي وهذا يعني أن كل من في البيت وكل أفراد عائلتنا سيقفون ضدك، أم أنك تنفذين كل ما أقول من اليوم وصاعدًا؟

هو ملاك البيت وأنا الشيطان. تعود بين فترة وأخرى أن يلقي علي نصائحه الذكورية. أي قالب يجب عليه أن أكون. تعودوا أن ينفوا إرادتي؛ فأنا على حد تعبيرهم لست سوى «امرأة».

ناداني فني الأشعة وأعطاني صورة الأشعة. لم تكن لي الرغبة أن أطلع عليها؛ لأرى إذا ما كان هنالك كسر أو شرخ في فكي. حملتها ومشيت كمن يحمل الدنيا على كتفيه. انتظرت حتى خرج المريض من غرفة الطبيبة ودخلت. ناولتها الأشعة.

- لحسن الحظ لا يوجد هناك كسر كبير واضح فقط مجرد شرخ بسيط وسيلتئم مع الوقت. سأعطيك إبرة مهدئ وانتظري الشرطة قليلًا.

وصل شرطي بعد نصف ساعة من الانتظار تقريبًا. سألني ما الذي حدث. كنت غاضبة جدًّا ولكنني لم أستطع التعبير عن غضبي بالشتم أمام شخص غريب. ما زلت أرى كرامتهم من كرامتي، رغم أنهم، أخي وأبي، أقاموا علي حفلة من السب واللعن أيضًا.

- ضربني أخي الليلة الفائتة.

- ما سبب الخلاف؟

- كنت أتحدث إلى أحد أصدقائي، وعندما وصله أمر ما فعلت جاء ينصحني حسب تعبيره بأن فعلتي لا يقبلها الدين ولا يقبل بها المجتمع. فرددت عليه بكل هدوء رغم وقاحته في الحديث معي. مع العلم أنا أكبره في العمر قرابة 5 سنوات. ولأني لم أعترف بخطأي محاولة طلب صفحه، ضربني.

- هل تريدين رفع شكوى وفتح محضر لذلك؟

- ما أريده حقًّا هو ضمان عدم تعديه علي مرة أخرى.. لا أريد غير ذلك. لكني خائفة من العواقب.

- إذن يجب أن تقومي بفتح محضر للدعوى في المخفر.

وبعدما علمت الضابطة المسؤولة عن المركز بقصتي طلبت مني ألا أتنازل عن الدعوى لبضعة أيام، ليتأدب أخي ولا يحاول إيذائي مرة أخرى. ولكني لم أقوَ على المقاومة أكثر من يومين، حيث استغل أخي صمت والديّ

كمساندة غير مباشرة لكل ما يقوم به وهددني بالطرد من المنزل. في الحقيقة لم أكن أخاف الطرد من المنزل ولكن خفت على والدي أن يسبب قرار خروجي صدمة أخرى بعد صدمة قرار الشكوى الذي اتخذته. كانت صدمة قراري لا توصف رأيتها في عيون والدي. خفت عليه.

بعد هذا الموقف تعلمت درسًا كان علي أن أدركه منذ سنوات. الاحترام يجب أن ينتزع بالقوة إذا لم يأت بكل حب. نعم أنا انتزعت احترامه لي بالقوة كما نزع هو كرامتي وأهانني بالقوة أمام أفراد جميع عائلتي. جميعهم شاركوا في ضربي وإهانتي بصمتهم. لكن الدرس الأهم الذي تعلمته، أن جميع الناس بعد معرفتهم وقربهم منك تعاملك بالطريقة التي أنت رسمتها في أذهانهم. أنا من سمحت له أن يضربني عندما سمحت له أن يصرخ في وجهي أول مرة منذ سنوات.

لا يزال الألم في فكي يجعلني غير قادرة على تناول الطعام ولا الضحك ولا حتى بلع ريقي. مؤلم ألّا تستطيع الاستمتاع بأقل ملذات الحياة وهو الطعام. بقيت قرابة أسبوعين أو أكثر قليلًا جائعة في أغلب أوقاتي؛ لأني لا أستطيع إلا أن أتناول السوائل والطعام المهروس. حتى النوم كان يحتاج الكثير من الإغراء لكي يقبل.. العديد من المسكنات أحتاجها كل ليلة؛ فالوجع يكون أكثر نشاطًا بالليل. أحيانًا كنت أستيقظ من شدة الألم الذي يختلجني. مع مرور الأيام بدأت أتعايش مع ألم فكي لكنني لم أستطع أن أفعل المثل مع الألم الذي كان يعتصر كبريائي.

توقف بقية إخوتي عن الحديث معي واعتزلوني إيمانًا منهم بأني ارتكبت فاحشة وجريمة أقذر من جريمة صمتهم وموافقتهم للاعتداء علي بالضرب والشتم. كان الأمر صادمًا ومؤلمًا بالنسبة لي في البداية.. لم أضرهم بشيء. ما آلمني أكثر هو تحيز أخواتي مع أخي!

كنت أتنقل في البيت وكل الوجوه من حولي إما واجمة وإما عابسة. تساءلت حينها.. ماذا يبقيني في هذا البيت، ما الذي يدعوني على تحمل كل هذا السيل من الإهانات. لا رغبة لدي برؤيتهم. لم أخطئ أخلاقيًّا في حق أي منهم ولكنهم أخطؤوا في حقي كثيرًا حين لم يكن لديّ «أهل» على حد تعبير الشرطي؛ ليدافعوا عن كرامتي المهدورة. إن هذا المجتمع الذي يقدس الذكور؛ لأنهم ذكور فقط هو نفسه المجتمع الذي يربي كل أنواع التخلف. لا يوجد فرق بين الأمرين؛ فكل تخلف سنجده يتغذى بشكل أساسي من تعصب لفكرة ما.

***

حادثة الضرب لم تمض كحدث هامشي مر علي. لعلي لو تعرضت لنفس الحادثة قبل سنة من الآن لسكنت واستسلمت ونسيت الأمر مع الوقت. بدأت أفكر بعدة حلول للابتعاد عن البيت بأي طريقة. فكرت في الزواج لكن استبعدت الفكرة فيما بعد نهائيًّا. ثم وقع أمري في إكمال دراستي العليا خارج الدولة. بعد مضي تقريبًا شهرين عزمت الأمر وأخبرت أمي.

ومرة أخرى تتم مقاطعتي في البيت؛ لأنني فقط أردت إكمال دراستي في الخارج. يا ترى لو كان أخي هو من أراد ذلك هل سيواجه كل هذا الرفض وعدم الرضى الذي واجهته. أجزم لا أحد سيرفض أو حتى سيفكر في الرفض. بل بالعكس سينظر للأمر أنه إنجاز لو تحقق ذلك. لماذا يرفض المجتمع أن يعطيني نفس الحق الذي يمنحه للذكر؟ لماذا يرفضون أن أشق طريقي كما أريد أنا وليس كما يريدون؟

أمي كانت أولى النساء وأكثرهن عداء لحريتي بعد أخي، في الوقت

الذي كنت أحتاج فيه لدعمها. يا إلهي لماذا خلقتني امرأة في عالم لا يؤمن بي؟ كل هذا العداء الذي ألم بي؛ لأنني كنت أدافع عن حريتي.. عن خياراتي في الحياة.. عن الكلمة التي أؤمن بها.. عن الكلمة التي يرددها كل مواطن على أرض بلدي ولا يجرؤ أن ينطق بها.

كل هذ العداء لأن جهاز الاستخبارات الملكي حقق معي يومًا ما؛ ونجحوا في تعبئة رأس أخي بالأكاذيب وقصص الشرف والأخلاق الزائفة. أرادوه أن يكون وصيًّا علي، منحوه شرعية أخرى ليمارس استبداده علي فوق الشرعية التي منحها له المجتمع كونه ذكرًا. لا أشك بأنهم الآن سعداء جدًّا؛ لأنه كان مغفلًا واستطاعوا السيطرة عليه.. يعني أيضًا السيطرة على قرار كل أفراد أسرتي.

في خضم الصراع مع أهلي حول موضوع دراستي، أصرت حادثة الضرب ألا تمضي بسهولة. أصرت أن تحفر في جسدي بشكل أعمق. بدأ تظهر معي أعراض مختلفه من ألم الرأس. بدأت عيني اليمنى تؤلمني أكثر، ومجال الرؤية بدأ يصبح ضبابيًّا أكثر، ورأسي بات أكثر ثقلًا يومًا بعد يوم.

قررت رؤية الطبيب مجددًا واتصلت بصديقتي. وحين وصلت إلى قسم الطوارئ، صادفت ذات الطبيبة التي عالجتني سابقًا ورحبت بي وسألتني عن حالتي فشكوت لها مشكلة الصداع المزمن الذي ظهر فجأة.

- هل عانيت من غثيان يصاحبه تقيؤ الفترة الماضية؟

- لا

- حسنًا، افتحي زيارة وتعالي إلى غرفة الفحص.

وبعد أن فحصت عيناي، لم تعلم ما السبب ولكنها سألتني إذا تعرضت

لضربة أخرى في نفس المكان.

- لا

ثم بعد تفكير قلت لها: لقد تذكرت، تعرضت لحادث سير منذ عدة أشهر وأصبت في رأسي ولكن لم أتلق أي علاج.

فورالانتهاء من جملتي، جحظت عينا الطبيبة وأردفت قائلة:

- نحتاج إلى عمل أشعة مقطعية بأسرع وقت ممكن.

لم أفهم لماذا ولم أسأل.. وافقت مباشرة.

ذهبت إلى قسم الأشعة وقال لي الفني بأنه علي الانتظار ربما لساعتين أو أكثر حيث توجد في قائمة الانتظار حالات مستعجلة أكثر مني. تفهمت الأمر وجلست على كراسي الانتظار وأنا في داخلي أشتم ذلك المجتمع الذي أتيت منه. أصبح الشتم لا يفارق لساني. لا ذنب لي قد اقترفته. كل ما أردته أن أسترجع إنسانيتي التي سلبها المجتمع مني. أنتم أحرار في بقائكم مقيدين بأغلال العادات والتقاليد، بأغلال الدين، بأغلال اللباقة، بأغلال الذكورية، لكن اتركوني أتحرر.

استيقظت من بحر أفكاري حين ناداني الفني للتجهز للأشعة. لا أذكر كم أمضيت من الوقت وأنا غارقة في التفكير. انتهيت من الأشعة وعدت إلى الطبيبة.

بدأت تطرق بأصابعها على الجهاز؛ لترى الأشعة وتدقق فيها. وبعد تنهيدة طويلة:

- يوجد تجمع للدماء على قشرة المخ، يجب أن نحولك إلى أقرب مستشفى به تخصص للأعصاب، ربما تحتاجين إجراء عملية جراحية

سريعة.

صُدمت من الخبر. هل فعلًا كل هذا يحدث لي.. لماذا؟! لم أنطق بشيء حينها. ظلت عيناي معلقتين على الأشعة أمامي.. على المساحة الداكنة التي أشارت عليها الطبيبة. لم أبك ولم تنزل حتى دمعة واحدة كأن قنوات الدموع تجمدت من أثر الخبر.

استمرت الطبيبة تحدثني بالأعراض المحتملة في قادم الأيام وكيف أتعامل معها وكل ما علي أن أفعله لكي أقلل الأعراض وأثرها، لكن ما زالت عيني معلقة هناك حيث البقعة الداكنة.

***

وصلت البيت واتجهت إلى سريري مباشرة. استلقيت على سريري وفي قلبي مشاعر مختلطة لا يمكن وصفها.. بدأت أسترجع الكثير من تفاصيل حياتي. حاولت أن أهرب عن الواقع لكني لم أستطع. ترجيت النوم أن يهزم تلك المشاعر والأفكار لكنه كان أضعف من أن يتمكن من ذلك.

آآآه إنني منهكة يا رفيقي.. أريد الموت. تجاوزت الكثير من الطعنات ولا أزال أتحمل وأتحمل. لكن إلى متى؟ وإذا استطعت أن أتجاوز كل ما حل بكرامتي لكن هل روحي سترضى أن تبقى في هذا الجسد المنهك؟ أغمضت عينيّ وساحت دموعي على خدي. كانت ساخنة جدًّا شعرت بها وهي تلسع وجنتي. صرخت في وحدتي عاليًا ثم انهرت بالبكاء. بكيت حتى بللت المياه المالحة فراشي. أحتاجك، مشتاقة إليك. أريد في هذه اللحظة أن أشعر براحة يديك على ظهري لتنتشلني من ألمي لحضنك.

نمت وأنا أهذي وبعد ربع ساعة استيقظت فجأة من الألم الذي عاودني مجددًا. يا إلهي ما الذي يمكن أن أفعله؛ ليخفف عني هذا الألم. إنه يكاد يقتلع دماغي من مكانه. حتى قلبي لم يعد طبيعيًّا، أشعر به يسابق الثواني بشكل أسرع من ذي قبل؟ ما أصعب عندما يتجمع ألم الجسد واحتضار الروح وانكسار الكرامة.

ذهبت إلى موعدي في اليوم التالي بعد مقابلتي الطبيبة رغم توصيات الطبيبة لي أن أذهب حال خروجي من عيادتها مباشرة، ولكني لم أستطع الذهاب نتيجة الصدمة. كذلك لا أملك سيارة توصلني فصديقتي التي أتت بي إلى المستشفى ذهبت إلى عملها. ولم أكن لأغامر بالذهاب إلى هناك بسيارة الأجرة وحيدة في بلد يلتهمك؛ لأنك أنثى.

سمحوا لي أن أدخل على الطبيب المختص بالأعصاب مباشرة. غضب لأنني لم آت بالأمس وأكد أن حالتي لا تحتمل هذا الإهمال مني. لذت بالصمت على إجابة سؤاله، واستمر هو في التعبير عن نصائحه. بعد أن انتهى من الاطلاع على تفاصيل حالتي، سألني كيف هي الأعراض الآن؟

- لا زلت أشعر بالثقل في رأسي، ولكن توقف التقيؤ بالأمس. ربما لأنني لم أغادر سريري ولم آكل أي شيء.

- ولمَ ذلك؟

- لا رغبة لي.

- حسنًا، يبدو أن النزيف بطيء ولكنه مستمر وخطير جدًّا. لكني أرى شيئًا غريبًا في الأشعة. يبدو أن هناك أيضًا ورما لكنه صغير لا داعي للخوف... أعتقد أنه يجب علينا أن نوقف النزيف في أسرع

وقت ممكن لكيلا تتفاقم حالتك أكثر. تحتاجين إلى عملية عاجلة. لكن سنحتاج عمل فحوصات أدق لتقدير حجم الورم ونوعه وإذا كان بالإمكان استئصاله في نفس العملية.. اليوم يجب أن تنامي هنا لعمل بقية الفحوصات وتجهيزك للعملية.

كدت أن أبكي. تزاحمت المشاعر في فكري واضطرب وجداني. هل سأصحو بعد هذه العملية أم لا.. لا أعلم. أتتني رغبة بعدم إطلاع عائلتي بالأمر إطلاقًا. عاد لي شعور الغثيان. لاحظ الطبيب دموعي وهي تسيل على خدي دون أن أشعر بنزولها.

- لا تخافي ستكونين بخير.

أومأت برأسي بالموافقة، وابتسم لي ابتسامة أوقفت سيلان دموعي.

أرسلت أخبر صديقي وحبيبي عما جرى. أيها المخلوق الذي تعثر بي وتعثرت به. يا وطني إنني لا أعلم إن كنت ستسمع صوتي بعد هذا اليوم. أمنيتي الآن أن أراك ولو مرة واحدة، ثم تحتضنني وأغمض عيني إلى الأبد. هل سأقول لك بعد هذه الليلة: تصبح وقلبك وطن.

تفاجأ جدًّا. شعر بالحزن ألف مرة وبالندم أضعاف المرات. كان يشعر أنه السبب فيما حدث. طمأنته.

- سوف أكون بخير لا تقلق. تذكر ليست لك علاقة إطلاقًا بكل ما حدث لي.

ثم أخبرت عائلتي. تذكرت وجه أمي وأبي. تساءلت حينها: لو مت ماذا ستكون ردة فعلهما؟ هل ممكن أن يختلجهما شعور، حتى لو كان عابرًا، بالراحة لموتي؟

5

سأقولها صراحة. ممَّ أخاف وأنا في ساعاتي الأخيرة أودع هذه الحياة البائسة. لعلي احتاج أن أصرح عن موقفي الديني بكل شجاعة. عن رؤيتي للإسلام الذي يكبل تقدمنا وتطورنا. لا أتوقع أن هنالك خيارًا آخر عند المسلمين بخصوص حقيقة الإسلام وصورته النمطية اليوم، فإما أن يتمسكوا بموقفهم بأن الإسلام دين محبة وسلام وتسامح وهذا يوجب عليهم منطقيًّا وعمليًّا تنقية السيرة النبوية من كل ما هو مخالف لطبيعة هذا الاعتقاد، وتوقيف العمل بالنصوص المقدسة التي تدعو لغير ذلك سواء كانت في السنة أو القرآن بحجة أنها أحكام توقيفية كانت صالحة لزمن وظروف معينة فقط ولم تعد كذلك.

وإما أن يعترفوا أن الإسلام مثله مثل المسيحية واليهودية في جوهره، ومثلما توجد هنالك نصوص متناقضة في العهد القديم والجديد بعضها يدعو إلى التسامح والمحبة؛ فكذلك هناك نصوص أخرى تحرض على كراهية الآخر المختلف وتدعو أحيانًا إلى قتله. وهنا يتوجب عليهم فعل ما فعله مصلحو وفلاسفة التنوير من دفع هذه النصوص إلى التأويل بما يتوافق مع تطور منظومة الأخلاق العالمية.

وردة الفعل، التي أصبحت مشمئزة بعد كل حادثة إرهابية يقوم بها شخص مرتبط بالإسلام سواء كان تنظيميًّا أو دينيًّا عن طريق ترديد عبارة مبتذلة وفيها تهرب عن الواقع وعدم مبالاة بدم الإنسان وأعني عبارة «هذا الإرهابي أو هذا الفعل الإرهابي لا يمثلنا»، لم تعد كافية ولن تقدم حلولًا

جذرية بل مجرد تهرب غير واعٍ عن أصل المشكلة.

وأنا لا أنكر أن هناك أسبابًا أخرى للإرهاب، وهناك أنواع كثيرة للإرهاب، وهناك كذلك استغلال من قوى كبرى عن طريق أجهزتها الاستخبارية لتأويلات الإسلام المتطرفة الراديكالية لصالح أجندتها الإمبريالية. وقد فصلت حول هذا الموضوع في مقالين طويلين في آخر فترة من حياتي قبل انتكاستي أو لعل صعودي إلى العبثية أوالعدمية، أو كليهما.. لا أدري. المقال الأول كان بعنوان: «قراءة: داعش بين الواقعية الكوسموبوليتية والتنظير الإسلاموي اليوتوبي»، والمقال الثاني بعنوان: «قراءة: الإرهاب بين الإسلاموفوبيا والغربفوبيا» وتعرضت بسببهما للكثير من السباب والتهديد والتكفير.

بكل صراحة استمرار الإسلام بشكله القديم الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنًا لن يؤدي بنا إلا إلى طرق نحن لا نريدها ولن يقبلها العالم منا، سواء على مستوى علاقتنا بالآخر أو حتى على مستوى نظرتنا لأنفسنا بين الأمم.

***

داعش بين الواقعية الكوسموبوليتية والتنظير الإسلاموي اليوتوبي

مقدمة

في البداية قبل الخوض في القضية التي أود عرضها، أرى من الواجب علي توضيح بعض النقاط بسبب حساسية الموضوع على الفرد المسلم. حيث

تعود الفرد المسلم على قراءة وسماع كل ما هو جميل وبراق عن الإسلام ونفي كل ما هو مسيء له. أيضا بدون شك بسبب ترسخ نظرية المؤامرة في أذهان معظم المسلمين، حتى أصبحوا شديدي الحساسية من كل ما هو يحمل طابع النقد ولو أتى من الداخل. وسيكون هذا بمثابة اتفاق أولي بيني وبين القارئ. وكما يتضح من العنوان، استخدمت مصطلح «الإسلاموي» بدل الإسلامي للتفريق والتمييز بين الأيدلوجيات الإسلاموية التي يتبناها خط الإسلامسياسي والدين الإسلامي. وليس الهدف هنا التقليل من شأن وقيمة الدين الإسلامي بشكل مطلق. في الحقيقة هذا ما ينادي به الكثير من المسلمين عندما يحاولون التأكيد بعدم الخلط بين حقيقة الدين الصحيح ومنتسبيه من الجماعات الإرهابية الإسلاموية بشكل خاص والإسلام السياسي بشكل عام، كما يصرحون.

وهذا المقال ليس غرضه نفي أو تأكيد وجود التطرف في الأديان والطوائف الأخرى. وليس غرضه أيضًا نفي أو تأكيد وجود أجندات استخباراتية خلف أي حادثة إرهابية، وحتى خلف ولادة أي مكون إرهابي إسلاموي. لأن كلا السياقين بعيد كل البعد عن قضيتنا الداخلية المحورية. فنقد الأول لا يعالج إشكالياتنا. ومناقشة الثاني والاستسلام لفكرة وجود المؤامرة على الإسلام والدول العربية ما هو إلا إلهاء يبعدنا عن أصل المشكلة. بيد، لو افترضنا جدلًا وتجاوزًا، أن كل عمل إرهابي خلفه مخطط استخباراتي، لا بد من وجود مفاتيح خاصة تُستخدم لفتح أبواب تلك الأجندة. وإحدى هذه المفاتيح «التطرف الإسلاموي».

وبعيدًا عن التعميم دون شك، التحرر من الثنائية في نسق التفكير والأحادية المتطرفة في تبني المواقف وإطلاق الأحكام التي لها علاقة بالتنشئة وأساليب التربية والتعليم منذ الصغر، سواء كان في البيت أو المدرسة، يحتاجه

البعض. وهذا ما لاحظته في مواقع التواصل الاجتماعي بعد التفجيرات الأخيرة في باريس. حيث للأسف سقط هذا «البعض» في مستنقع الثنائية والتحزب على مستوى قطبين، «هم» و«نحن». وبدل النظر للموضوع من جانب إنساني بسيط أخذ كلا الفريقين التطرف في أحاديته وتشكيل مواقف وإطلاق أحكام بها الكثير من التعميم. هذه الأحادية تجاوزت حتى موضوع إقصاء الآخر في زاوية معينة ضيقة، فتجدهم يملكون أحادية خطية في مسار معين لا يتنازلون عنها حتى لو كلفتهم التنازل عن مبادئهم وشعاراتهم. ومع هذا أعتقد أن الجميع كان يقول الصواب بنسب متفاوته، لأن هذه هي طبيعة الحقيقة، مثلها مثل ألوان الطيف، قدر ما نراها متمايزة، تبقى متدرجة ومتصلة.

وبعد ذلك الخلاف أو الاختلاف، يعتمد على شخص المحاور، الذي حدث في مواقع التواصل الاجتماعي، سنحاول المقاربة وتحديد أهم منابع التطرف الإسلاموي من وجهة نظر شخصية، تحتمل الخطأ.

ما هي داعش؟ من هو الشخص الداعشي حسب التوصيف الجديد إعلاميًّا للإرهابي المتأسلم، أو المنتسب للإسلام كما يفضل البعض من المسلمين التوصيف؟ أرى أنه كائن مشوه بعقد نفسية جاءت نتيجة عدة عوامل مرتبطة لا يمكن فصلها عن بعض. هذه العقد تدفع بصاحبها لأخذ منحى انفعاليًّا لاشعوريًّا للقيام بتصرفات غير واعية باتجاه الأسباب المكونة والمولدة لتلك العقد. وأرى أن جميع التنظيمات الإسلاموية التي ظهرت بعد الصحوة الإسلاموية تشترك في المكون نفسه. جميع منابعها متشابهة والتي يمكن حصرها في أربعة أسباب رئيسة:1 - استبداد حكام العرب (الاستبداد الداخلي)، 2 - استبداد الغرب على الشرق (الاستبداد الخارجي)، 3 - طموحات عودة الخلافة الإسلامية المقدسة المزعومة، 4 -

الموروث الدموي في كتب التاريخ والسنة (والقرآن حسب فهم بعض الفرق الإسلامية). وطبيعة هذه الأسباب المكونة لظاهرة داعش المتداخلة مع بعضها التي يصعب فصلها سواء على مستوى التشخيص أو العلاج، سينعكس على طبيعة المقال كما سيلاحظ القارئ.

بين الواقع الكوسموبوليتي والتنظير الإسلاموي اليوتوبي

أليس الواقع يقول إن أوروبا لم تنهض حتى ظهرت المدراس الفكرية التي تجرأت وانتقدت الكتاب المقدس، العهد القديم والجديد، والكتب التاريخية المقدسة الأخرى، نقدًا تاريخيًّا وفيلولوجيًّا؟! ورغم العواقب الكارثية التي صاحبت ذلك الخطاب على متبنيه، إلا أن تلك الصدمة آتت أكلها مع الزمن وأفرزت مدارس فكرية تنويرية أكثر إنسانية وأكثر مدنية وعلمانية وعالمية، وانعكس فيما بعد على المستوى العقل الجمعي؛ فوصل المجتمع لمرحلة الإيمان والاقتناع بحرية التعددية الدينية والمذهبية التي سبقت مرحلة ترسخ التعددية السياسية والمشاركة الديموقراطية.

ولهذا لا نتعجب لماذا لم تنجح الديموقراطية والنظم التي تدعي العلمانية في الأوطان العربية، بل في الحقيقة أدت إلى كوارث وتخلف وتراجع أكبر، على خلاف الملكيات التي سبقتها التي صنعت نوعًا من النهضة على المستوى الحياتي على أقل تقدير، لو أخذنا على سبيل المثال الحالة المصرية آنذاك، وكانت من إحدى إيجابيات الاستعمار البريطاني الذي أتى -رغم أطماعه الرأسمالية- بمنهجية فكرية أكثر تمدنًا كنتيجة طبيعية -كما أراها- لذلك المشروع التنويري الذي تربت عليه الأجيال في بريطانيا وبقية دول أوروبا الغربية.

وهنا يجب الإشارة إلى نقطة مهمة، ليس للتنوير علاقة بتلك الأطماع الاستعمارية كما يحاول بعض المنظرين الإسلامويين الطعن واهمين بأن هذا النوع من الطرح سيخدمهم وسيقربهم أكثر من حلمهم في مشروع الدولة الإسلامية. فالكثير يحاول أن يقف حجر عثرة أمام أي مشروع تنويري إسلامي بحجة أن التنوير لم يأت إلا بالاستعمار وكان سببًا رئيسًا للحروب العالمية. مع العلم أن جل ما يحيط بهم من إنجازات على جميع الأصعدة، سواء على المستوى العلمي أو الاجتماعي، ما هو إلا نتيجة لمشروع التنوير وما تلاها بعد ذلك من مشاريع. وهذا الإنجاز يكفي شرفًا لمؤسسي فلسفته لمن يريد أن يكون منصفًا أولًا، والاعتراف برغبة الاستفادة ثانيًا؛ فليست هناك علاقة نهائيًّا بين ما طرحه مؤسسو التنوير والأطماع الاستعمارية وما تلاها من حروب، التي أتت كنتيجة طبيعية لحكم القوي على الضعيف، القانون الواقعي الذي يسود العالم.

وهذا القانون أيضًا يجب أن تفهمه الشعوب العربية لكيلا تستغفل من قبل مستبديها، بنظرية المؤامرة وتشغلهم عن المطالبة بحقوقهم، بحجة حماية أمنهم وثرواتهم من المتربّصين. لأن الواقع يقول ما زال العربي/ المسلم يعيش خدعة المؤامرة الكونية التي يصورها الإعلام العربي الحكومي في أشكال ووسائل مختلفة من البروبجاندا، كأحد وسائل الإلهاء عن القضايا الكبرى الداخلية، والتجييش نحو فكرة وهمية غير موجودة واقعيًّا إلا في عقل مدبريها. وأرى أن الواقع العملي جدًّا مختلف؛ فقانون الغاب هو سيد الواقع، والدول القوية عتادًا واقتصادًا تسيطر بشكل مباشر وغير مباشر بالدول الأخرى الأضعف، وتبحث عن مصالحها حتى خارج حدودها الجغرافية، وحتى لو أدى ذلك إلى انتهاك سيادة وحرمة الآخر من الدول والأمثلة كثيرة والتاريخ يشهد. وآخر مثال على ذلك لو تناولنا الجانب الإعلامي من حقيقة

الواقع، مدى النفاق الذي تعاني منه الوسائل الإعلامية الغربية نحو القضايا العربية والإسلامية! وهذا ما انتقده الكثير من المتابعين في مواقع التواصل، لكن هل هذا يعطينا الحق إنسانيًّا أن نصرح بكل سهولة ورضى: هذا ما اقترفته أيديهم، يأكلون مما زرعوا!

لذا عمليًّا، بدل تجييش الشعب نحو فكرة وهمية ليبقى أسيرًا لها، لتأخذ السلطة راحتها متزعمة ذلك الشعب تحت وطأة الاستبداد وغياب العدالة الاجتماعية والرؤية الاقتصادية بحجة الممانعة والتصدي للمؤامرة، على الدولة الضعيفة أن تقوي نفسها من الداخل؛ فتعزيز فكرة المواطنة وقوة التعليم والإعلام وانتشار العدالة الاجتماعية ووجود رؤية اقتصادية هو أفضل دفاع وحماية لأي دولة من أي عدو متربص.

نظرية المؤامرة سمعناها اليوم، وبالأمس أيضًا، في تفجيرات إحدى دور الجوار. ورغم أني لا أبرئ ساحة داعش أو إيران أو أي عمل استخباراتي آخر بالمطلق، وأقول بدون شك هناك احتمالات في ضلوعهما في التفجيرات. لكن في ذات الوقت، لولا وجود الأرض الخصبة لانتشار مثل هذه الأفكار الطائفية والإرهابية العفنة؛ لما استطاع العدو الخارجي بسهولة أن يتوغل بين نسيج الدولة، هذا لو افترضنا أن هناك عدوًّا خارجيًّا. من ينكر اللهجة التكفيرية الدونية التي يتبناها كل، وتجاوزًا سأزعم هناك استثناءات، مشائخ الوهابية السلفية ضد مواطنين يحملون الجنسية نفسها والحقوق ذاتها، المواطنين الشيعة، أو الروافض كما يحلو لمشايخ الوهبية تسميتهم!

لذا في كل الاحتمالات الثلاثة الواردة فيمن يقف خلف هذه التفجيرات، وأعني هنا: إرهاب شيعي، إرهاب داعشي، إرهاب آخر، يعود سببها جميعا هي المدرسة الوهابية التي أنتجت كل هذا الحقد الداخلي والعفن الطائفي، وفرخت عناصر داعش وقبلها القاعدة وطالبان وغيرها الكثير من النباتات

السامة. وبسببها أيضًا، تبنت موقف العداء المتطرف من الدولة الإيرانية الصفوية، التي طبعًا لا أبرئ ساحتها أيضًا في مساهمتها في هذا الخلاف الطائفي المقرف، وهذا السرطان الذي لم يذهب ضحيته إلا الإنسان المواطن. وكلي أمل ورجاء أن تذهب بسببه العروش المستبدة والعمائم والبشوت غير الإنسانية قريبًا، ليأكلوا ما صنعت أَيديهِم وعقولهم المسكينة المريضة.

أيضًا من الأمثلة المهمة على الاستبداد الداخلي والخارجي في آن واحد، ما حدث في العراق بعد سقوط بغداد. استبداد الحكومة العراقية الشيعية المدعومة من إيران على المكون السني العراقي. أيضًا، لا يمكن أن نتجاهل ما قامت به أمريكا من عبث واستهتار عن طريق احتلال غاشم الذي ساعد مع الأول بتشكيل داعش بشكل مباشر كردة فعل نفسية تغذيها أفكار دينية متطرفة. وكلنا يعلم أن النسيج الذي تتكون منه التنظيمات المتطرفة مثل داعش والقاعدة وغيرها الكثير من التنظيمات هو من الطائفة السنية الوهابية أو المتأثرة بشكل كبير بهذا الفكر. داعش والوهابية وجهان لعملة واحدة، الوهابية الجانب التنظيري، وداعش الجانب التطبيقي.

نقترب إلى المحلي لنستخدمه كمقياس للتأكد من صحة ذلك الادعاء. ألم نسمع عن المواطنين الذين غرر بهم وذهبوا للجهاد إلى أفغانستان وسوريا ولبنان. البعض منهم قتل، والبعض منهم ما زال موجودًا على أرض الجهاد، كما يؤمنون، أو رغمًا عنهم بعد معرفتهم لحقيقة خدعة الجهاد، والبعض الآخر تمكن من الفرار والرجوع إلى أرض الوطن وهم يشكرون الرب على تمكنهم من الفرار! هل نعلم أن الغالبية العظمى إذا لم يكن جميعم من ذهبوا للجهاد يقطنون جغرافيًّا محافظة الساحل -محافظة الساحل متأثرة أكثر من غيرها بالفكر الوهابي- ومتأثرون بشكل مباشر بالفكر الوهابي إما عن طريق أحد أقاربهم أو أصدقائهم من المتشددين وإما بدروس مباشرة في حلقات التطرف

والتشدد وغسيل المخ في دولة الزواج الشيطاني وانتشى بالفكر الوهابي! وإذا كانت هناك حالات تختلف فهي شاذة جدًّا.

السؤال لماذا الفكر الوهابي دون غيره؟ هل حقًّا الفكر الوهابي يختلف عن غيره من المذاهب والعقائد فكريًّا؟! وعلى الرغم أن معظم المسلمين يشتركون في الموروث الديني نفسه تقريبًا إلا أن أيًّا من المذاهب لم يُؤصل للدم والتطرف كما فعل الفكر الوهابي والسلفي. فنواقض الإسلام العشرة لمحمد عبدالوهاب وأيديولوجيته، والحاكمية لله لأبي الأعلى المودوي، وعقيدة الولاء والبراء تؤصل للتطرف وإسالة الدماء بقلب بارد تطبيقًا للدين كما يعتقدون. مع العلم أن جميع استدلالاتهم من القرآن! جميعها نبتات سامة جارحة في التراث الإسلامي ساهمت في تأطير وترسيخ شرعية إباحة الدماء وظهور الجماعات المتطرفة.

وما زاد الطين بلة وأسهم أكثر في تخلف الدول العربية الزاعمة للديموقراطية. الصحوة الإسلامية التي صاحبت قيام الدول الديموقراطية الزائفة، وأعني هنا بالزائفة أنها اختزلت الفكر الديموقراطي في صندوق أجوف يجر الناس له جرًّا لتلقيمه أصواتهم، وهذا بخلاف الخلفية التاريخية لولادة مفهوم الديموقراطية كما ذكرت أعلاه. حيث أسهمت الصحوة الإسلاموية في عودة الفكر الكهنوتي القروسطي من جديد، الذي يدعي الحقيقة الدوغمائية المطلقة ومحاربة خيارات التعددية الدينية والمذهبية، والمشروع الوطني ومحاولة الاستبدال به نظامًا قديمًا عليه أكثر مما له وهو دولة الخلافة الإسلاموية أو دولة الرب بالمعنى الحرفي الدقيق. رغم أن فكرة تأسيس دولة إسلاموية ينافي فكرة العالمية التي تذكرها الأدبيات الإسلامية أنها من أهم مميزات الرسالة المحمدية. حيث لا يمكن أن تكون عالمية إلا إذا توافقت مع الطبيعة البشرية القائمة على التدافع والديناميكية الاجتماعية

بسبب الاختلاف والتعددية الذي ينتج عنه التطور الحضاري. والتوافق هذا يدفعنا للإيمان والتسليم بوجود الفهم المتباين والمتنوع للرسالة. وفكرة الدولة الإسلاموية تنافي مبدأ العالمية التي ستنحصر في ثالوث الزمان والمكان والفهم الواحد.

ولهذا ليس من المستغرب أبدًا عندما نسمع خطيبًا على منبر صلاة جمعة، في دولة غربية احتضنته وأنفقت عليه ووفرت له الأمان وسمحت له في بناء منبره وممارسة شعائره بكل أريحية وأعطته مساحة من الحرية لا يحلم بربع ربعها في بلده الأصلي، يقول: «نحن في دار كفر»، رغم الحياة الديموقراطية والعلمانية والتعددية الدينية والسياسية التي تحيط به وينعم به من خيراتها! وكم شاهدنا في التلفاز سابقًا من احتجاجات واعتصامات تحمل الطابع الإسلاموي الأصولي نفسه في دول غربية أيضًا، يطالبون فيها بتطبيق شرع الله وتكفير الدولة التي آوتهم وسمحت لهم بذلك الاحتجاج! رغم أن النظام العلماني يكاد يكون أعظم أو من أعظم على أقل تقدير ما أوجدته البشرية. لأن التاريخ يحكي لم تكن هناك حضارة من قبل شهدت هذا التنوع العرقي والديني والطائفي والطبقي مثلما تتكون منه الدول المتحضرة المتقدمة العلمانية. وبرغم كل هذا الحجم من الاختلاف والتعددية يعيش الجميع بسلام مع الحفاظ على اختلافاتهم بحماية الدولة وقوانينها وهو التشريع البشري أو بمعنى آخر الحاكمية البشرية.

أعود للحاضر القريب من بوابة تونس لطرح تساؤل حول أسباب نجاح الربيع العربي بشكل أكبر وأقل خسائر في الأرواح وماديًّا، في تونس أكثر من غيرها من الدول العربية الأخرى التي مرت بالظروف نفسها. لا يوجد شيء يأتي من فراغ؛ فأي باحث مبتدئ يستطيع بشكل واضح أن يلاحظ أن المجتمع التونسي مختلف جدًّا على سبيل المثال عن المجتمع المصري والليبي،

من حيث نوع التعليم وفي نسبة تفشي الأمية القديمة، القراءة والكتابة، واحتكاكهم بالحضارة الغربية. والأهم والواضح مدى عقلانية حركاتهم الإسلاموية تقريبًا. فلو قارنا على سبيل المثال بين إخوان مصر وإخوان تونس فسنجد هناك بونًا شاسعًا فكريًّا وسياسيًّا. فعلى مستوى المجتمع نجد رجل الشارع المصري والليبي محاصرًا بالفكر السلفي حتى في معاملاته اليومية، بيد أن المجتمع التونسي نجده في الغالب مجتمعًا منفتحًا ويميل للعلمانية أو المدنية في نسق التفكير. وهذا انعكس على مستوى مشاريعهم الإسلاموية التي تميل بشكل كبير للعقلانية وعلمانية النهج. وهذا الواقع التونسي مهد بشكل أكبر لنجاح تجربتهم وحصولهم مؤخرًا على جائزة نوبل للسلام.

أليس هذا الواقع التونسي كافيًا ليؤكد مدى الحاجة لوجود فكر ديني متجدد يلامس متطلبات الواقع ومواكب لركب التطور البشري خاصة على مستوى العقد الاجتماعي؟! وفي الحقيقة لا أنكر أنه ما زال المشوار طويلا أمام تونس. وكما يقول التاريخ، ليس من الضرورة أن يستمر التقدم على مستوى ثابت متصاعد، سيكون هناك تراجع أحيانًا للخلف ثم الانطلاق مرة أخرى للأمام.

هذا بخلاف المشاريع الإسلاموية أو الإسلامسياسية الأخرى التي فشلت بالنهوض بعالمنا المتخلف للحاق بركب الحضارة. وهذا يعود لسبب واحد رئيس فقط هو أن كل هذه المشاريع لا تحاول علاج أصل المشكلة في الحقيقة، بل تعمد إلى العكس، في تأسيس وتأصيل فكر أعمى متخبط لا يرى أصل المشكلة، فكر يسور أصل المشكلة بجدران من التقديس. حقيقتها المطلقة الوحيدة أن الأتباع يرثون المقدس، ويقدسون الموروث، ويورّثون المقدس، كحقائق مطلقة. متجاهلين أن مرحلة بناء أي فكر جديد يلامس حاجات الواقع تسبقه مرحلة التفكيك والنقد والهدم لجميع الركائز الفكرية

المكونة للعقل الجمعي بلا استثناء، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة البناء.

وهذا يدعونا لتبني – بوضوح – موقف الحاجة الملحة للنقد التاريخي والفيلولوجي الذي يطبق على القرآن قبل الحديث والسيرة النبويّة والتفاسير، بحكم أنه المصدر الأول للتشريع الذي يحمل طابعًا قطعي الثبوت عند جميع المسلمين والذي يمكن من خلاله أن تبدأ مرحلة الانطلاق والنهوض والتنور من الظلام، كما يعكسه الواقع، بعيدًا عن تنظيرات الإسلاموية اليوتوبية التي تحاول الاستئثار بالله عن الأديان الأخرى بفاشية استعلائية عن طريق فكرة خير أمة أخرجت للناس، وعن المذاهب الأخرى بشيزوفرينية مقيتة أخرى عن طريق حديث الفرقة الناجية. أخيرًا أقولها بأعلى صوت: نحتاج إلى حلول ناجعة وشجاعة.

***تنبيه**[22]

22. هنا أعتذر للكاتب وللقارئ معا مرة أخرى أيضا؛ تم تأجيل بعض ما لحق هذا النص إلى آخر المسودة تقريبا في المرفق 3. (الرسول)

6

هل يعقل أن صديقك الذي وثقت به وشاركته الكثير من تفاصيل حياتك لسنوات، يشي بك! هذا ما فعله صديقي الذي كان له فضل كبير علي في خروجي من دوغماتيتي الدينية الموروثة. أبلغ الأجهزة الاستخباراتية بحجة أنه يريد حمايتي.. لا أصدق هذا! لكني حينها تعلمت درسًا قاسيًا ومهمًّا في ذات الوقت.. تعلمت أن في العلاقات علينا أن لا نرفع سقف توقعاتنا؛ لكيلا نصدم يومًا ما. والأفضل لنا ألا نتوقع شيئًا إطلاقًا، ونتقبل ما سيحدث دون أن نعطي عقلنا فرصة ليسأل «لماذا». وبدلا من ذلك ننظر للموقف كفرصة سنحت لنا لمعرفة مكان السقف الصحيح.

لكن المضحك أن أفراد الأجهزة الاستخباراتية التي كانت تحقق معي كانوا يرددون نفس الترهات.

- بعد فترة من الزمن ستتأكد نحن لم نحتجزك إلا لمصلحتك.. لحمايتك من نفسك ومن الأشخاص الذين يغررون بك. أكيد تعرف من نقصد.

في اليوم الذي تأكدت فيه أن من وشى بي لا يمكن أن يكون إلا هو بسبب ما ذُكر لي ولا يعرفه إلا إياه بدأت تتردد ذكرى واحدة فقط، وكلما تأتي أضحك بصوت مجنون خاصة عندما أكون في الزنزانة وحدي. قد يكون أنهم توقعوا في البداية أنني جننت وما هذه إلا أعراض أولية. تذكرت صديقي المثقف حينما كان يتفاخر بقراءته روايات عبدالرحمن منيف وأنه استمتع بها... منيف الكاتب الذي رفع راية العداء على الأنظمة العربية المستبدة

وأولها موطنه الأم، وقدس الحرية والديمقراطية وكرامة الإنسان في كل كتاباته.

فعلا أرى من المهم إعادة تعريف مصطلح (مثقف). هل مصطلح مثقف مرتبط بشكل كبير بمستوى الوعي لدى الشخص؟ وأي نوع من الوعي؟ ومن أين يأتي هذا الوعي؟ وكيف يزيد؟ تساؤلات أراها بدهية ومنطقية في وجود مثل هذه التناقضات عند من نصب نفسه مثقفًا أو نُصِّب مثقفًا. مثقف كل تصرفاته وكتاباته حين يزج بنفسه في السياسة وقد يكون يُزج به تجده مجرد بوق للسلطة وإن جارت وظلمت. وليس هذا فقط، بل تجده محاميًا عنها في كل تصرفاتها وعدوًّا لدودًا لكل شخص تجرأ في انتقاد سياسات السلطة! متأكد أن البعض الذي يقرأ هذه الكلمات الآن سيقول: تدعي أنه لا يمكن أن نثبت ثقافتنا إلا بكوننا معارضين للسلطة؟! لا طبعًا.

أنا.. لو كانت هنالك ما زالت شعرة إيمان بحقيقة ما موجودة في عقلي اللاواعي ستكون حول أهمية التنوع والتعددية وقبول الاختلاف مهما تباين. قد يحتاج الإنسان إلى سقف يوقف عنده هذا البون الشاسع من التباين، إذن فاليكن دم الإنسان. لولا هذا التنوع والاختلاف لذبل المجتمع. وهذا التدافع ضرورة حتمية للتقدم والتطور.

لكنه عار عندما تتحول الخيانة إلى وجهة نظر. المثقف هو الذي يستطيع أن يصدق القول بالعمل في القضايا الأخلاقية.

تلك ليست إلا ظاهرة من ظواهر عدة أسهم الاستبداد في خلقها لتسهم في إطالة عمره. لا أتوقع أن هناك من يختلف على أن الأكثر خطرًا على نمو ورقي وتقدم أي دولة هو الفساد المالي والإداري الذي يصيب جسد الدولة.

«لا تتوقع أن هناك من يختلف»!

«لا تتوقع أن هناك من يختلف»!

«لا تتوقع أن هناك من يختلف»!

هههه ما زال نَفَس الحقيقة المطلقة يلاحقني. كيف هو السبيل للتخلص منه بشكل مطلق؟! لا أرى أمامي إلا الموت.. هو أفضل علاج. إلى متى سأستمر ملاحقة الحقيقة؟!

ما أريد قوله، هنالك ظاهرة لا تقل خطورة عما سبق ذكره على أي بلد إذا لم تكن أكثر خطرًا. لأن كل أهل الفساد وشبكاتهم العميقة في الدولة سيأتي يوم مهما طال الزمن ستنكشف فيه سواد سريرتهم وخبث أعمالهم أمام الملأ. والأهم من ذلك أنهم يبقون خطرًا معروفًا كظاهرة وليست مجهولة. بيد أن أهل هذه الظاهرة خطر يتغلغل بين فئات من الناس لا يتوقع المجتمع أن يأتي منهم ما يضرهم؛ مختبئين بين المنادين بالإصلاح من مثقفين وإعلاميين. ويكمن خطرهم في شكل الأسلوب المتبع سواء كان بقصد أم بغير قصد عندما يبعدون ويشتتون أعين الناس الساكنين في الدولة مسؤولية ودور الحاكم والمسؤول الأول في البلد عن كل عجز وتقصير.

هؤلاء المحسوبون على المثقف يسهمون بشكل غير مباشر في إطالة عمر المشكلة وتفاقمها. المشكلة التي يحاول هذا المثقف الالتفاف عليها برمي إجابات سطحية يستغفل فيها الشارع. إذ لا يمكن إيجاد حل جذري وناجع إذا لم يتم تحديد كل الأطراف المسؤولة عن المشكلة دون أي استثناء خاصة لو تعلق هذا الاستثناء بالمسؤول الأول. فأهم مقومات نجاعة الحل هو تحديد المشكلة، ثم الاعتراف بالمشكلة، ثم تحديد المسؤول عن المشكلة؛ ورأس السلطة هو المسؤول الأول، كذلك عدم الاعتماد على من هم أساس المشكلة، لحلها؛ فمن كان جزءًا من المشكلة لا يمكن إطلاقًا أن يكون جزءًا من الحل،

وأخيرا إعطاء فرصة متساوية لجميع الأصوات المختلفة بالتعبير عن رأيها بحرية حول ما ذكر؛ فالصوت الواحد يخلق مجتمعًا آسنًا، ولن يستطيع حل أي مشكلة لأنه في الغالب هو أصل المشكلة.

ومن لا يلاحظ في مجتمعاتنا العربية والخليجة خاصة أيضا، أن غالبية الساكنين -المواطنين في مفهوم الدول الدستورية الديموقراطية- تتعامل مع الحاكم ليس كونه حاكمًا وقائدًا يشغل مسؤولية إدارية قدر ما تنظر له كأب. وهذه من إحدى الإنجازات الخبيثة التي حققتها السلطات العربية عندما أسقطت مفهوم الأبوة على الحاكم؛ فتحول من مسؤول وقائد إلى صفة أخرى عاطفية ليست لها علاقة بتاتًا بشكل الدولة. ولذلك نلاحظ من خلال هذه الظاهرة حجم التبريرات العاطفية التي يقدمها هؤلاء الساكنون عن كل تقصير وإخفاق يقوم به هذا المسؤول. ليس هذا فقط، بل يصل الحال إلى مهاجمة كل منتقدي هذا المسؤول ووصفهم بعبارات في العادة لا تطرح إلا في سياق علاقة الأب بأبنائه. ولهذا وجب على هؤلاء الساكنين أن يمايزوا بين علاقتهم بهذا المسؤول كإنسان وكقائد مسؤول عن سلطاته وإخفاقاته لو أرادوا الانعتاق من حالة المساكنة إلى المواطنة.

ومع ظهور مواقع التواصل الاجتماعي برزت ظاهرة غريبة جدًّا أطلق عليها البعض بظاهرة (المواطن الكلب). انتشر في هذه المواقع العديد من الحسابات سواء كانت لأناس حقيقيين أو وهميين تمارس هذه الحسابات الدفاع المستميت عن إخفاقات المسؤول القائد وتبرر كل قراراته التي تكون ضد مصلحة المواطنين. تجدها بكل وضوح تقف مترصدة إلى الدعوات والمطالبات التي يمكن من خلالها أن يسترد الساكن إحدى حقوق المواطنة المسلوبة عنه. أن ما يميز المواطن الكلب هو دعواته إلى تقليص حقوق المواطنة وتكريس وضع المساكنة. إنها نتيجة طبيعية؛ فهي إحدى

إفرازات الأنظمة العربية خاصة الشمولية منها. الأنظمة التي تحاول تغيير ماهية مفهوم المواطنة، من مفهوم قائم على الحقوق والواجبات إلى تطبيل واستنفاع! فهناك أناس موهوبون في التطبيل للقائد المعظم، وهناك أناس موهوبون في التطبيل للشيخ الأكبر. وهناك من هو موهوب أكثر في التطبيل لكليهما. هذه الظاهرة الخطيرة يجب دراستها سوسيولوجيًّا بشكل معمق وجاد. هذا يذكرني بمقولة دولابواسييه: «عندما يتعرض بلد ما لقمع طويل تنشأ أجيال من الناس لا تحتاج إلى الحرية وتتواءم مع الاستبداد ويظهر فيه ما يمكن أن نسميه المواطن المستقر».

***

لم أُعتقل سابقًا قبل هذه المرة، ولم أتعرض لأي تحقيق ولو حتى لدقائق. تم اعتقالي فجأة بلا أي مقدمات معتادة ألفها الناشطون من قبل الأجهزة الاستخباراتية مثل التهديد غير المباشر ثم المباشر عن طريق العمل أو أحد أفراد الأسرة. ومن ثم إذا لم يتوقف الناشط عن نشاطه قد يستدعى لتحقيق بضع ساعات من أجل الترهيب والترغيب وعملية غسيل مخ في نفس الوقت. كل هذا لم يحدث معي.

لعل السبب يعود إلى حجم ما قمت به واكتشافهم لهويتي فجأة؛ فحجم ما قمت به وتراكم مع الزمن تطلب منهم موقفًا صارمًا وسريعًا وقويًّا وإلا أصبحت مثالا على سعة صدرهم وتسامحهم.. وهذا عار كما يرونه وسيحرض الآخرين كذلك.

كنت في طريقي راجعًا من العمل ومتوجهًا إلى شقتي ولكن قرقرة خزان بنزين سيارتي أرغمني على التوقف في محطة البنزين. قبل أن يمتلئ

الخزان رأيت شخصًا بلباس رياضي يقف أمام السيارة ويلوح بيده للخروج من السيارة. استغربت الأمر. كدت أنزل النافذة التي بجانبي لأصرخ عليه من أنت وماذا تريد، بيد أن نقرًا على النافذة فاجأني. رجل آخر بلباس رياضي يطلب مني كذلك الترجل من السيارة وهو يفتح الباب.

- من أنتم وماذا تريدون؟!

- انزل وستعرف.

نزلت من السيارة وعندما التفت حولي سريعًا رأيت شخصًا آخر كذلك بلباس رياضي يقف خلف السيارة. ورأيت سيارة مدنية يركبها أظن اثنان بلباس مدني تقف خلف السيارة بقرابة ثلاثة أمتار. وسيارة مدنية أخرى ذات الدفع الرباعي بلون الأسود، لم أستطع تحديد عدد راكبيها بسبب شدة سواد زجاجها، تقف على مخرج المحطة. عرفت الأمر مباشرة؛ فقد سبق وسمعت الكثير من القصص وكان بعضها أكثر غرابة ورهبة.

- نحن جهة أمنية وأنت مطلوب للتحقيق.

كان من البدهي أن أسأله: وما أدراني بحقيقة ذلك؟ ولو كان صحيحًا أين أمر القبض؟ كل هذا لم يحدث. كان الأمر جليًّا لي ومن الغباء تجاهل تلك الحقيقة والتفكير في تصورات أخرى. كل هذا العدد من الرجال، ونوعية السيارات، وفي وضح النهار، لا يقوم بكل هذا إلا هم.

قادني أقربهم لي إلى السيارة رباعية الدفع ومن كان يقف أمام السيارة

رأيته خلف مقود سيارتي عندما التفت للخلف. السيارة السوداء مدعمة من الداخل بقضبان حديد كتلك التي اعتدت رؤيتها في سيارات الراليات. وكان هناك شبك حديدي يفصل بين المقعدين الأماميين وباقي السيارة. لم يكن في السيارة إلا شخص واحد خلف المقود.

في المقعد الخلفي توسطت اثنين منهم. تم وضع أصفاد الحديد في كلتا يدي وتم توصيل الأصفاد بسلسلة حديدية موصولة بأسفل المقعد. بعد مضي قرابة ثلث ساعة باغتني من كان يجلس بجانبي الأيمن بوضع غطاء أسود لامس طوله ركبتي عندما أخرجوني من السيارة. كانت شدة سواده منعتني من الإحساس حتى بأشعة الشمس. قد يكون زجاج السيارة المعتم ساعد في ذلك أكثر.

كانت آخر كلمات لي عندما سألتهم عن هويتهم، ثم بعد ذلك خرس لساني، الآن وأنا أحاول التذكر لم أستطع تذكر سبب صمتي حينها بالتحديد. هل كنت مرعوبًا وشل لساني! هل لأن الموقف كان لا يستدعي قول أي شيء بحكم أني سمعت بعض القصص وما كان يحدث لي لا يختلف كثيرًا عنه! أم أن هول الصدمة أخرجني من جسدي وذهب بي بعيدًا. لأني أذكر حينها قد استرجعت العديد من الوجوه والعديد من المواقف الجميلة كانت تمر أمام عيني بشكل سريع بدا لي مثل الشريط الأفقي.

أرجح السبب الأخير حيث إني لا أتذكر أي شيء قيل لو كانت هناك فعلًا حوارات قد دارت بينهم. حتى إني لا أتذكر ما كانت تبثه مكبرات الصوت في السيارة. لأني متأكد وقت دخولي السيارة كانت مكبرات الصوت تصدح بأغنية «أنت ولا أنا» للمطرب الراحل أبوبكر سالم بدا لي مصدرها الإذاعة الرسمية.

***

مضى شهر وأنا ما زلت أقبع في نفس المكان.. نفس الروتين. اثنان أو ثلاثة من الملثمين يخبطون الباب الحديدي بقوة بغية إجباري على النهوض من النوم مفزوعًا.

- صلاة الفجر

- ....

أنهض مباشرة وأتوجه للجدار حتى أكاد ألصق به.. أشتم رائحة فمي النتنة ترجع من الجدار.. أباعد بين رجلي وأرفع كلتا يدي.. يقترب أحدهما وبقبضته القوية ينزل اليد اليمنى خلف ظهري ويضع بها أصفاد الحديد، ثم ينزل الأخرى ويفعل المثل... يضع الغطاء الأسود على رأسي.. يضرب بحذائه الخشن جدًّا كالحديد جانب ساقي الأيمن كإشارة لأقارب بين رجلي.. يسحبني للخلف ممسكًا بكتفي بكلتا يديه ثم إلى اليسار ثم يدفعني إلى الأمام للخروج من بوابة الزنزانة إلى دورة المياه.

أيامي الأولى في هذه الزنزانة كانت صعبة جدًّا. مع مضي الوقت أصبح الحال أفضل. لا أعني أن الظروف حولي تغيرت.. يكاد لم يتغير شيء. إلا أن تعوّدي على نفس الروتين صنع ألفة.. بيني والأفرول الأزرق الذي أغيره كل يومين حيث يسمح لي الاستحمام كل ليلتين.. بيني وبين الإضاءة الساطعة التي تخترق عيني على مدار أربع وعشرين ساعة.. بيني وبين الأغاني الوطنية التي تطن في أذني كذلك على مدار أربع وعشرين ساعة.. بيني وبين العين الملعونة التي تعتلي رأسي في الزنزانة وفي الممر وفي غرف التحقيق وحتى في أشد الأماكن خصوصية. بيني وبين ساعات الانتظار الطويلة في غرف التحقيق انتظارًا لوصول المحققين.. صراخهم.. تهديدهم.. وعيدهم..

قذفهم.. إغراؤهم.. كل شيء.. كل شيء.

كم سمعت مرة سمعت قذفًا في أمي.. في أختي. لا يتورعون عن قول أي شيء. يتلونون مثل الحرباء كل يوم.

- اعترف كم حسابا وهميا لديك في الفيسبوك؟

- الذي تعرفونه فقط.

- كذاب

- ....

- تريد أن تتأكد نحن نعرف كل شيء عنك وعن أسرتك. نحن نعلم أن أباك بالأمس مارس الجنس مع أمك. ليس هذا فحسب، كذلك نعرف أن أمك كانت تلبس صدرية سوداء.

- ....

- واضح أنك لا تعرف من نحن بعد، وماذا نستطيع أن نفعل بك.

- نسيت إخبارك بعلاقات أختك الغرامية وما أكثرها. هل تريد أن تعرف التفاصيل أم إنك ستعترف؟

- ما زلت مصرا على نفس الإجابة.

- ....

يعلق الآخر الذي بجانبه:

- تعض الكتف التي رفعتك وعملت منك بني آدم يا ناكر للمعروف. تخون الأمانة التي منحناها لك. هل نسيت حساسية المكان الذي تعمل به؟!

يقاطعه الأول وهو يخرج من ظرف كان ملقى على الطاولة أمامه CD:

- هل تعلم ماذا يحتوي هذا؟ أكيد لا تعلم. لا مشكلة سأساعدك. سأقرب لك الأمر. فندق العاصمة! الغرفة 193! كل شيء هنا. هل كان السرير مريحًا؟

***

قضيت في السجن قرابة أربعة أشهر. بالتحديد بين ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يومًا، أو ثلاثة أشهر وتسعة وعشرين يومًا. حسبت تلك الأيام ما لا يقل عن مائة مرة وفي كل مرة أحصل على عدد أيام مختلف. أعترف أنني ضعيف في الحساب.

كل ثلاثين يومًا من الأشهر الثلاثة الأولى قضيتها في سجن مختلف جميعها تتبع جهاز المخابرات الملكية وتكاد ظروفها القمعية متشابهة. بقية الأيام إلا أسبوعا قضيتها في السجن المركزي في زنزانة انفرادية كذلك. ورغم أن هذا السجن يقل بكثير في مستوى النظافة مقارنة بسجون الاستخبارات لكنه أكثر راحة وطمأنينة.

في هذا السجن للمرة الأولى أرى الظلام بعد ثلاثة أشهر من الإضاءة الساطعة. في هذا السجن للمرة الأولى بعد ثلاثة أشهر يخرس الطنين الذي أصم أذني طوال الفترة الماضية. قبل السجن كنت أخاف الظلام وأتوجس منه. لم أكن أنام إلا والضوء الخافت أو الطبيعي يحيط بي. قبل السجن لم تكن لدي مشكلة في الاستماع للموسيقى لساعات. بعد السجن كل شيء تغير. صرت أعشق الظلمة والهدوء.. أشعر بطمأنينة أكبر في وجودهما.

الأسبوع الأخير قبل أن يقرر القاضي في جلسة المحاكمة الأولى الإفراج عني بكفالة شخصية ومالية كبيرة جدًّا، تم نقلي إلى سجن يتبع لأحد مقاطعات العاصمة تحت إدارة الشرطة الملكية. حتى هذه اللحظة حين أستذكر هذا الأسبوع.. هذا السجن، أندهش وأتعجب مني. كيف استطعت التأقلم والعيش لمدة أسبوع في تلك البيئة! لعل وجود مساجين آخرين معي بعد أكثر من ثلاثة أشهر وعشرين يومًا من السجن الانفرادي والعذاب النفسي بكل أشكالة القذرة أنساني قذراة المكان وشدة ازدحامه. أصرت القذارة أن تلاحقني في هذا السجن لكن بشكل مختلف. مساجين من جنسيات مختلفة يكاد يجمعهم سجلهم الإجرامي بين السرقة وتجارة وتعاطي المخدرات فحسب.

قبل خروجي من السجن رسمت هدفًا واحدا نصب عيني. خططت له كثيرًا. عملت على وضع خطط مختلفة لتعامل مع كل الاحتمالات. قلت في نفسي لا مكان لي في هذا البلد. المجتمع، ضقت به عندما ضاقت علي تقاليده وعاداته. رجال الدين والطقوس الدينية ضقت منهم وضاقوا بي ذرعًا بعد معرفة الحقيقة التي لم تكن يومًا حقيقة. نظام الدولة لا يريد خروفًا أسود مختلفًا. يريد قطيعًا من الخرفان البيض المتشابهة تسكن مزرعته. أحتاج إلى مكان لا يقين فيه.. إلى مملكة اللايقين. لعلي أنجح في جمع ذاتي الممزقة إربًا بين المجتمع والدين والسلطة.. لعلي.

دفعت كل الأموال التي جمعتها من عملي في سنواتي الماضية للكفالة المالية وما تبقى منه استخدمته لإتمام ما خططت له. فور خروجي من المحكمة تواصلت مع جاري بحجة إخباره بخروجي من السجن رغم أني كنت متأكد أن الخبر قد وصله باكرًا. دعوته إلى بيتنا. قلت له بصراحة لم أعد أثق بأحد إلا إياك. يجب أن تساعدني. أريد أن أخرج من هذه البلد في أسرع

وقت ممكن. لا مكان لي هنا. غير مستعد أن أقضي سنوات من عمري في السجن. وحتى لو حالفني الحظ وحصلت على براءة وهذا غير ممكن، هذا المجتمع ليس لي وأنا لست له.

خرجت من البلد بعد مضي شهر منذ خروجي بكفالة. كيف خرجت رغم أن السلطة كانت تحتجز كل وثائقي هذه قصة ليست بالطويلة ولكنها القصة الوحيدة التي لن أستطيع أن أفصح عنها قط؛ فليعذرني القارئ. لأن ذكري لها سيعرض آخرين للمساءلة والسجن.

وصلت المطار الساعة العاشرة وربع مساء يوم السابع عشر من يوليو لعام 2015.

(ك)

خرجت من المستشفى بعد أن أمضيت أيامًا لا أذكر عددها حتى الآن. لكن مازلت أذكر ذلك اليوم الذي فتحت فيه عيناي بعد العملية، كان أشبه بالحلم. استيقظت في غرفة غربية، سقفها مليء بالبياض وأضواؤها بيضاء. الأصوات كانت تتردد حولي وتختلط في ذاكرتي. شعرت بالألم في رأسي كصداع داهمني فجأة وبدأ يسحب عقلي للخارج. بدأت أشعرني أغادر جسدي وأطفو عاليًا. ثم بدأت أقترب من السقف. نظرت للأسفل وأجزم أني رأيت جسدي ملقى على السرير هامدًا بلا أي حركة تذكر. ثم رأيتني أرجع إلى جسدي حتى صرنا شيئًا واحدًا.

لعلي غرقت في النوم من جديد لأنني صحوت بعد نوم عميق في منتصف الليل. أو لعلي كنت أحلم عندما شاهدت الأضواء البيضاء ورأيتني أطفو على جسدي.

شعرتُ بالوحدة والحزن وأغرقتني الدموع. لم أستطع التنازل عن فكرة الدراسة وأنا أعيش بين أسوار هذا الوهم. بلغ الحزن مني مبلغه. حين منعت من السفر؛ لأجل دراستي. كان علي أن أقف ولو للحظة أخيرة مع نفسي من أجل أحلامي الباكية التي تُكسر كل يوم.. من أجل روحي الفانية إن كان الفناء حقيقة.

كتبت له:

صديقي.. لمن أكتب إلا إياك؟ فأنا أموت وأنت تنظر لي من بعيد، غير قادر حتى أن تمسك يدي؛ لتخفف عني كل هذا الألم. يقولون إنهم من ذوي

القربى.. يقولون إنهم يحمونني مني. أنا غاضبة.. غاضبة جدًّا؛ لأنني أعلم أنهم يخونون الكلمات، ويخونون أنفسهم بالكذب. نعم إنهم يكذبون على أنفسهم.

أنا لم أعد قادرة مواصلة هذه الحياة. بالله عليك قل لي: كيف أعيش وأنا لا أتنفس أصلًا. قلبي لاينبض إلا ألمًا.

ظللت أفكر حتى لمحت ضوء الشمس من النافذة المجاورة لسريري. خرجت لأرى الشمس مرة أخرى وقد وهبتني الحياة فرصة أخرى، قررت أن أعيش حياتي كما أريد وليس كما يشاء العالم الذي لفظني. قررت أن أسافر كما أريد. سأكمل دراستي في الخارج وسأكمل حياتي هناك.. لن أرجع لهذا الكهف مرة أخرى. قررت أن أضع عائلتي أمام الأمر الواقع.. أنهيت كل أوراقي وتأشيرتي وغادرت.

استقبلني المطار بكل سعة وحب، شعرت حينها أن الوطن الذي احتضنني وقت ولادتي ضاق علي بعد حين. بدأت بالدراسة في ذلك العالم الرائع. عرفت أصدقاء مختلفين، أحببتهم. سهرنا معًا وضحكنا معًا. لكنني كنت أفتقد حبيبي البعيد. كنا نتحادث في كل ليلة عن كل شيء تقريبًا ونبني خططنا معًا. خططنا للقاء في أقرب فرصة ممكنة.

***

كان جالسًا حين اقتربت منه. لا يختلف شكله في الواقع عن الصور التي كان يرسلها لي. وحين ابتسمت له لم يكن له إلا أن يميزني؛ فلم يكن أي منا غريبًا على الآخر. لم أشعر به غريبًا في أي لحظة. كل ما في الأمر هو لقاء جسدين لأول مرة. هو الوطن الذي أحتمي به ولا يزال هو الوطن في قلبي.

خرجنا معًا من المطار بسيارة الأجرة إلى المدينة التي سوف تحتضن أيامنا الأولى والأخيرة. كان الليل قد أرخى جدائله السوداء.

- اقتربي مني، أعلم أنك في شوق لحضني.

- لا، لست كذلك.

كذبت عليه ليس لأنني لا أرغب في حضنه ولكنني كنت خجلة وخائفة في ذات الوقت. نبضات قلبي تكاد تقفز من بين ضلوعي. تجاهل ردي وأحاطني بذراعه وشدني إلى صدره بقوة، ثم قبلني على شفتي، وقبلني أخرى، ثم أرخى رأسي على كتفه.

- ما هو شعورك الآن؟

- ....

آآآه ماذا أقول. لم أستطع أن أجيب. كنت لا أزال في صدمة قبلته الأولى. بالكاد أتنفس الهواء غير أن رائحة أنفاسه تخدرني أكثر حتى كدت أن أغفو في حضنه وأنسى كل تلك المناظر الرائعة في طريقنا.

همس:

- هل نمتِ؟

- لا، ولكن أرغب في النوم.

رفعت رأسي؛ لأرى الطريق الذي زينته الأضواء وبقايا المطر وهربت من حضنه إلى النافذة.

– تعالي

وأشار بالقرب منه. هززت رأسي بالنفي وتابعت النظر في الأمد البعيد. أحببت مشاكسته.

وصلنا إلى الفندق. كانت تمطر والأجواء باردة جدًّا إلا أن قلبي كان يسخن أكثر كل ما اقتربنا إلى الفندق، ثم كل ما اقتربنا إلى الغرفة. تقدمني نحو الباب الدائري برفقة رجل الفندق الذي استقبلنا فور وصولنا ثم بدأ يساعد سائق التاكسي في حمل حقائبنا. دخلنا سريعًا قبل أن يبللنا المطر.

الغرفة جميلة بأرضية ناعمة. لكن ما لفت انتباهي الورود المتناثرة على السرير وكأنهم يعلمون أننا عاشقان التقيا لأول مرة. توجهت مباشرة إلى شرفة الغرفة التي تطل على النهر حيث انعكاس الأضواء اللامعة الكثيفة المحيطة بالنهر. استنتجت فيما بعد أننا بجوار مرسى. وأنا أطالع ذلك المشهد المدهش الذي لم أتوقع رؤيته خيل لي أني أشاهد لوحة تجريدية بالغة الإبداع. لا شعوريًّا ساعدني ذلك في امتصاص شيء من توتري.

كان عقلي سارحًا يتجول بين تفاصيل اللوحة التي بدأت تتضح معالمها أكثر فأكثر مع مرور الوقت حتى إنني بدأت أحدد حواف اللوحة وأرسم بروازًا حولها. قاطعتني يده وهي تلم خصري بكل رفق ولين. أغرقني في حضنه وأغرق رأسه بين كتفي ورقبتي. حاولت أن أختلس مشاهدة ملامح وجهه لكن شعري كان يغطي معظم وجهه. بدأ يشتمه ثم همس في أذني:

- أخيرًا اجتمعنا في نفس الغرفة.

ثم سألني:

- ماذا تريدين الآن؟

- أحتاج أن أنام.. متعبة كثيرًا بسبب السفر.

رغم أني كنت حقًّا مرهقة لكن لم يكن جوابي صادقًا. لم أشأ أن ينهي عناقه لي. تمنيت حينها لو نبقى هكذا إلى الأبد. كنت أريده أن يضمني إلى صدره بكل ما أوتي من قوة لنصبح جسدًا واحدًا. لأول مرة أشعر بهذا القدر من الأمان. هل للحب أثره في الشعور بالأمان، أم أن الإنسان بطباع شخصيته هو من يكسبنا شعور الأمان من الآخر؟ ربما في حالتي كان الاثنان مجتمعين معًا. هذا ما أعتقده.

بعد أن انتهى من ترتيب أغراضه القليلة بعكس أغراضي الكثيرة سألني:

- هل تريدين أي مساعدة؟

أجبت باستحياء:

- لا، ولا تنظر إلى ملابسي.

جلس على حافة السرير ينتظرني أن أنتهي. عندما فرغت وقف وشدني من يدي وقربني منه حتى لامست كل خلية في جسدي جسده وقبلني قبلة واحدة طويلة أغرقتني؛ فلم يتوقف إلا وأنا قد استسلمت له. ورغم ذلك لم أستطع خجلًا مبادلته التقبيل. شعر بذلك:

- هل ما زلت تخجلين مني؟

لم ينتظر إجابتي. دفع جسدي نحو السرير وألقى بجسمه علي، وأخذ يقبلني وفخذاه تلامس فخذاي. أحسست بصلابة ذكورته. لأول مرة أشعر بذلك الشعور الغريب ولكنه جميل. ثم رفع قميصي ثم شد حمالة صدري للأسفل وأخذ يقبل ويلعق حلمتا صدري غدوًا ورواحًا وأحيانًا بشكل دائري. بدأ جسمي يتشنج أكثر مع استمراره. علت أصوات آهاتي من ذلك الإحساس الغريب الذي انسال في جسدي.

نزل رويدًا على بطني وهو يداعبني بلسانه وشفتيه. ثم بدأ يقضم خاصرتي بأسنانه بكل رقة وأحيانًا يثقل قضمته حتى يكاد يحز جزءًا من لحمي. أزال بنطالي ولباسي الداخلي ثم مباشرة قضم أسفلي ليعلو صوتي أكثر. ثم بدأ يلعقه ويقبله بشكل جنوني وزادت معه دقات قلبي وسرعة أنفاسي. ثم رفع جسمه وهو ممسك بعضوه؛ فصرخت عليه:

- ماالذي تريد أن تفعله؟

- لاتخافي، لن أفعل أي شيء لا ترغبين فيه.

خفت على شرفي المستقر بين فخذي! نفسه الخوف الذي كان ينتابني كل ما فكرت في لمس أسفلي. كان شعورًا مخيفًا أن تضعي يدك على أسفلك لأول مرة قاصدة التلذذ. كنت أهرب كثيرًا حين يتراءى لي عنوان «العادة السرية». أتذكر أول مرة لمحت فيها هذا العنوان في مكان عام. كنت في رحلة طلابية من المدرسة إلى معرض الكتاب. وجدتني أسألني ما هي العادة السرية.. ولماذا كل هذه الكتب التي تباع حولها؟

في يوم كنت أتحدث معه عبر الهاتف وساقنا الحديث إليها. كنت على وشك النوم وأنا أتحدث معه، لكنه باغتني بطلب أربكني. طلب مني أن أضع يدي على بظري. حاول إقناعي بجمال المتعة التي سألقاها. رفضت كثيرًا.. كنت خائفة وما زاد خوفي أكثر وإصراري على عدم الموافقة على طلبه كل ما تذكرت القصص التي تروى وتتناقل عن ليلة الدخلة.

لم أعتد أن أعبث بأجزاء جسمي السفلى أو أن أمرر يدي عليها قاصدة المتعة. بعد إصرار منه وإقناعي أنه لن يحدث لي شيء إطلاقًا، وضعت يدي اليسرى على أسفلي ولم أحرك ساكنًا.

- حركي مم تخافين؟!

- لكنني أخاف.

كان شعور الخوف يمنع أي شعور بعده. حتى اللذة يقلصها إلى لا معنى فيختفي معه أي شعور مرافق آخر.

معه بدأت اكتشف أنوثة جسدي. تأخرت كثيرا في معرفة جسمي. كان كل هذا يفترض أن يحدث منذ سنوات في الظروف الطبيعية.

احتضنني بقوة وبدأ يحرك أسفله بين فخذي. رأيتني في عالم آخر. ثم شعرت به وهو ينكمش ويتمدد حتى سكب ماءه أسفل بطني.

علق ضاحكًا:

- أبنائي وصلوا ليلقوا التحية عليك.

بعد عدة تعليقات أعطاني علبة المحارم لأمسح نفسي. ألقى بجسمه بجانبي وحضنني قرابة ربع ساعة ولم يهمس بكلمة، وكذلك فعلت. فجأة نزل من السرير وجرني من السرير إلى الحمام.

- هيا.. نستحم معًا.

تقبلت الموضوع على مضض لكنني لم أمانع ولم أنبس بكلمة. ما زال الخجل والخوف يمنعني من التصرف بشكل طبيعي.

وهو يضحك:

- خذي هذه المنشفة الصغيرة وأفركي ظهري

مازحته:

- ظهرك مليء بالأوساخ ألا تنظفه؟

- لا.. منذ سنوات أنتظرك لتنظفيه لي.

خرج قبلي ليتركني أستحم بعد أن رأى أنني لم أبادر بالاستحمام بشكل طبيعي. قبل أن يخرج باغتني بسؤال:

- هل وصلت للرعشة؟

نظرت إليه باستغراب وحركت يدي مستفهمة. لم أفهم ماذا يقصد.

- لا عليك انسي الموضوع الآن.

خرجت من الحمام وأنا ألف منشفتي حول صدري إلى نصف ساقي وشعري الرطب متناثر على ظهري كشعر غجرية. كان متمددًا على السرير وفي يده كتاب أزرق اللون تقريبًا لم أنتبه حينها إلى عنوانه. نظر إلي وابتسم وأشار بيده على يمينه يدعوني للاستلقاء جنبه.

- انتظر.. سألبس لكن رجاء لا تنظر إلي.

لم تعر كلا عينيه تنبيهي؛ فقد أمسكته وهو يتلصص بنظره كأنه للمرة الأولى ينظر إلى جسدي. لبست قميصًا قطنيًّا وبنطالًا قطنيًّا يرسم تفاصيل فخذي. اقتربت لأنام فقد كنت منهكة وضمني لصدره. كان دافئًا جدًّا. استنشقت رائحة جسده وعطره الذي تخمر في ملابسه. أحسست بالأمان. كان وطني الذي أودعه كل ليلة «تصبح وقلبك وطن».

نمت سريعًا ولم أشعر إلا بالصباح الباكر والضوء يطل من النافذة.

استيقظت وجلست على السرير بجانبه. كان وجهه جميلًا وناعمًا جدًّا. أعجبني مشاهدة وجهه نائمًا، ثم عشقت ذلك وبدأت أخطط تكرار ذات الفعل كل يوم.

تسللت يدي بكل خفة إلى هاتفي لكيلا يشعر بي وأخذت له عدة صور.

عشنا تلك الأيام الجميلة معًا، ونسيتنا وتناسينا كل ألم، وأكملنا الحب.. والمرح.. والأماني. مضت الأيام سريعًا، واستعجلت فراقنا وسرقت فرحتنا في آخر يوم. كانت طيارتي في الثامنة مساء. استيقظت صباحًا وليتني لم أستيقظ بعد ليلة طويلة قضيناها سهرًا وحبًّا.

7

قبل خروجي من البلد لم يتبق لي من الدين إلا القرآن بمعناه العام. حتى قبل خروجي لم يكن فهمي له يقترب من الفهم المتعارف عليه إلا بشكل تتقاطع فيه المعلومة أحيانًا. بيد أن خروجي من البلد وابتعادي عن الشأن المحلي جغرافيًّا واهتمامًا أرجعني مرة أخرى لمجال اهتمامي الأول.

بدأت أقضي ساعات طويلة بين القراءة ومشاهدة القنوات والحلقات اليوتيوبية المتخصصة في هذا المجال. في البداية كما هي العادة كان لدي نوع من التحفظ والحواجز النفسية التي نما معظمها في السجن. خواء السجن لا يملؤه إلا الدين. ومن المضحك والعجيب أني رأيت إمام السجن في سجن المحافظة من أصحاب السوابق في تجارة وتعاطي المخدرات والسرقة. لكن تلك المرة لم يدخل السجن لذات الأسباب بل لسبب أشد إجرامًا. في محاولة لسرقة ذهب زوجة إمام مسجد قريته التي تربطه بها علاقة جنسية، اكتشفته وهو يخرج هاربًا بالذهب؛ فتصدت له وقتلها وهرب بالذهب.

تكسرت كل يقينياتي بالإسلام. بت معلقًا بين الإيمان بوجود الله من عدمه. اكتشفت أن الإسلام ليس إسلامًا بل عدة إسلامات.. وما أكثر النسخ! القرآن الذي كنا نؤمن به أنه كتاب مقدس ومعصوم نزل به جبريل من الله.. ليس إلا كتاب خطه أناس مثلنا، مثله مثل كل الكتب المقدسة الأخرى. قد يكون محمد النبي أو غيره لا يهم. الأهم أنه ليس مقدسًا وهو يحمل الكم الكبير من التساؤلات التي تكاد لا تنتهي. تساؤلات يطرحها

القرآن بنفسه حين تقرأه.. تساؤلات حول القصص التي يوردها.. تساؤلات حول اللغة وأصلها ومعناها.. تساؤلات حول تعارضه مع العلم المؤكد.. مع التاريخ الموثق.. مع ما توصلت إليه الإنسانية من تحضر. وتساؤلات أخرى يطرحها تاريخ محمد النبي حسب السيرة الإسلامية. تاريخ كتابتها وتوقيتها وتعارضها مع القرآن والمفسرين والتاريخ الموثق.

اكتشفت أن القرآن ليس هو القرآن.. محمد ليس محمدًا.. الصحابة ليسوا هم الصحابة.. مكة ليست هي مكة.. المدينة ليست هي المدينة. التاريخ ليس هو التاريخ. كل شيء يحمل أوجهًا من الحقائق لا تحصى. ليس كما أفهمونا أن لكل شيء منهما حقيقة واحدة متفقا عليها وأجمعت الأمة عليها. ههههه يجب أن أضحك هنا رغم المرارة التي تقطع قلبي الآن.. حين أتذكر موضوع الإجماع الذي كان يمارسه الدعاة في خطبهم لإخراس العقول عن التفكير. في الحقيقة لم يأتوا بجديد؛ فقد سبقهم الأولون في ذلك.

كيف أستطيع أن أؤمن بدين توجد منه عشرات بل آلاف النسخ! وكل نسخة تدعي أنها الفرقة الصحيحة الناجية! كيف أؤمن بدين أكبر رجالاته الأربعة بعد محمد النبي قتلوا بسبب خلافات سياسية! كيف أؤمن بدين أكبر وأهم تابعيه في أول نصف قرن من قيامه سببوا أربع حروب أهلية نتيجة خلافات يستحي الإنسان أن يذكرها! هل هؤلاء السلف الصالح! هل هذه الدولة المنشودة التي يريدون إرجاع أمجادها؟

لكن المضحك أكثر أن أمجاد الدولة الإسلامية قامت على السيف وقت الحرب والتوسع، أما في وقت السلم فقد قامت على عقل وإبداع عدد كبير من الزنادقة المهرطقين والكفار المرتدين! والآن ينسبونهم إلى الدولة الإسلامية التي يتصورونها!

قد يجدني البعض مجنونًا للتصريح بكل هذا علنًا.. أو شجاعا. لكني أراه ليس أكثر من يأس واستسلام أمام عبثية هذه الحياة، أمام اللاجدوى. كيف يمكن أن أؤمن إيمانًا مطلقًا بوجود رب عادل ومحب لخلقه وحبيبتي ينتزعها الموت مني عنوة فجأة بسبب مرض عضال أصابها.. ثم يقال هذا قضاء وقدر! غير ممكن. لعل هناك إلها شريرا سبب كل هذا الشر الذي يعم البشرية، أو فعلًا ليس هناك إله. لا أدري. لكن لا يمكن أن أؤمن بإله شرير. بيد أن وعي الآخر يقول لا لا وألف لا. عظمة ودقة هذا الكون الشاسع لا يمكن أن تأتي من فراغ، لا بد أن هناك قوة أتت بهذا الكون وتديره.

ليس لدي ما أخسره في الحقيقة لكي أخاف من قول كل ما يدور في عقلي من أفكار... للتعبير عن مشاعري بكل حرية وصراحة. المشكلة أن جعبتي تعتج بالكثير من الأفكار المجنونة والمتناقضة. لا توجد حقائق. أصبح معظمها عائمًا غير مستند على فكرة الحقيقة. ولهذا السبب أجد صعوبة بالغة جدًّا في التعبير عن كل أفكاري.

وبعيدًا عن التنظيرات اليوتوبية التي يتم طرحها منذ عدة عقود ولم تستطع حتى الآن أن تجمع بين واقعية الحياة وحقيقة الإسلام، وبعضها أسهم في مضاعفة الفجوة بينهما، هل هناك خيار آخر؟!

واقعيًّا، استمرار الإسلام بشكله القديم الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرن لن يؤدي بنا إلا إلى طرق نحن لا نريدها ولن يقبلها العالم منا، سواء على مستوى علاقتنا بالآخر أو حتى على مستوى نظرتنا لأنفسنا بين الأمم.

القراءات التاريخية التي تساعد في تتبع وفهم حركة التاريخ خاصة تاريخ عصر التنوير ومعرفة تفاصيل المعارك التي دارت بين التنويريين والأصوليين حينها، وما هي مقدمات ذلك العصر محبطة للقارئ العربي لحد

التشاؤم واليأس، حيث يدرك القارئ تمامًا أن شعوبنا العربية الإسلامية ما زالت مغيبة وتعيش في فترة ما قبل القرن الثامن عشر، وتترسخ هذه القناعة أكثر مع كل قراءة جديدة. وهذا في الحقيقة يدعوك مباشرة لا شعوريًّا لفقدان الأمل وترديد فكرة واحدة، آه كم نحن بعيدون، لا أمل لنا ولا لأحفادنا بعد ثلاثة أجيال -على الأقل- للعيش في وطن عربي مسالم يقدس الحريات والقيمة الإنسانية فوق كل اعتبار.

لكن ما يرجع بصيص الأمل أحيانًا هو إدراك تورطنا من حيث ندري أو لا ندري في مخاض تسارع معرفي متعدد ومتنوع بفضل التطور التكنولوجي الهائل الذي يدهشنا كل يوم بجديده؛ فهذا الكم المعرفي الكبير المتنوع الذي نتلقاه يوميًّا عن طريق شبكة الإنترنت بشكل عام ومواقع التواصل الاجتماعي بشكل خاص، والتي أصبحت متاحة للجميع، قد يقلص هذا العامل تلك القرون العديدة إلى بضعة عقود فحسب، شريطة أن يكون هناك حراك نقدي مثرٍ متعدد على مستوى هذه الوسائل المعرفية الجديدة... ربما عقود لكنها تظل بعيدًا جدًّا. لا أتوقع أني قادر على هذا الانتظار.

8

أيها القارئ الذكي الغيور على دينك.. الذي تلعنني الآن وتصفني بالغباء. هدئ من روعك. وأرجوك لا أريد أن أسمع منك رهانك المسروق من باسكال المسيحي محاولا أسلمته. لدي رهاني الخاص بي ولا أحتاج إلى رهانك الغبي وغير العادل. لو كان هناك حقًّا رب فمن البديهي أن يكون عادلًا وإلا لما وجدت فكرة الرب أصلًا. لكن كيف يكون عادلًا حسب رهانك القائم على ميزان غير عادل. لا يمكن من أراد الفوز بالرهان يجب أن يصبح مثلك فحسب.. هذا فعلًا ليس عدلًا.

ابحث عن ميزان عادل يعكس طبيعة الرب العادل للفوز بالرهان.

أما جذور دينك قد تكون لم تنشأ إلا بسبب خوف الإنسان من مظاهر الطبيعة عندما عجزت حينها أدواته العلمية من تفسير ما يحدث، حينها فسر الإنسان ذلك بوجود قوة عليا تدير وتسير وجب التقرب منها والتضحية لها. ثم أصبح نظامًا اجتماعيًّا يربط وينظم أفراد المجتمع بعد ما ارتبطت منظومة العادات والتقاليد بالدين. لكن بعد أن فقد الدين قوته الاجتماعية في التنظيم وتقوية أواصر المحبة وبعد أن بدأ يصبح مفرقًا، ابتدع الإنسان بديلًا آخر أكثر شمولية وهو المواطنة.

(ل)

حبيبي:

لست هنا لأكتب لك ولكنني أكتب لنفسي؛ لأتخلص من ذلك الكم الهائل من المشاعر التي تعصف بي أحيانًا ولا أستطيع أن أنام. حين عرفتك كنت معجبة بك ولم أكن أعلم غير ذلك؛ لكنك أجبرتني أن أحبك.. ليس ذنبي. ومع كل ذلك لم أستطع أن أبوح لك بذلك الأمر إلا مرة واحدة. برودة ردك علي حينها واستغرابك الأمر أخرسني ومنعني من تكرار الأمر خاصة عندما أكدت لي ألا أفتح هذا الأمر إطلاقًا.

أنا.. أحببتك أكثر مني. أحببت كل ما له علاقة بك. حتى طباعك وعاداتك وأفكارك التي كنت يومًا أعتبرها شرًّا وخطأً كلها أصبحت شيئًا جميلًا ومقبولًا. أتذكر تلك الأيام الأولى حين كنت تتحدث فيها معي بذلك الأسلوب الساحر من كل شيء، الناقد لكل شيء، وأنا أتفاعل معك مؤيدة لك. كنت أتماهى معك لا شعوريًّا. لكنه لم يرضك.

- لا يوجد داع للتواصل بيننا؛ فأنت لا تفهمينني.

ضحكت كثيرًا لحظتها وأنت غاضب مني.

- بلى أفهم ما تقصد.. هل تظن فعلًا أنني مؤيدة لكل ما تقول!

كذبت عليك حينها. كنت حقًّا متماهية معك وسيستمر هذا التماهي حتى آخر يوم في حياتي. لكنني تعلمت أن أتماهى معك بقلبي وأكون لك ندًّا قويًّا بعقلي. أن أنتقد وأعارض وأحتج على كل شيء تطرحه. لا أترك

موضوعًا إلا وقد انتقدت ولو جانبًا بسيطًا منه. لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لكي أبحر معك في الحديث أكثر وأكثر.

الشعور بالاهتمام ولد الحب فيَّ سريعًا لأني كنت أفتقده. حاولت أن أهرب دائمًا من التفكير فيه.. أن أقول يا حبيبي. لم أرد أن أخسرك تحت أي ظرف كان ولو على حساب مشاعري. تذكيرك باتفاقنا في كل مرة أقترب فيها منك كان كفيلًا ليرجعني إلى واقعي الذي اخترته لنفسي. كنت تعلل لي بذلك بحجم الألم والضغط النفسي الذي تعانيه جراء مشاعري وارتباطي بك. تفهمت ذلك وتخليت، مرة أخرى ومرة أخرى وأخرى... عن مشاعري. كل ذلك حدث فعلًا لمرات ليست بالقليلة.

لم أشعر بالعجز يومًا مثل ما شعرت به معك.. في الوصول إلى قلبك. إنه شعور مزعج أكرهه جدًّا ويكرهني؛ لأنني أتمرد عليه في العادة ودائمًا أتغلب عليه. ستقول لي: «إنها الحياة وهذا هو الواقع، لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك». إذن لماذا تؤمن بأن كل ما نواجهه في الحياة ما هو إلا نتيجة خياراتنا. نعم هذا ما أكدته لي مرارًا وتكرارًا!

يؤلمني ذلك الشعور حين تكتب لك أخرى وأنا معك نتشارك اللحظات التي حلمت بها طويلا: «حبيبي أين أنت اشتقت لك» .

لم يؤلمني أن تكون فعلًا في علاقة أخرى. ولكنه آلمني ألا تحترم مشاعري وأنت معي.. برفقتي. لا بأس أن تعيش كما تريد ولكن أن أعيش كما تريد أنت؛ فهذا مؤلم جدًّا لأنني لم أتمرد؛ لأعيش مشاعر لم أخترها ولحظات لا أريدها. لم أصارحك لأني لم أشأ أن أخسرك ولا أخسر تلك اللحظات التي ضحيت من أجلها الكثير. وكنت أعلم في قرارة نفسي قد تكون الأولى والأخيرة.

تبًّا لك، تعبت من صمتي.. من روحي التي أعيشها فيك وأنت لا تدري.. من كل كلمات اللغة وحروفها التي تخذلني أمامك دائمًا حين أريد أن أشرح لك. ثم تسعفني دموعي؛ لتعبر بكل ذلك. هل علمت الآن لماذا أبكي في تلك الأحيان التي لا تستحق البكاء؟

أتعلم ما العدم؟

«أنت»

العدم أن أقولَ

أحبكَ؛

فتتلاشى الكلمة

في الهواء

حتى ذراتُ الأكسجين

تلفظُها

فتحيلها عدمًا

أن تحب الأنثى

رجلًا عدميّا،

الإناثُ أمامَه

مجردُ أرقام

يحققْن له

قيمةً عدديةً

لا أكثرَ

تمنيت لو أغدو

الرقم صفر

أمام الألف امرأة

تعرفها

فيستحيل صفري

بقيمتهن عدمًا

أمامي

يا سيدَ العدم

أتعلم ما معنى

أن تمتلئَ أنثى

بالكلمات،

أن يُصرعَ رحمُها

بالذكريات

أن يستعمرَ قلبَها

رجلٌ من لعنات

ماذا يعني؟!

يعني أنك في خطرٍ

أكبر من خطرِ

أن يلاحقَك ألف رجل

يريد اقتلاعَ رأسك

أو ألف فتاة

راقصتها بحبك

هلا سمحت لي

أحبك..

نعم أحبك

هل تعلم

كم تفصلها

المسافاتُ

كم يغتالها

الواقعُ

أحبك

لأن المسافاتِ

شاهقةٌ

والمفارقات بيننا

صارخةٌ.

أحبك

لأنك «سي السيد»

اللعين

الذي يُسقط معالم

جميع أنوثتي

التي يخفيها

غضبي عليك

راهبة أنا

في كنيسةٍ

حرّم الزواج علي

من الكتاب المقدس

أتلو الأناشيدَ

والتمتمات

لعلك تأتي

لعلك تختطفني

لنعيشَ

حياةً مقدسةً

كما في الأحلامِ

لا

لست براهبة

ولكنني يا سيدي

عاشقةٌ

لدين الحب

أعتنق

وبحبك أستعين

على عدميتك

وعبثِ الحياة

فهلا -بحقِّ رحمةِ

هذا الدينِ-

أتيتَ

***

لو كنتم تقرؤون هذه الكلمات الآن؛ فيعود الفضل له لسببين: الأول هو من شجعني بالاستمرار في ممارسة الكتابة كنوع من التفكير، والشيء الآخر والأهم لولاه لما تمكنتم من قراءتها لأني لم أتجرأ أن أشاركها إلاه.. صديقي وحبيبي.

بعد تجربة انفصالي عن المجتمع والعالم.. بعد أن عرفت سماء حريتي التي هربت إليها عشقًا وحبًّا؛ تنفست لأول مرة أن أكون أنا، وأن أعيش أنا، وأن أدافع عن كوني أنا. تلك المشاعر التي لن يفهمها نصف سكان الأرض. لن تفهمها كل نساء قبيلتي.. ونصف نساء عالمي. لن يفهمها أغلب رجال الكون، إلا صديقي الذي عجزت أن أشرح له كم أعشقه.. وعجزت أكثر أن أسترجع قلبه العاشق الذي دفنه في قبرها. صديقي قادني إلى هاوية الحرية وأنا أنظر مشدوهةإلى عينيه فاغرة الفم.

حين أحسست بتلك الحرية، انطلقت ونسيت كل ما قد يعكر صفوها. لأول مرة أدافع فيها عن نفسي بكل تلك الشجاعة. لأول مرة أشعر أنه يتوجب علي أن أدافع فيها عن وطني الذي ولدت وترعرعت فيه.. الذي فرحت وحزنت فيه.. البلد الذي احتضن معظم ذكرياتي. في تلك اللحظة شعرت كم كنت أشبهه. كم بدأت أتماهى فيه.

- أنانية

سمعتها ممن حولي.

- تفعلين كل هذا من أجل نفسك.. ولا تفكرين بحجم الضرر الذي قد تسببينه لآخرين من حولك.

تساءلت: هل فعلا أنا كذلك؟! إن الأمر بدا مختلفًا لي. لم أنظر للأمر هكذا. ولكنني حين أردت مداواة روحي المكسورة من الكآبة التي كانت تعتريني نتيجة ما كنت أسمعه، تذكرت كلماته:

- سيحاربك الجميع؛ لأنك خرجت عليهم، أو لأنك أظهرت وأكدت ضعفهم.

أنانية جدًّا حسب مفهومهم ممزوجة بكبرياء لم أستطع أن أتنازل عنه حتى في اللحظات الأخيرة. ذكرني هذا الموقف بما حدث لي مع جهاز المخابرات الملكي حين أصررت على موقفي، وصلني اتصال من مسؤولي في العمل يحذرني من مغبة نشاطي على عملي.

فتحت عيني لا شعوريًّا.. معه وبسببه. ورغم الشعور المختلف الذي رافق ذلك الوعي لفترة لكنه تحول بعد ذلك إلى جحيم. لكني لست محاربة ضعيفة. ضحيت بالكثير وكنت مستعدة أن أضحي بكل ما تبقى لي للمحافظة على أغلى ما أملك.. لكنه القدر الملعون. فعلًا القدر الملعون الذي أصر على ملاحقتي حتى عندما حاولت الهرب. أجبرني أن أستسلم وأرجع أعيش الواقع الذي كم أمقته.. لكنه الآن أفضَلُ خيارٍ لدي.

تأكدت أنه ملعون عندما أكد لي الطبيب ألا أمل لحالتي الصحية.

- الورم أصبح مستعصيًا وحجم انتشاره كبيرا جدًّا.

مذكرات لا منتمية،

22 /3 /2018

المرفقات

مرفق 1

مغلقة ويجب محاربتها واستئصالها

«عندما تنخر الطبقية أي مجتمع فهي بداية نهايته، وإن كانت قد بدأت قديمًا لكنها متخفية بمثالية مجتمع زائف» عبارة لبداية مقال قد قرأته قبل فترة لكاتب عربي وكان يتحدث عن شكل من أشكال الطبقية في مجتمعه وكيف أنه يعاني حاليًّا جراء هذه التصرفات الطبقية، وكيف يمكن أن تؤثر مستقبلًا نتائجها في المجتمع بشكل أكبر.

الكل يعلم ويعاني من أشكال الطبقية ونتائجها في مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وفي بلادنا الجميع ذاق مرارتها وهو يرى كيف يعامل الغني، وكيف يعامل الأمير والشيخ والوزير والوكيل والقائمة تطول. لكن في الحقيقة لا تعادل شيئًا تلك القائمة مقابل باقي الشعب الكادح من حيث العدد.

وأنا أكتب هذه الكلمات لست بصدد سرد أشكال الطبقية في بلادنا وكيف يعاني مجتمعنا من تفشي هذه الظاهرة بشكل كبير، وتذمر الشارع من كبير وصغير وحتى من كان لا يفقه حقوقه سابقًا بدأ يدرك ويلاحظ هذا التمايز الكبير بين مواطني هذا المجتمع. هذا سنتركه للحوار فيما بعد.

سأذكر حوارا دار بيني وبين قريب لي، كان محتوى الحوار في نفس الموضوع وهو تفشي الطبقية في بلادنا. الغريب في الموضوع على رغم من بساطة حاله، وقصر ذات اليد لديه، وهو يعلم كل مظاهر الطبقية في مجتمعنا،

لكنه لم يكن يتذمر قط من الموضوع! بيد أن السبب هو استناده على قناعة ذاتية يراها هو صحيحة وحقيقة وواقعا لا يتغير -وأنا أعلم الكثيرين ممن لديهم القناعة نفسها- أذكر إحدى العبارات التي قالها: «هذا شيء طبيعي، وغير ممكن المجتمع يصبح كله أغنياء. لو حدث ذلك من سيخدم الثاني! لازم حد غني وحد فقير، وحد يأمر وحد يطيع».

هل قناعته صحيحة أم لا سنعرفها الآن. أولًا بما أننا نعيش في مجتمع مسلم ومحافظ حتى النخاع والإسلام ضارب بأصالة جذوره في مجتمعنا ولا يمكن أن نعمل شيئًا يخالف هذا الدين - وأتمنى أن يضرب بأصالة جذوره في عقولنا لا فقط عاداتنا الاجتماعية؛ لأن عقولنا هي من ستقوم عاداتنا وهذا موضوع آخر- السؤال هنا هل جاء الإسلام ليلغي كل صور الطبقية! الجواب هو (لا).

إذن هل توجد طبقية في الإسلام! الجواب (نعم)، توجد طبقية وهذا ما يوضحه الله سبحانه وتعالى في محكم كتابة مخاطبًا رسوله «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا» صدق الله العظيم. إذن هل الإسلام أطلق الطبقية على مصراعيها لكي يأكل القوي الضعيف والغني الفقير!

ما الفرق بين الإسلام والأفكار الماركسية الشيوعية التي رفضت فكرة الطبقية في التنظير وحاربتها في التطبيق وألغت جميع الطبقات، وجعلت الطبقة السائدة هي طبقة البروليتاريا وتسمى الطبقة العمالية!

ما الفرق بين الإسلام والغرب الليبرالي الذي يرفض نهائيًّا فكرة الطبقية المغلقة القديمة!

الإسلام أقرَّ بوجود فروقات بين أفراد المجتمع وأقر بأنها سنة كونية

حتمية لا مفر منها، لكنه قيّد هذه الطبقية، وجعلها على أساس طبقي مفتوح وليس مغلقًا، تأتي عن طريق الكسب الشرعي والجد الشخصي والكسب الفردي لا عن طريق الوراثة والعرق والحسب والنسب، كما كان يحدث سابقًا في الحضارات القديمة، حيث الطبقة العمالية والفقيرة تبقى على حالها دون ارتقاء ولو توالت الأزمان والأجيال. لهذا نقول نعم للطبقية الاجتماعية المفتوحة للجميع التي يكون قانونها الجد والجهد الشخصي، وتسقط الطبقية المغلقة المحصورة التي عنوانها الحسب والنسب.

أخيرا نطرح سؤالًا، ما أشكال الطبقية المغلقة في بلادنا وما المؤسسات أو الجهات الحكومية الرسمية التي تدعم هذا النوع من الطبقية؟

***

وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

هذا للأسف حال مجتمعاتنا، دائمًا نندد بالظالم ونلقي اللوم عليه وننسى أنفسنا ونتناسى ما قدمته أيدينا من أفعال وما قدمته ألسنتنا من أقوال تعين هذا الظالم على ظلمه والمستبد على استبداده ليعيثوا في الأرض فسادًا وجورًا وبهتانا.

نحن نستحق الظلم لأننا خالفنا بكل بساطة قانونًا ربانيًّا واضحًا. الله سبحانه وتعالى أمرنا بالوقوف ضد الظالم في ظلمه وجوره لا نميل معه ومع أعماله الظالمة؛ لأن الله وعدنا بعدم النصر والتوفيق في وقوفنا مع الظالم. قال تعالى: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» صدق الله العظيم.

واضح جدًّا من الآية أن الله سبحانه وتعالى أولا يتوعد من يقف مع

الظالم أن تمسه النار، وأيضًا عدم النصرة والتوفيق من عنده. لكن يجب أن نقف وقفة تأملية مع هذه الآية. هل المقصود هنا فتمسكم النار، هي نار جهنم فقط حيث سيكون مصير الظالم، أم نار الظلم الذي سيأتيه ويلحقه جراء ميله ومساندته للظالم في الدنيا أيضًا؟!

يجب أن نقف وقفة جادة أمام أي ظلم يصدر من أي ظالم؛ فلا يكفي إلقاء اللوم على الظالم فحسب؛ فعلينا أن نتخذ إجراءات عملية وحقيقية في سبيل التحرر من أي ظلم، وقهر، واستعباد من أي مستبد، والتعلم من سلفنا الصالح من الصحابة الكبار الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في نشر العدل ونصرة الحق وإعطاء كل ذي حق حقه. فجميعنا يعلم قصة الفاروق مع الصحابي سلمان الفارسي رضوان الله عليهم عندما وقف الأخير وقفة صارمة عندما شعر فقط أن الفاروق قد ظلمه وظلم غيره من الصحابة في توزيع القماش وقال: «لا نسمع منك ولا نطيع». لكن بعد ما علم بخلاف ما شعر به من ظلم بكى وقال: «قل الآن نسمع، وأمر نطع». سبحان الله من كان أعدل من الفاروق في زمانه وزمان خلافته والتاريخ يشهد بذلك. لكن الصحابة لم يتهاونوا أبدًا في مراقبته ومحاسبته.

هذه هي الأمثلة التي يجب أن نتعلم منها وهذه هي الحياة التي يجب أن نتبعها. وعلينا ألا نستمع إلى الأصوات التي تشترى بالأموال والمنصب من علماء وفقهاء السلطة، الذين يفسرون القرآن على أهوائهم الضعيفة، حيث يفسرون المصلح في هذه الآية - قال تعالى: «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» - بالإنسان كثير العبادة والمفسد هو من يشوش على المستبد لا من يخالف ويخرب نظام الله. ويذكرني هذا بمقولة المصلح والمجدد الكبير عبد الرحمن الكواكبي عندما يقول ساخرًا: «من أين جاء فقهاء الاستبداد بتقديس الحكام عن المسؤولية حتى أوجبوا لهم الحمد إذا

عدلوا وأوجبوا الصبر عليهم إذا ظلموا وعدوا كل معارضة لهم بغيًا يبيح دماء المعارضين».

لا يمكن أن نتخلص من بطش، وظلم المستبد الظالم، وما زلنا نحن نظهر له كل مظاهر وأشكال الذل والخذلان والخنوع حتى في أبسط حقوقنا. يجب أن نتعلم كيف نواجه ونرفض هذا الظلم بشتى أنواعه وعدم القبول به في مجتمعاتنا بجميع أفراده ويكون رفضًا شاملًا، نفسيًّا وعقليًّا وأخلاقيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا. وهذا ما يأمرنا به ربنا في محكم كتابه «والله لا يحب الظالمين». ليس هذا فحسب، يجب الجهر بظلم وحقيقة الظالم والتشهير بجميع أعماله الاستبدادية الدينية والاجتماعية والعلمية والمالية حتى يعلم الجميع بحقيقة الظالم قال تعالى: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعًا عليمًا».

وأخيرا أختم كلامي بكلام الكواكبي رحمة الله عليه: «إن المستبد هو سيف الله في الأرض على القوم الآبقين فينتقم به ثم ينتقم منه».

رسالة للمستبد الظالم

يُحكى أن الحجاج حبس رجلًا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج بينة وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا غدًا عند الإله من الظلوم
أما والله إن الظلمَ لؤم وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس أداموه وينقطع النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

***

«من رضع ثدي الذل دهرا...رأى في الحرية خرابا وشرا»

محمود درويش

لوهلة من الزمن أمام الكيبورد، كلتا يديّ متسمرة وعقلي مشوش وحائر وأنا أحاول أن أبدأ هذا المقال، الأفكار تتسابق لتحظى بالأسبقية. قررت بعدها أن أتوقف، تذكرت عدة مقولات شعبية منتشرة بين المواطنين «ابن عمك أصمخ» و«كأنك تنفخ في قربة مخروقة»، وكثيرة هي المقولات التي تنتشر بيننا كأنها مخدر، مفعولها لا يختلف عن المخدر الذي يعطى للمريض وهو على السرير في غرفة العمليات، وأشهرها «مد رجلك على قدر لحافك»، وهذا هو المواطن لا يتخلف، يمد رجليه لطول مناسب لا يزيد عن لحافه لسنوات، بل هي عقود وهو صابر رغم حلك الليالي ومرها، وضيم الزمان وهمه، إلى متى يا مواطن وأنت تعيد وتعيد مقولة ورثتها عن آبائك و أجدادك، وستورثها لأبنائك وأحفادك، القناعة كنز لا يفنى.

سُلبت جميع حقوقك وحرياتك وأنت ما زلت ذلك الشخص القنوع البسيط، القناعة جميلة والبساطة أجمل، لكن كما يقال لكل شيء حدود، وكلما زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده. أنا أستغرب من المواطن الذي لا يستطيع أن يأكل ثلاثة وجبات في اليوم، وما زال يمدح في حكومته ويشكرها، أو أن البعض يختزل الحكومة في الملك لأن الإعلام أفهمه هذه الحقيقة. وإذا انتقِد الملك أمامه قال «أستغفر الله ماذا تقول، الملك عيشنا وعطانا من خيره وبنى لنا مدارس ومستشفيات وعمل لنا شوارع».

من السبب في ضياع حقوقنا؟!، من السبب في ضياع العدل؟!،

من السبب في ضياع الحريات العامة؟!، من السبب في انتشار الاستبداد والاحتناق؟!، ومعاناتنا من سطوة الظلم وجور الطبقية؟! «نحن السبب». وكما تكونون يولى عليكم، في ظل غياب الوعي العام، عن ماهية حقوقنا وواجباتنا، ومستوى الحريات المطلوب في أي دولة ديمقراطية تحكمها المؤسسات العادلة، غياب الوعي عن الدور الرئيسي والحقيقي لأي حكومة ولأي حاكم ينوي الصلاح والإصلاح، من يدرك أن الدولة الحق ما هي إلا شركة أنشأها المجتمع أو الأفراد لصيانة تلك الحقوق والحريات.

«فاستخف قومه فأطاعوه» واستخففنا واستخف بنا وبعقولنا طوال السنوات المنصرمة بعدة عبارات ما أنزل الله بها من سلطان، النهضة المباركة والحكومة الرشيدة والخصوصية الوطنية، طبعًا في ظل وجود هالة إعلامية قوية هولت موضوع الرشد والرشاد والنهضة والتغيير وأهمية خصوصياتنا، والنتيجة الانجرار الأعمى والسخيف للأسف بدون الوقوف للحظة مع أنفسنا ونسأل: ما هو حجم الإنجاز الذي حدث؟!، وما هو الإنجاز الحقيقي؟!، هل هو كثرة الشوارع والمدارس والمستشفيات فحسب! هل وقفنا مع أنفسنا وقارنا دولتنا مع دول حدثت نهضتها بعدنا بسنوات؟!، ورغم قلة الموارد الطبيعية أو بالأصح قحط وانعدام تلك الموارد التي تملكها، فأين هم وأين نحن؟!، ماذا حدث معهم من إنجاز وتغيير وماذا حدث معنا من إنجاز وتغيير، لكن أن ندرك متأخرين خير من أن نستغفل طوال عمرنا، ونقف للحظة ونفكر بعين مجردة بعيدًا عن العاطفة وكل البعد عن كذب ونفاق التلفزيون والجرائد الحكومية.

إن لله سننًا ثابتة في هذا الكون «سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا» لا يمكن لأننا نمتلك الخصوصية كما تدعي السلطة دومًا أن نخرج من تلك الدائرة والسنة الربانية «أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

وهذا ما حدث في مصر وليبيا وتونس وقبلها في فرنسا وغيرها من الدول الغربية وأيضًا الآسيوية، ولكونها سنة كونية ليست لها علاقة بدين أو طائفة أو حزب، والله سبحانه وتعالى دائمًا ينصر الدول العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدول الظالمة ولو كانت مسلمة، والعدل أحد هذه السنن التي لا تجامل ولا تحابي أحدا ولا تتبدل، وهي نافذة «ولا يظلم ربك أحدًا» إذن القاعدة سبب ونتيجة لا أكثر. إذا تغيرنا تغير حالنا. وكل ما أدركنا ماهية حقوقنا ومستوى الحريات المطلوب لقيام دولة مؤسسات حقيقية، يسودها العدل والحق، دولة تنافس لتضع بصمتها في الخارطة العالمية الاقتصادية والعلمية والسياسية والرياضية، كانت هناك نتيجة ملموسة وواقعية.

ونحن المسلمين لدينا تاريخ نتشرف به ويجب أن نتعلم منه، ولكيلا نختلف نتحدث فيما لم نختلف فيه وتفقنا عليه، طبعا لا أحد يختلف في عدل النبي والخلفاء الراشدين، وكيف ساد العدل في زمانهم والحديث يطول، لذا نختصر ونستشهد بعدل الخليفة الذي قرن العدل باسمه، كل ما ذكر العدل ذكر اسمه، وإذا ذكر اسمه ذكر العدل. إنه الفاروق ولا أحد يختلف في ذلك، لكن، وهنا الأهم، على رغم إدراك كل الصحابة لهذه الحقيقة، وهي عدل الفاروق هل تركوه وقالوا له افعل ما شئت؟!، لا والله بل كانوا له بالمرصاد، وجميعنا يعلم عن قصته مع الصحابي سلمان الفارسي، كيف هو الأخير وقف وقال كلمة الحق لا سمع لك ولا طاعة، عندما شعر بالظلم ولم يمنعه جلالة عمر ومكانته من قول الحق، لكن عندما أدرك الحقيقة قال الآن نسمع ونطيع، هذا هو عمر الذي وقف له سلمان ولم يخف في الله لومة لائم، هذا هو عمر العادل الذي من شدة عدله قام بالحد مرة أخرى على ابنه عبدالرحمن عندما شرب الخمر، على الرغم أن عمرو بن العاص قام بالحد عليه لكن في السر ووبخه عمر على ذلك، فقام بالحد على ابنه أمام الناس حتى وافته المنية

من شدة العذاب، ومن شدة ورعه كان يقول أخاف أن يحاسبني الله على شاة تعثرت في العراق لماذا لم أمهد لها الطريق.

أين حكومتنا وملكنا من هذا العدل «قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» هل العدل بتضليل الرأي العام عن الحقائق؟!، وخداعهم بالنهضة المكذوبة، هل العدل بانتشار الفساد وانحلال الأخلاق؟!، هل العدل بفرض التقديس والتمجيد وكل مظاهر العبودية للملك وليس للخالق؟!، أين ما ذهبت ترى صورة الملك، منذ الطفولة ونحن نتعلم الدعاء للملك ونردده كل صباح، في الوقت نفسه في دول مجاورة يرددون النشيد الوطني الذي يرويهم كل يوم حب وولاء لوطنهم، لكن الله يمهل ولا يهمل، وهذا هو عدل الله في الدنيا، كل ما بنته الحكومة من هالة إعلامية قوية جدًّا في فرض حب الملك، وبرمجتنا للولاء والتقديس الأعمى والتبعية المطلقة، وكأن الملك لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه طوال العقود الماضية، ينهار الآن يوما بعد يوم، فنشاهد الكثير من الشعب الآن من كبير وصغير ورجال ونساء يتلفظ على الملك بما يصح وبما لا يصح من قول وفعل، «والله إذا أراد إسقاط حاكم أسقط هيبته من قلوب الناس (ابن تيمية)»

أرجع وأقول نحن كشعب مسؤول لسبب تخلفنا وبقائنا من ضمن العالم الثالث المتخلف رغم مرور إحدى وأربعين سنة على نهضتنا المزعومة، «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون» جميعنا يلمس الفساد المستشري في كل شرايين الدولة، وارتفاع صوت المفسد، بمجاهرته بفساده وظلمه وفسقه، هل نحن راجعون؟!

وفي الأخير أقول «مرارة الحق تنشأ من كراهية المبطلين له، وحرصهم

على إسكات دعاته مما يجعل الثائرين على الفساد يتعرضون لمكاره شتى، ومن هنا تتفاوت المراتب ويمحص الإيمان، فالمسلم البصير بما هو عليه من الحق، الواثق بما عند الله من خير، لا يبالي أن يقذف وبالكلمة الصادقة يزلزل بها كيان الظلم غير ناظر لبطش مخلوق... نحن في أيامنا هذه لا نشكو فحسب من الشياطين الخرس التي تعرف الحق وتكتمه، بل نشكو من الولاة الفجرة في بلاد الإسلام، يجدون من يعين على الشعوب معهم، ومن يصنعون الفتاوى المكذوبة لتسويغ مآثمهم، والدين وحده ضحية هذا الفجور من الظالمين والمظلومين والمسوغين والمقتنعين «محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي».

***

الخطاب السياسي الإسلامي بين مطرقة جمود التقليديين وسندان جحود التغريبيين

لا يوجد إنسان يمتلك الحقيقة المطلقة ولا الصواب الكامل، ومن هذا المنطلق وهذه القناعة يمتلك كل إنسان تواضعًا وتقديرًا لذاته واحترامًا للآخرين.

وهذا ما جاء الإسلام ينادي به منذ ولادته والرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ضرب لنا أفضل الأمثلة في هذا السياق عندما كان يأخذ ويستفيد من غيره من المسلمين وغير المسلمين، والاستفادة مما يملكونه من صواب مهما كان حجم خطئهم، حيث إن الصواب والخطأ نسبيان في بني الإنسان، وهذا يدلنا على البعد الفكري البشري العميق عند الرسول بجانب

كونه رسولًا ببعد نبوي ورسالي معصوم، وتربى على هذا المنهج صحابته الكبار فنجد أبا هريرة رضي الله عنه يستفيد من الشيطان في قيمة آية الكرسي لتحصين الإنسان من الشيطان.

فلا يجب أن نقف وقفة معارضة لكل ما يأتينا من الغرب وفي الوقت نفسه لا يجب الذوبان ونقل تجربتهم بحذافيرها، فليس جميع ما يصلح معهم يصلح معنا، والسبب هو الاختلاف في البعد الديني والحضاري والثقافي في مكونات مجتمعاتنا العربية الإسلامية؛ فنجد الكثير من التقليديين الجامدين يقفون موقفًا صارمًا حيال كثير من التغيرات التي تحدث في مجتمعاتنا في جميع المجالات ويصفونها أنها دخيلة على مجتمعاتنا ومن ينادي بها هو تغريبي أو تأثر بالفكر التغريبي، وفي الطرف الآخر نجد الكثير من انبهر بالحضارة الغربية ويرى أنها هي التجربة الحقيقية التي يجب أن نحتذي بها في مجتمعاتنا لنرى النور وهي السبيل الوحيد للإصلاح ورفع من قيمتنا.

من يرى أن أساس التقدم الحضاري عند الغرب هو عزل الدين في الكنيسة عن كل مجريات الدولة وعزل الدين عن العلم فهو صحيح. حيث إن الدين كان حجر عثرة أمام تقدم العلوم، لكن هل صحيح أن الإسلام يشكل حجر عثرة وعائقًا أيضًا أمام تقدمنا العلمي والحضاري، ولكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعلم الفرق بين مفهوم الدين والكنيسة عند الغرب سابقًا وبين مفهوم الدين الإسلامي. فما تأخر المسلمون إلا بسبب هجرهم للإسلام الذي تتزاحم فيه قيم الحضارة والتقدم من اهتمامه بالعلم والفكر والعمل والإنتاج واهتمامه بالحريات وحقوق الإنسان. وفي هذا يقول المصلح الكبير السيد جمال الدين الأفغاني - مؤسس تيار الجامعة الإسلامية الذي كان يدعو للإصلاح والتجديد الفكري- « إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سببًا واحدًا وهو القصور في التعليم

الديني، إما بإهماله جملة كما هو في بعض الدول وإما بالسلوك إليه من غير طرقه الصحيحة»، ومن وجهة نظري السلوك من غير طرقه الصحيحة هي الأخطر، لأن الإهمال نهائيًّا يكون واضحًا للعيان ويمكن تغييره.

وهذه دعوة لجميع المنبهرين بالحضارة الغربية والتي يجب أن نتعلم منها دون شك دون الذوبان في أعماقها. وما على اليساريين والعلمانيين الباحثين عن الحقيقة إلا أن يقرأ كتاب المجدد والمصلح الكبير في العصر الحديث الشيخ محمد الغزالي «من هنا نتعلم».

أين طريق الإصلاح؟! سؤال يجب علينا أن نجيب عليه. هل هو بالجمود عن كل ما يدور من حولنا وما قام بتطبيقه الغرب وسبقونا به وصلوا إلى ما وصلوا إليه من تقدم؟!، أم بالذوبان في تجربتهم ونقلها وتقليدها بطريقة عمياء ونكران وجحود لكل تعاليم الدين الإسلامي؟ الطريق هو «الوسطية في الفكر، والموازنة بين النقل والعقل»؛ فالنقل هو المثال والعقل هو الذي ينزل المثال على الواقع ويرتقي به. النقل يمثل السلطة التشريعية والعقل السلطة التنفيذية، وبهذه التركيبة الفكرية نضمن الأصالة والمعاصرة والثبات والمرونة بين كل ما يأتينا من الغرب وبين كل ما يدعو به ديننا الحنيف من تعاليم.

وهذا ما جاء يدعو به الإسلام من تعاليم وسطية وشمولية تخاطب جميع الناس كافة ولا تخاطب المسلمين فحسب، ولا تبحث عن حلول لمشكلات المسلمين فقط بل إلى جميع مشكلات العالم أجمع وهذا عكس ما كانت تدعو به الكنيسة سابقا من تعاليم، التي كانت تنشر الحقد والبغض ضد الحضارات الأخرى بغض النظر عن حكرهم للعلوم وقتلهم للعلماء. فلا ريب إذن عندما خرج الغرب ضد الكنيسة وضد تعاليمها مما أدى إلى تهميشها نهائيًّا، أين الإسلام من هذا؟!

الإسلام جاء ليوازن بين حقوق وواجبات الفرد وحقوق وواجبات المجتمع دون أن يسحق الفرد تحت أقدام المجتمع كما حدث في المجتمعات الاشتراكية قديما وحديثا، ودون أن يسلب الفرد كثيرًا من حقوق المجتمع كما في المجتمعات الرأسمالية والإقطاعية قديمًا وحديثًا؛ فجاء الإسلام ليوازن بين الاثنين ويهتم في مكونات المجتمع من أفراد لأن الفرد هو أساس المجتمع من خلال الجمع بين سلطة الإيمان الداخلي (الضمير أو الخوف من الله) وسلطة الرقيب الخارجي (الحكومة أو القانون).

وهنا اختلف المصلحان الكبيران محمد عبده وأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني في عملية الإصلاح ومن أين تبدأ. هل الأهم لإصلاح المجتمع هو الدخول من بوابة الفرد والتربية كما نادى بها محمد عبده أم من بوابة الحكم والسلطة والقانون كما يعتقد الأفغاني؟ وكما يقال اختلاف الرأي لا يفسد في الود قضية، حيث إنهما اجتمعا في الغاية والهدف واختلفا في الوسيلة، اجتمعا أن التربية والتعليم للفرد هي من أولويات الإصلاح، فالفرد هو المكون الحقيقي لأي مجتمع فإذا صلح، صلح المجتمع، ويؤكد هذا بديع الزمان النورسي - هو الأب الروحي لكل الحركات الإسلامية الإصلاحية الحديثة في تركيا والملهم الأول لجميع الإصلاحيين مثل نجم الدين أربكان ورجب طيب أردوغان وعبدالله جول- فيقول إن أشد أعدائي -ويقصد أعداء الإصلاح- في أي مجتمع هم الجهل والفقر والفرقة، وهذا يدلنا على أهمية التعليم في ارتقاء وتقدم أي مجتمع ودليل واضح لأي حكومة إذا كان اهتمامها على التعليم فهي تنوي الخير والصلاح للمجتمع أما إذا كان غير ذلك فلا خير فيها.

***

المخصصات المالية والامتيازات للأسرة المالكة

«الجدران لها آذان» عبارة لطالما ترددت على مسامعنا، ونحن نمارس حقًّا من حقوقنا، حيث الحديث بشكل جاد أو غير جاد حول القضايا السياسية أو/ والتي تسمى سياسية وهي غير ذلك. لماذا هذا الخوف والهلع؟ ومِمّن؟ هذا موضوع آخر وسيجرني التطرق إليه بعيدًا عن صلب الموضوع الذي أود الحديث حوله.

من المواضيع التي تُطرح همسًا في المجالس، وفي الكثير من البيوت بلسان يحمل الكثير من التساؤلات والتعجب والغبن والمظلومية «موضوع المخصصات المالية والامتيازات التي يتحصل عليها أفراد الأسرة المالكة»!، وتزيد تلك الامتيازات كل ما اقترب نسبك من نسب الملك. وهناك أيضًا التغيير المفاجئ حول صفة الأسرة – إن صح التعبير– التي ينتمي إليها ملك البلاد من الأسرة الحاكمة إلى الأسرة «المالكة».

في الحقيقة ما ألهمني لكتابة هذه الأسطر هي»تغريدة« لأحد الكتّاب في تويتر عندما غرّد قائلًا: «أعتقد أن الوقت قد حان؛ لفتح ملف الأسرة الحاكمة لمعرفة مخصصاتها المالية، ونفقاتها وكل الملفات المجهولة في هذا الشأن. وعلى الرغم من توقفي منذ أشهر عن التدوين، لكنني قررت العودة للتدوين بعدما علمت أن الكاتب قد استُدعي من قبل الأجهزة الاستخباراتية للتحقيق ومن ثم تم اعتقاله بسبب تلك «التغريدة»!

كمواطن أصيل «أبا عن جد» وولدت على أرض هذا الوطن، هل يحق لي الحديث والسؤال عن قيمة تلك المخصصات، ونوع تلك الامتيازات

التي يحصل عليها أبناء الأسرة «المالكة» منذ خروجهم من بطون أمهاتهم حتى الموت؟

من له الحق في الإجابة عن هذا السؤال هو القانون، دستور البلاد الذي منحه المشرع للشعب والممثل الأول للقانون. بلغة بسيطة ومتسلسلة سأحاول استعراض هذا الموضوع غير الجديد على المواطن.

– المادة 39: «حرية الرأي والتعبير عنه بالقول والكتابة وسائر وسائل التعبير المكفولة في حدود القانون».

هل يحق لأي سلطة موجودة في البلد أن تعتقل وتحاسب شخصًا ما يمارس حقه في حرية التعبير؛ للمطالبة بحقه أو السؤال عن حقوقه في بلده؟ حسب الدستور «أن كل مواطن يحق له التعبير عن رأيه قولا وكتابة وسائر وسائل التعبير المكفولة في حدود القانون».

هل الحديث حول مخصصات (الأسرة المالكة: صاحب السمو الأمير، جناب الأمير، الأمير)[23] وامتيازاتها التي تحصل عليها من الدولة (نوعها وقيمتها) خارج عن حدود القانون؟

– المادة 19: «يقوم الحكم في المملكة على أساس العدل والشورى والمساواة. وللمواطنين – وفقًا لهذا الدستور والشروط والأوضاع التي يبنيها القانون حق المشاركة في الشؤون العامة».

– المادة 22: «العدل والمساواة وتكافؤ الفرص بين المواطنين دعامات للمجتمع تكفلها الدولة».

– المادة 27: «المواطنون جميعهم سواسية أمام القانون، وهم متساوون

23. ألقاب تستخدمها السلطة في تقديم أعضاء الأسرة المالكة ويختلف مستوى رفعة وقدر اللقب حسب الترتيب التالي: صاحب السمو الأمير، جناب الأمير، الأمير. (الرسول)

في الحقوق والواجبات العامة ولا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللون أو اللغة أو الدين أو المذهب أو الموطن أو المركز الاجتماعي».

كما هو واضح وجلي، فالدستور لا يفرق بين المواطنين من حيث الأصل والمركز الاجتماعي. ويؤكد أن الحكم قائم على العدل والمساواة وتكافؤ الفرص بين المواطنين. ولكن هل حصول أفراد الأسرة «المالكة» على تلك الامتيازات بسبب مركزهم الاجتماعي هو من العدل والمساواة وتكافؤ الفرص؟

أين المخالفة القانونية التي أرتكبها، وأنا أطالب بالعدالة الاجتماعية؟!، أين المخالفة القانونية، وأنا أطالب بفتح ملف الأسرة «المالكة» لمعرفة مخصصاتها المالية وامتيازاتها؟، أين المخالفة القانونية، وأنا أسأل لماذا لهم هذه المخصصات والامتيازات؟، أين المخالفة القانونية وأنا أسأل لماذا تغير وصف الأسرة من الأسرة الحاكمة -وهو الأصوب- إلى الأسرة «المالكة» وماذا يعني؟ أين المخالفة القانونية وأنا أطالب بفتح الملفات المجهولة والمؤثرة على التركيبة الاجتماعية ومفهوم قيمة المواطنة والاقتصاد؟

بلا شك إن معرفتنا بأسرار تلك الملفات وغيرها من الملفات المجهولة التي أناخت بكلكلها على تفكير وجيب المواطن مثل الامتيازات التي يحصل عليها مشايخ السلطة وأقصد مشايخ القبائل والدين وبعض المقربين من السلطة لا تغني المواطن من جوع. ولا شك أن الموضوع عميق بجذوره، ولا يمكن التخلص منه بقطع الساق من الأعلى. أفراد تلك الأسر تشربت تلك الامتيازات، وترعرعت عليها حتى بدأ يؤمن بعضهم أنها حق من حقوقهم، ولا يمكن نزعها منهم. وليس هذا فحسب، البعض منهم أخذته أحلامه ليؤمن أن الوطن وثرواته ملك له، وكل ما يحصل عليه المواطن من فتات هو تكرم وتفضل منه!

توجد نقطة مهمة يجب الإشارة إليها لكيلا يتحجج البعض بها، وهي وجود الأسر المالكة حتى في بعض الدول الديمقراطية الغربية؛ لكن هنالك فرق مهم، وهو أن تلك الممالك هي ممالك دستورية؛ فالأسرة تملك الحكم ولا تحكم، إذ تحكم البلاد سلطة تنفيذية منتخبة من الشعب. ولذا حسب الدستور المتفق عليه مسبقًا بين الشعب والأسرة يحق للحكومة معرفةالمخصصات والنفقات المالية للأسرة. إضافة إلى أن عدد أشخاص الأسرة محدود جدًّا ومعروف.

وفي الحقيقة، تبقى هذه المشكلة أحد القضايا «الهامشية» رغم تأثير وقعها الكبير على المواطن، وحلها لن ينهي مشاكلنا ما دامت القضايا الأهم والرئيسية قائمة، والتي من خلالها يمكن أن نتخلص من القضايا الهامشية بسهولة ويسر وبطرق قانونية.

والحل الجذري لتلك القضايا هو وجود دستور مدني توافقي بين الشعب وملكه، يضمن تعزيز مفهوم المواطنة، واعتبارها الركيزة الأساسية التي يؤخذ بها في الحقوق والواجبات وتوافر الفرص. كما يضمن أيضًا وجود رئيس وزراء منتخب مع تداول السلطة. ويضمن إعطاء مجلس النواب الصلاحيات التشريعية والرقابية الحقيقية والكاملة، ووجود محكمة دستورية وبناء استراتيجية طموحة تنظم وتدفع دفة التطور في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمية والصحية تدركها كافة شرائح المجتمع.

المرفق 2

الجماعات العلمانية في الخليج العربي أي واقع وأي مستقبل؟

فلسفياً، تعني العَلمانية -بفتح العين- الاهتمام بكل ما له علاقة ومنتم إلى العالم والدنيا دون النظر إلى العالم الروحي الميتافيزيقي، بخلاف ما يعتقد به البعض عندما يربط ويحصر مفهوم المفردة بالعِلم فقط. واصطلاحًا، أبسط تعريف لها هي شكل من أشكال إدارة الدولة الذي يقوم بفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية ورجالاتها ويكون جميع المواطنين بمختلف أعراقهم ومعتقداتهم متساوين أمام القانون في الواجبات والحقوق بحكم المواطنة.

ويقول ديفيد بولوك، عضو في مجلس أمناء الرابطة البريطانية الإنسانية، في عنوان مقالته في الجارديان: «العلمانية هي الحياد تجاه الدين كله بما في ذلك الإلحاد». وهذا يعني أن العَلمانية ليس هدفها محاربة الدين، مثل ما يفهم البعض، قدر ما هو تحييد للدين ورجالاته عن السياسة وشكل إدارة الدولة والوقوف في مسافة واحدة من جميع المواطنين باختلافاتهم.

وفي وقتنا الحالي، معظم دول العالم وفي مقدمتها الدول الديمقراطية الكبرى تطبق العَلمانية في شكل إدارة الدولة. ورغم أن مفردة العَلمانية لم تذكر حرفياً في كثير من دساتير هذه الدول إلا أنها لم تحدد في ذات الوقت دينًا معينًا للدولة، وهذا أول وأهم مبدأ تقوم عليه العَلمانية. فالدستور الذي يتم

ذكر فيه أفضلية دين ما على سائر الأديان، ومذهب ما على بقية المذاهب هو دستور كهنوتي طائفي مذهبي، النتيجة هي تأصل الفكر الطائفي والمذهبي في العقول والنفوس ولو كانت المظاهر عكس ذلك. وكذلك الدستور الذي يتم ذكر فيه أفضلية قبيلة ما على سائر القبائل، وأسرة ما على باقي الأسر هو دستور يعزز القبلية ويؤصلها في المجتمع، النتيجة هي انتشار المحسوبية والولاء للقبيلة قبل الوطن والمواطنة. وأهم فكرة تطرحها العَلمانية وتحاول تأصيلها في شكل إدارة الدولة وفي العقل الجمعي في المجتمع هي فكرة المواطنة. إذ أن مصطلح المواطنة يكاد يكون رديفا ملاصقا لماهية العَلمانية.

بيد أن هناك جدلًا ولغطًا كبيرًا يدور حول مصطلح «العَلمانية» وتطبيقاتها في العالم الإسلامي العربي بشكل عام والخليجي بشكل خاص. وبسبب حساسية وقعها المفرط على المتلقي، بات كثير من المفكرين والكتاب العرب أصحاب التوجه الليبرالي والعَلماني يتجنب في أحيان التصريح بها ويستعير بدلًا منها مفردة «المدنية» مخافة الصدام أو بهدف محاولة تعزيز فائدة تطبيقات الدولة العَلمانية عند المتلقي دون أن تكون مفردة العَلمانية عائقًا أمام ذلك.

في هذا المقالة سأحاول عمل مقاربة لواقع ومستقبل الجماعات العلمانية في دول الخليج العربية وفرص تموضعها داخل الأنظمة السياسية.

الواقع

بعد الإخفاق المرير للأيديولجيات القومية والشيوعية وشعاراتها الخاوية التي قامت بشكل أكبر على الغوغائية وليس البعد الإبيستمولوجي، خاصة بعد هزيمة 67 والنكسة الجيوسياسية والمعنوية التي صاحبتها مع استمرار

الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وتوسعه المستمر، نتج عن ذلك صحوة إسلامية وظاهرة تدين سلفي وراديكالي بصفة عامة، وظهور آيديولوجيا الإسلام السياسي كبديل لتلك الأيديولوجيات السابقة التي يزعم منظروها وساستها أنها الحل الأنجع لجميع مشكلاتنا وأزماتنا العربية الإسلامية.

ولم يكن الخليج العربي بمعزل عن كل هذه التطورات، خاصة ونحن نعلم أن أهم وأكبر دولة في شبه الجزيرة تعتبر المصدِّر الأكبر للفكر السلفي. هذا الواقع أدى إلى انسداد أبستمولوجي شعبي على مستوى العقل الجمعي وبات يرفض أو يتوجس من كل ما هو غربي تحت حجة قضية المؤامرة أو في أحايين كثيرة مجرد جهل ونقص في المعلومة كما يحدث مع مفردة العَلمانية. وفي الحقيقة أسهم زاعمو النهج العَلماني في غرس الكثير من المغالطات في ذهنية رجل الشارع البسيط المتمسك والمدافع عن دينه حول ماهية العَلمانية وتطبيقاتها بسبب ضعفهم الأبستمولوجي حول النهج الذي يزعمونه، واعتمادهم على الغوغائية في الطرح لا يختلف عن غوغائية الكثير من القوميين الشيفونيين والشيوعيين الدغمائيين سابقًا.

ولهذا، من أهم التحديات التي يواجهها المواطن الخليجي العلماني الحقيقي الذي ينطلق من منهجية معرفية راسخة هي قضية انعدام الثقة بينه والمتلقي. لا سيما في وجود تقارب وتقاطع مصالح بين السلطات السياسية والدينية تصل قمة ذروتها في بعض الدول كزواج مقدس بين السلطتين. كل هذا أدى إلى وجود مساحات كبيرة يتحرك فيها رجل الدين السلفي بحرية لنشر أفكاره وآرائه لا سيما عبر الإعلام.

ومن ضمن الأخطاء والمعضلات التي وقع فيها بعض من يحملون رايات المشاريع المدنية والتقدمية من مفكرين وكتاب عندما وضعوا خيارهم وولاءهم بين فكي كماشة، بين ثنائية الدولة الدينية و(العسكرية أو دولة

الفرد أو الأسرة)، والذي حسب منظورهم يقع تفضيلهم واختيارهم على أقل وأخف الضررين، الخيار الثاني. ولد هذا إلى أزمة ثقة وقلة مصداقية بينه وبين المواطن البسيط الذي لا يهمه إلا المطالبة بأبسط حقوقه.

هذا على مستوى العقل الجمعي الشعبي، بيد أن هناك أيضًا إشكالية وتحديًا آخر تواجهه الجماعات العلمانية في الخليج، وهو عدم وجود مشاركة سياسية فعلية عبر وجود أحزاب سياسية تنطلق من رؤى ومناهج وأيديولوجيات من ضمنها العلمانية، باستثناء تجربتين خليجيتين. لذا فالمقصود هنا بالجماعات العلمانية ليس أكثر من أفراد يتحركون بشكل فردي ويتقاطعون بقناعات متماثلة أو متقاربة. وعدم السماح بتأسيس أحزاب والعمل فيها بهدف المشاركة السياسة أسهم بشكل كبير في تقليل، أو حتى عدم تأثير وفعالية الفرد العَلماني في المجتمع بأفكاره فضلًا عن قدرة تموضعه المؤثرة وفعاليته في الحكومات. حيث إن الأحزاب بطريقة عملها التنظيمي الممنهج القائم على برامج سنوية أكثر قدرة على الضغط والتأثير.

أضيف، أن هذا الواقع أدى إلى وجود ديمقراطية شكلية على مستوى البرلمانات في دول الخليج لا تتجاوز الصندوق -على الرغم أن معظم هذه البرلمانات أيضًا هي شكلية فقط وتفتقر للصلاحيات وهذا موضوع آخر؛ حيث إنها قائمة على الأكثرية والأقلية الطائفية والقبلية وليس الأكثرية والأقلية السياسية. ونتيجة لعدم وجود الأحزاب السياسية وكذلك عدم وجود عَلمانية في شكل إدارة الدولة بتبنيها دين ومذهب يمثلانها.

المستقبل

في حوار مع صحيفة (لوموند) الفرنسية عن تحول مسار حزب النهضة

التونسي القائم على فلسفة الإسلام السياسي، صرح راشد الغنوشي زعيم النهضة وأحد أهم منظري الإسلام السياسي في تونس والعالم الإسلامي قائلاً: «نخرج من الإسلام السياسي لندخل في الديمقراطية المسلمة. نحن مسلمون ديمقراطيون، ولا نعرف أنفسنا بأننا إسلام سياسي».

وأكد الغنوشي أن النهضة «حزب سياسي، ديمقراطي، ومدني له مرجعية قيم حضارية مسلمة وحداثية». وأضاف: «نريد أن يكون النشاط الديني مستقلًا تمامًا عن النشاط السياسي. فهذا أمر جيد للسياسيين لأنهم لن يكونوا مستقبلًا متهمين بتوظيف الدين لغايات سياسية. وهو جيد أيضًا للدين حتى لا يكون رهين السياسة وموظفًا من قبل السياسيين».

نلاحظ أن الإسلام السياسي عندما كان في صف المعارضة كان يغطي فجاجته بالمظلومية وكان يكابر ويضع نفسه فوق الانتقاد لأنه الممثل الأعلى للدين والناطق به. لكن عندما أصبح في وضع الحاكم في أكثر من جغرافيا، بانت نواقضه وظهرت فجاجته وتأخره وانفصاله الأبستمولوجي والكوسموبوليتي؛ فكان لابد أن يلعب السياسة بانتهازيتها ويتنازل عن كل مبادئ «الإسلام السياسي»، ليبقى متشبثًا لأطول فترة ممكنة.

ذكرت أن أهم التحديات التي يواجهها الفرد العَلماني يمكن تصنيفها على مستويين: الأول أبستمولوجي، والثاني سياسي. المثال الذي ذكرته يعطينا صورة ومقاربة أن التغيير لا يمكن أن يحدث قبل أوانه، قبل أن تتوافر كل الأسباب والظروف الدافعة للتغيير. القرار الذي اتخذه حزب النهضة ليس بالقرار السهل الذي من الممكن أن نعتبره مجرد مناورة سياسية ليس إلا.

هي خطوة كبيرة باتجاه العَلمانية -عدوهم اللدود- ولو لم يصرحوا بذلك. بتفاؤل مفرط هذا التغير سيكون مؤثرًا في قادم السنوات على الإسلام السياسي في الوطن العربي والإسلامي بشكل عام لأنه سيقلل من وطأتهم على دعاة العَلمانية والأحزاب العلمانية في الخليج. وسيجد المواطن نفسه أمام أحزاب تتقارب في الطرح، ولا يوجد من يدعي الناطق باسم الدين والحقيقة الدوغمائية المطلقة، وهذا سيصب في مصلحة الجماعات العلمانية وزيادة فرصة تموضعها داخل الأنظمة السياسية، وهذا ما عنيته بالبعد الأبستمولوجي.

وأضيف بتفاؤل مفرط آخر أيضًا، هذا التحول قد يكون مؤثرًا حتى على مستوى القيادات في الخليج الذي سيدفعهم للتغيير وعلمنة الدولة، خاصة إذا اجتمعت ظروف أخرى مثل الضغط الشعبي المنظم للمطالبة بعمل إصلاحات سياسية تصل على مستوى عَلمنة الدستور، ليبقى أيضاً متشبثًا لأطول فترة ممكنة، وهذا هو البعد السياسي.

***

بعد الملكية المطلقة أيهما نختار.. الجمهورية أم الدستورية؟

من الأسئلة التي أصبحت متكررة في الحوارات التي تتطرق لأنظمة الحكم في الخليج العربي، وأهم الاختلافات بينها: هل تؤيد النظام الجمهوري أم الملكية الدستورية بعد الملكية المطلقة؟ طبعًا لا أحد يتحدث عن الملكية المطلقة لأنها باتت تقريبًا مرفوضة حتى من قبل مؤيدي النظم الملكية ورافضي النظم الجمهورية؛ لأن الأنظمة المطلقة باتت تقابل في

التوصيف في العلوم الإنسانية بالأنظمة الشمولية السلطوية (التوتاليتارية)، أو الدكتاتورية سواء كانت قائمة على نظام الفرد الواحد أم الحزب الواحد أو حكم الأقلية (الأوليغاركية).

هذا المقال سيستعرض دولتنا كمثال من خلاله سنحلل السؤال بهدف الوصول إلى مقاربة قد تساعد في معرفة الجواب الأنسب. بيد أنه قبل التطرق للشأن المحلي سأذكر أبرز مثال في أنظمة الحكم الدستورية، مقابل مثال في أنظمة الحكم الجمهورية، ودون الخوض في كل التفاصيل التي لا يسعها هذا المقال، سأقوم بعمل مقارنتين بسيطتين بين التجربتين: أولًا من حيث مبدأ العدالة التي يمكن أن تحققها كلتا التجربتين على مستوى مواطني الدولة الواحدة، هذا لو تناولنا مبدأ العدالة في جانب أو إطار ضيق، وأعني هنا فرصة وصول المواطن لأعلى مستوى اجتماعي وما يلحقها بالضرورة من وضع سياسي ومادي. ثانيًا من حيث سهولة التطبيق وقلة التضحيات التي احتاجها كلا المجتمعين للوصول لكلتا التجربتين بنجاح. ففي الأول تتبادر إلى الذهن التجربة الدستورية في المملكة المتحدة، وفي الثاني طبعًا تجربة الجمهورية الفرنسية.

أولا، في التجربة الملكية الدستورية هناك أسرة مالكة تملك ولا تحكم، وتمارس مهام معظمها بروتوكولية بخلاف التجربة الجمهورية، إذ لا توجد أسرة مالكة كما هو معروف. ولو تناولنا هذا الاختلاف من منظور العدالة الاجتماعية في جانبها الضيق والبسيط فسترجح كفة الإيجابية عند التجربة الجمهورية؛ إذ لا توجد فئة من الناس يحملون وصفًا ووضعًا ملكيًّا من قبل أن يولدوا، يلحقه بالضرورة مستوى معيشي مغاير عن المواطنين الآخرين.

ثانيًا، رغم أن بداية ملامح التجربة الدستورية في المملكة المتحدة بدأت قبل حوالي 800 عام، بالتحديد في 15 يونيو 1215، عندما اضطر الملك

جون إلى توقيع اتفاقية تعاقدية (الماغنا كارتا،Magna Carta أو الميثاق العظيم للحريات في إنجلترا) بينه والنبلاء والأساقفة لتحد من بعض صلاحياته وتنظم علاقته بهم، إلا أن تأثيرها كان محدودًا في أرض الواقع، وخضعت لعدة مراجعات من قبل الملوك المتعاقبين. لكن قيمة الوثيقة تكمن في أسبقيتها والسياق التاريخي الذي طرحت فيه؛ فكانت حينها قفزة نوعية نحوية الملكية الدستورية.

بيد أن التجربة الدستورية في المملكة المتحدة حسب شكلها الحالي تقريبًا لم تترسخ إلا سنة 1689، أي فقط قبل ثلاثة قرون ونيف، عندما أصدر البرلمان «ميثاق الحقوق» (Bill of Rights) بجانب مواثيق أخرى تلتها لكنها تقل أهمية مثل «قانون التولية، Act of settlement، و«قانون البرلمان، Parliament Acts» . وتكمن أهمية ميثاق الحقوق في أنها شملت جميع المواطنين الأحرار وليس فقط النبلاء كما حدث مع الماغنا كارتا.

السؤال الأهم هنا: هل نضوج التجربة الدستورية في المملكة المتحدة ونجاحها كان بالأمر الهين على السلطة والشعب؟ طبعًا الجواب هو النفي؛ فدائما الحقوق كما يقال تنتزع ولا تمنح، فما بالك لو كان هذا الأمر هو مشاركة السلطة صلاحيتها أو انتزاع أغلبها. فقبل صدور ميثاق الحقوق دخلت المملكة المتحدة في ثلاثة حروب أهلية بين الملك ومنازعيه السلطة من مؤيدي سلطة البرلمان، أو بعبارة أخرى بين الملكيين والبرلمانيين، أو بين السلطة والثوار. وامتدت الحرب الأولى بين عامي 1642 و1646، والثانية بين عامي 1648 و1649، والثالثة بين عامي 1649و 1651. انتهت الحروب الأهلية بانتصار البرلمانيين الذي مهد فيما بعد بصدور «ميثاق الحقوق». وهذا يعني أن الحرب الأهلية لم تستمر أكثر من عشر سنوات.

أما لو تحدثنا عن التجربة الجمهورية في فرنسا؛ فاستمر الصراع بين

أنصار الملكية وأنصار الجمهورية منذ اندلاع الثورة الشهيرة سنة 1789 حتى سقوط الجمهورية الثانية باندلاع الحرب الفرنسية البروسية سنة 1870، أي قرابة ثمانين سنة. لكن لم ينتهِ الصراع حينها، ودخلت الجمهورية في صراع لم ينتهِ حتى قيام الجمهورية الخامسة 1959. وهذا يعني أن الصراع استمر قرابة 170 سنة حتى تخلصت فرنسا من الملكية بشكل كامل، وكذلك تخلصت من الصراعات الداخلية الأخرى لتصل إلى التوافق الشعبي وتستقر أركان الجمهورية، مع عدم تجاهل تأثير الحرب العالمية الأولى والثانية على هذه النتيجة وتوقيتها.

لا أريد الخوض في عدد ضحايا الصراع بين الملكيين والبرلمانيين في المملكة المتحدة وكذلك عدد ضحايا الصراع بين الملكيين والجمهوريين؛ لأنه من الصعب تحديد أرقام دقيقة، بيد أن طول فترة الصراع تعطي مؤشرًا واضحًا. وهذا يعني أن كفة الإيجابية تميل للتجربة الملكية الدستورية في المملكة المتحدة التي استقرت أركانها بأقل خسائر من الأرواح والفترة الزمنية.

نعود للشأن المحلي، لكن قبل ذلك وجب التفريق بين الجانب النظري اليوتوبي والجانب العملي الواقعي الكوسموبوليتي. نظريًّا، فإن كل إنسان سوي يحب العدل والمساواة سيفضل خيار الجمهورية بدل الملكيةالدستورية. لكن ماذا عن الواقع؟

الواقع يقول إن السلطة الحديثة منذ توليها الحكم عام 1965 حتى الآن لم تكن لديها نية وخطة استراتيجة مدروسة لتقويض الأعمدة التي تتكئ عليها القبلية والاختلافات العرقية مقابل تأسيس وإعلاء صوت المواطنة فوق كل صوت آخر. ما قامت به السلطة منذ توليها هو ترسيخ للقبلية لكن بما يتناسب مع ضمان بقاء قوة وتأثير القبيلة أقل من صوت السلطة.

لهذا لم تحاول السلطة استبدال المواطنة بالقبلية قدر ما أضعفت توحد القبيلة الواحدة وقللت ولاءات أفرادها لأكثر من شيخ في القبيلة الواحدة باتباع سياسة «فرق تسد». فما زالت القبائل الكبيرة التي أسهمت في ترسيخ السلطة الجديدة بعد انقلاب القصر سنة 1965 سواء كان بالتأييد المباشر للسلطة أو عن طريق شراء ولاءاتها بالمال والتنازل للسلطة الجديدة؛ تتمتع بامتيازات خاصة من قبل السلطة تتفاوت بين المال والجاه.

أيضًا حتى وقت قريب، لا يزيد عن ستين سنة، قامت ثورتان كبيرتان امتدتا لسنوات، الأولى ثورة الجبل يقودها الإمام المنتخب، والثانية ثورة الجنوب قام بها في البداية سكان الجنوب ثم توسعت لتشمل كل أرجاء البلاد تقريبًا. ولا نستطيع أن ننسى أيضًا الإشكالات الموجودة في منطقة رؤوس الجبال، كما يفضل أبناؤها تسميتها. أضيف أيضًا الولاءات القبلية خاصة التي تقطن على حدود الدولة التي تتجاوز الحدود الجغرافية للوطن.

وفي الحقيقة أن قرب تلك الصراعات زمنيًّا لا تضمن لنا عدم عودتها من جديد عن طريق إحياء الشعارات ذاتها التي رفعت سابقًا، لا سيما كما ذكرنا أن السلطة قامت بكل ما قد يسهم بعودتها من جديد مثل تغذية القبلية، وعدم تكريس مبادئ المواطنة، وتزوير التاريخ المتعلق بتلك الصراعات وعدم التصالح معه. وهناك مؤشرات واقعية تعطينا مؤشرات واضحة لإمكانية إحياء تلك الصراعات من جديد، حيث لا يخفى على أحد دعوات إعلاء الهوية المناطقية على الوطنية في بعض الأقاليم، كذلك مطالبات الانفصال عن البلاد أو تطبيق النظام الفدرالي ومنح بعض الأقاليم حكمًا محليًّا موسعًا. ويجب ألا ننسى أيضا، أن دولة الإمامة متمثلة في الإمام المنتخب لم يعلن انتهاؤها رسميًّا؛ فالإمام مات في المنفى الاختياري ولم يعترف بالسلطة الجديدة ولم يعلن في بيان رسمي انتهاء دولة الإمامة.

إذن، هناك إشكاليات كبيرة لا سيما أيضًا لو تحدثنا عن مستوى الوعي الشعبي السياسي، الغائب المغيب، تقف عقبة أمام سلاسة التحول السياسي في نوع نظام الحكم. ولا أعني هنا بالسلاسة التي تضمن لنا حجم تضحيات صفر ٪، ولكن تلك السلاسة التي يمكن مقارنتها بين خيار التحول من المملكة المطلقة إلى الجمهورية و خيار التحول من المملكة المطلقة إلى المملكة الدستورية.

وهناك مؤشر واضح حول غياب الوعي السياسي وهي انتخابات مجلس النواب؛ فما زال حتى آخر انتخابات جل من وصلوا للمجلس إذا لم يكن جميعهم وصلوا بالمال ودعم القبيلة. وفي ظل غياب الأحزاب والممارسة السياسة الميدانية هذه نتيجة طبيعية ومتوقعة. طبعًا لا يمكن أن نغفل عن سببين آخرين أيضًا وهما غياب الصلاحيات التشريعية والرقابية التي يجب أن يمتلكها كل برلماني لممارسة دوره المنوط به بالشكل الصحيح والمتعارف عليه في العمل البرلماني؛ وهذا أدى إلى عزوف الكثير من المؤهلين في خوض الانتخابات البرلمانية، لأنه لا يريد أن يكون مجرد دمية في برلمان بلا أجنحة. كذلك عدم وجود النية الصادقة من قبل السلطة في التنازل عن بعض من صلاحياتها الحالية من ضمنها التشريع؛ فمنذ انطلاقة المجلس سنة 1991 وحتى الآن ما زال مجلسًا استشاريًّا، رغم انطلاقته المتأخرة جدًّا مقارنة بتاريخ بداية السلطة الجديدة.

في الحقيقة موضوع الصلاحيات يحوم في دائرة مفرغة، لأن السلطة رافضة حتى الآن التنازل عن الجانب التشريعي بحجة أن المجلس بأعضائه الذين يصلون في كل دورة غير مؤهلين، وهذا فعلا صحيح. لكن كما ذكرنا قبل قليل أن عدم وجود الصلاحيات هو أحد العوامل التي أدت إلى عزوف من لديه المكنة والقدرة من المنافسة ودخول المجلس. بيد أن هناك جانبًا مهمًّا

له علاقة مباشرة بشكل الممارسة الانتخابية في الدولة التي تقوم على دعامتين أساسيتين في فوز المرشح: المال والقبيلة- وهي طبيعة السلطة الشمولية التي تسيطر على كل مدخلات العقل الجمعي لدى المواطنين، من إعلام وتعليم وحتى مؤسسات المجتمع المدني المحدودة. إذن فالسلطة لها الدور الأكبر في ضعف الممارسة الانتخابية.

أعود لذات التساؤل المطروح في بداية المقال، هل يجب أن نؤيد النظام الجمهوري أم الملكية الدستورية كتحول منشود بعد الملكية المطلقة التي لا تواكب ومعطيات العصر من تطلعات وطموحات الشعوب في بناء الدولة الحديثة؟ استنتاجًا من المقاربة المقتضبة التي تطرقنا لها، نحن بين طريقين: طريق المثل العليا دون النظر لجميع العواقب وحجم التضحيات وطريق إدراك الواقع وإمكانياته مع بعض التنازلات.. فأيهما نختار؟! إن الجواب هذا يقودنا لسؤال آخر قد يطرحه البعض كحل مبسط لهذا الإشكال: بشكل عام هل الشعوب قادرة أن تتعلم من مجريات التاريخ وتسابق الزمن إلى التحول الديموقراطي بتضحيات أقل؟! لنفترض أن الجواب بنعم بحكم سرعة المعلومة وسهولة الوصول إليها في زمن الإنترنت ومواقع التواصل، هل شعبنا على سبيل المثال رغم كل الظروف التي سردانها في الأعلى ممكن أن ينطبق عليه الحال أيضا؟!

المرفق 3

قراءة: الإرهاب بين الإسلاموفوبيا والغربفوبيا

يكاد يكون مصطلح «الإرهاب» من أكثر المصطلحات ترددًا في وسائل الإعلام وخطب السياسيين وحتى في أجندة وبرامج المرشحين والأحزاب السياسية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر حتى اليوم، وكذلك أزعم حتى الغد البعيد جدًّا. وظفته كثير من الدول الكبرى كأحد وسائل الصراع الناجعة في تحقيق مصالحها، وبوجه الدقة مصالح المسيطرون على الرأي العام وعلى ديموقراطيتها واستثماراتها من شركات عابرة القارات عن طريق الانتقائية في التصنيف حسب أهواء المصالح السياسية والاقتصادية. ولهذا روجت الولايات المتحدة، أقوى قوة بحكم قبضتها الاقتصادية والعسكرية المطلقة، لتصنيفاتها وتعريفاتها للإرهابيين والإرهاب بشكل عام بحسب ما يتناسب مع مصالحها ومصالح حلفائها، وأصبحت كباراديغم أعلى يحتذى به في حربها على الإرهاب عسكريًّا وإعلاميًّا. وبدون أدنى شك من الخطأ التعميم أيضًا على كل ما هو غربي وإلصاق به تهمة المؤامرة كما تفضله بعض الحكومات العربية المستبدة كأسهل وسيلة للإلهاء والسيطرة على شعوبها. هذه السياسة كذلك انعكست وأثرت على العقل الجمعي العربي كمتلقٍ، وكناقد، فضلًا عن تأثير تأويلات الدين وخاصة السياسية منها في شيطنة وتكفير الآخر وإلصاق به تهمة العداء والمؤامرة على الدين الإسلامي. كل هذه التداخلات المعقدة دفعتني لعمل مقاربة حول واقع الإرهاب والإعلام والمتلقي.

بيد أن تعريف الإرهاب لم يظهر في القواميس العربية حسب شكلها وتعريفها الحالي إلا حديثًا، واشتق المصطلح من الفعل المجرد «رهب» الذي كان موجودًا في القواميس القديمة ويعني أرهب وخوف وأفزع، إلا أن ممارسة الإرهاب حسب المفهوم الحالي كأحد الوسائل المستخدمة في الحروب والصدام والسيطرة بين الحضارات في حروبها السياسية والجماعات الدينية في حروبها الطائفية والمذهبية، يعد فعلًا قديمًا مارسته البشرية قديمًا وحديثًا على مر العصور. وهذا بخلاف ما تروج له بعض القوى حاليًّا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مقصودة أو غير مقصودة، وربط فعل الإرهاب بجماعات معينة ودين معين كأفعال ووسائل مستحدثة لتحقيق أجندتها.

من خلال بحثي البسيط عن تعريف الإرهاب وجدت العشرات من التعريفات الرسمية لمراكز ومنظمات ومؤسسات حكومية وغير حكومية، عربية وأجنبية. الغريب جدًّا أني لم أجد تعرفين يتماثلان في المفهوم تقريبًا، وهنا تكمن أحد أهم الإشكاليات. لا يوجد مفهوم واضح ودقيق متفق عليه دوليًّا لتعريف الإرهاب. قد يرجع السبب وراء ذلك إلى عاملين: الأول كما أشرت له سابقًا وهو أن التعريف يجب أن يتناسب مع مصالح الجهة التي أصدرت التعريف. ثانيًا: قد لا يكون هذا السبب بعيدًا عن السبب الأول الذي ذكرته إلا أنه أكثر تعقيدًا لأنه لا يعتمد على مصالح مادية واضحة المعالم قدر ما يعتمد على عقائد يؤمن بها إنسان ويكفر بها الآخر ويرفضها وينظر إلى متبنيها كعدو أولًا وإرهابي ثانيًا؛ وأعني هنا العمل النضالي الثوري سواء كان باسم الوطن أو العقيدة، والطرف الآخر هو مكافح للعمل النضالي. وهناك أمثلة كثيرة أهمها في الوقت الحاضر ما يحدث بين المنظمات الفلسطينية

والاحتلال الإسرائيلي.

إذن ما هو الإرهاب؟ لكن قبل أن أتطرق للتعريف أود أن أشير إلى مسألة مهمة، لكيلا أقع في ذات المطب الذي انتقدته سابقًا عند تعريف فعل الإرهاب، أزعم أني حاولت أن أقدم تعريفًا مجردًا من أي مصالح شخصية وغير مبطن بعقائد سواء ثورية أو دينية. الإرهاب يعني هو جريمة يستخدم فيها العنف والقوة أو التهديد بها، ضد مدنيين، بطريقة منظمة، لنشر الرعب والرهبة من أجل تحقيق مصالح ومكاسب معينة، سواء كانت سياسية أو دينية أو عدمية. ومن خلال هذا المفهوم أستطيع أن أصنف أنواع الإرهاب الحالي كالآتي: 1- إرهاب سياسي. 2- إرهاب ديني. 3- إرهاب ثوري. 4- إرهاب عدمي.

الإرهاب السياسي: ذلك النوع من الإرهاب الذي يتعلق بسياسات سلطة ما ضد شعبها من منطلق الحفاظ على الاستقرار والأمن القومي، أو ضد شعوب أخرى من منطلق إمبريالي وقانون الغاب، القوي يأكل الضعيف. وهذا مباشرة يجرنا نحو نظرية المؤامرة التي تستخدمها السلطات المستبدة، التي أناخت بكلكلها وجثمت على صدور شعوبها منذ عقود طويلة، كشماعة لممارسة إرهابها ضد شعوبها والترويج لها عن طريق وسائلها الإعلامية في أشكال مختلفة من البروبجاندا المبتسرة، كأحد وسائل الإلهاء عن القضايا الكبرى الداخلية، والتجييش نحو فكرة وهمية غير موجودة واقعيًّا إلا في عقل مدبريها. وأرى أن الواقع العملي جد مختلف؛ فقانون الغاب هو سيد الواقع، والدول القوية عتادًا واقتصادًا تسيطر بشكل مباشر وغير مباشر بالدول الأخرى الأضعف، وتبحث عن مصالحها حتى خارج حدودها الجغرافية، وحتى لو أدى ذلك إلى انتهاك سيادة وحرمة الآخر من

الدول. ولهذا بدل تجييش الشعب نحو فكرة وهمية ليبقى أسيرًا لها، ويفسح المجال للسلطة في تزعم الشعب بكل أريحية تحت وطأة الاستبداد وغياب العدالة الاجتماعية والرؤية الاقتصادية بحجة الممانعة والتصدي للمؤامرة، على الدولة الضعيفة أن تقوي نفسها من الداخل؛ فتعزيز فكرة المواطنة وقوة التعليم وانتشار العدالة الاجتماعية ووجود رؤية اقتصادية هو أفضل دفاع وحماية لأي دولة من أي عدو خارجي متربص. وهذا ما أكده ابن خلدون في مقدمته عندما قال: «لا نلوم الخارج الذي دخل؟ بل اللوم على الداخل الذي خلق الفراغ».

ولأن العالم يدار بقانون الغاب كما أسلفت الذكر، مارست القوى العظمى شتى أنواع الإرهاب وقت الحاجة والضرورة ضد كل من يقف أمام مصالحها. هذا ما قامت به على سبيل المثال الدولة العثمانية ضد الشعوب المحيطة بها، وهذا ما قامت به النازية ضد شعوب أوروبا الأخرى، وهذا أيضا ما قامت به فرنسا ضد الشعب الجزائري المحتل يوما ما. حديثا، ما قامت به أمريكا في أفغانستان والعراق لا يختلف عن هذا المفهوم من الإرهاب. والأنكى من ذلك، ظهور منظرين لهذا النوع من الإرهاب حتى مسمى نظرية الفوضى الخلاقة!

الإرهاب الديني: ذلك النوع من الإرهاب الذي يتعلق بدوغمائيات العقيدة وتشريعات الدين نفسه التي تنظر للآخر المختلف بنظرة الكافر المباح دمه، ويتفاوت مستواه مع اختلاف التأويل للموروث الديني. ولو تحدثنا عن إرهاب الإسلاموي وهذا ما يهمني أكثر لسببين: الأول، أكثر نوعًا من الإرهاب الديني انتشارًا في العالم في الوقت الحالي. ثانيًا، خلفيتي الإسلامية تحتم عليّ تشخيص مشكلتي وتفكيكها أولا ومن ثم المحاولة

للوصول إلى حلول إن أمكن ذلك قبل الحديث عن الديانات الأخرى. بيد أني لا أنفي ولا أؤكد وجود التطرف في الأديان والطوائف الأخرى. وليس غرضي أيضًا نفي أو تأكيد وجود أجندات استخباراتية خلف أي حادثة إرهابية إسلاموية، وحتى خلف ولادة أي مكون إرهابي إسلاموي. لأن كلا السياقين بعيد كل البعد عن قضيتنا الداخلية المحورية. فنقد الأول لا يعالج إشكالياتنا، ومناقشة الثاني والاستسلام لفكرة وجود المؤامرة على الإسلام والدول العربية ما هو إلا إلهاء يبعدنا عن أصل المشكلة. لكن، لو افترضنا جدلًا وتجاوزًا، أن كل عمل إرهابي خلفه مخطط استخباراتي؛ فلا بد من وجود مفاتيح خاصة تُستخدم لفتح أبواب تلك الأجندة. وإحدى هذه المفاتيحالتأويلات الإرهابية للموروث الإسلامي.

ولو أخذنا الحالة العراقية كمثال على الإرهاب الديني بين المذاهب، سيتضح جليا لنا تداخل الإرهاب السياسي الخارجي والداخلي مع الإرهاب الديني. وعلى الرغم أن الإمبريالية الغربية لها دور في تطور هذا الوضع الدموي، إلا أن الخلافات المذهبية والمذابح الدموية المازوشية بين الطوائف الإسلامية مع بعضها بسبب التأويلات الإرهابية عميقة وقديمة جدًّا. من المغالطة أن ننكر أثر العدوان الأمريكي في تفاقم الوضع، بيد أن العدوان لم يخلق هذه التأويلات المتطرفة الدموية، بل كان موجودًا في كل بيت وكل عقل مسلم تقريبًا. فقط كان مكبوتًا بالقوة في أوقات ما. ولهذا نحن لا نريد علاجًا سطحيًّا يدغدغ مشاعر المسلمين المهزومين معنويًّا وماديًّا قدر ما نريد علاجًا يعالج أصل المشكلة، لأن إلقاء اللوم على الآخر لا يعالج المشكلة إطلاقًا وستبقى ثغرة يستخدمها العدو دائمًا.

الإرهاب الثوري: هو إرهاب غير واضح المعالم لأن صاحبه ينظر إليه

كعمل نضالي وثوري وأحد الأدوات التي تنطبق عليها النظرية الميكافيلية «الغاية تبرر الوسيلة»، بينما يصنفه الواقع عليه الجرم، ومكافحُه بأنه عمل إجرامي وإرهابي. وبغض النظر عن الكثير من التفاصيل التي قد تكون مهمة ومفصلية، إلا أن الأهم هو المبدأ الذي لا يمكن أن يتجزأ؛ فكل عمل عنيف يُستهدف فيه المدنيون بالقتل أو التهديد بغض النظر عن فاعله وغايته وتوجهاته، هو بدون أدنى شك عمل إرهابي. وغالبًا في مثل هذا النوع من الإرهاب تجد كلا الطرفين يمارسان الإرهاب ضد الآخر مبررين ذلك بغايتهم النبيلة. والأمثلة كثيرة على ذلك: أشرت سابقًا على الصراع الدائر بين المنظمات الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي، كذلك ما يحدث بين الحكومة السورية والثوار بمختلف توجهاتهم وعقائدهم، وكذلك ما يحدث في ليبيا بين أطراف الصراع. وقديمًا ممكن أن نستدل على الثورة الفرنسية والروسية والبلشفية بعد ذلك بين الحكومات والثوار. وينطبق الحال كذلك على سبيل المثال على منظمة فدائيي أمريكا، والألوية الحمراء وجماعة بادرماينهوف.

الإرهاب العدمي: هو ذلك النوع من الإرهاب الذي يتعلق بالفرد نفسه دون وجود أجندات منظمة تدار من جهات معينة. وليس من المنطق أن يصل إنسان لهذا المستوى من التوحش والمازوشية إلا إذا كان يعاني من أمراض نفسية جاءت نتيجة عقد ما. وقد يُستخدم هذا النوع من الإرهاب في تحقيق رغبات وغايات الإرهاب الديني والسياسي والثوري، كأحد الوسائل السهلة في توظيفها لتطبيق تلك الأجندة مثل ما أشرت على سبيل المثال في توصيف الإرهاب الداعشي. ومؤخرًا حدثت في أوروبا عدة حالات إرهابية فردية لأسباب مختلفة مثل ما حدث في ألمانيا المعروف إعلاميًّا بهجوم ميونخ الذي راح ضحيته تسعة قتلى من المدنيين. وكذلك الهجومان اللذان تم

تنفيذهما بالساطور في ألمانيا وراح ضحيتهما قتيلة وعدة جرحا.

واقع الإعلام

من ضمن الحادثتين اللتين ذكرتهما وتم تنفيذهما بالساطور، إحداهما قام بها شاب أفغاني طالب للجوء في ألمانيا ويبلغ من العمر سبعة عشر عامًا على ركاب قطار مدنيين. ما لفت انتباهي وأنا أتصفح صحيفة «الجارديان»، التي أثق في موضوعيتها بشكل أكبر كصحيفة ناطقة باللغة الإنجليزية من الصحف الكبرى الأخرى، عنوان تقرير الحادثة التي أشرت إليها وجاء كالآتي «مراهق يهاجم ركاب قطار بساطور وسكين في ألمانيا»، وذكرت بقية التفاصيل في محتوى التقرير. ما استوقفني في هذا التقرير هو تحرر السياسة التحريرية للصحيفة من التوجه العام المسيطر عليه بشكل أكبر هاجس الإرهاب الإسلاموي. كان بإمكان أن تعنون الصحيفة تقريرها كالآتي «إرهابي مسلم من أصول أفغانية يهاجم ركاب قطار في ألمانيا». هل هذا العنوان خاطئ؟ طبعا لا، لكن في المناخ الإعلامي الدولي الحالي سيعطينا مباشرة شعورًا بأن الصحيفة أسيرة هاجس الإسلاموفوبيا مثل ما وقعت في هذه الإشكالية معظم الصحف والقنوات الأجنبية الكبرى الناطقة باللغة الإنجليزية. ولهذا لاحظ الكثير من متابعي هذه الصحف والقنوات تباينها وعدم موضوعيتها في طرحها لمثل هذا النوع من الأخبار متأثرة بالمناخ السياسي العام وتفسيرات الدول الكبرى لمعنى الإرهاب. فعند أي حادثة إجرامية إرهابية قام بها مسلم، تسارع هذه الوسائل الإعلامية في توصيف الحادثة بأنها عمل إرهابي ومن قام بها شخص إرهابي، حتى تطور الوضع أكثر ليأتي هذا الحكم قبل الانتهاء من التحقيقات. لكن من جهة أخرى لو قام بهذه العملية غير مسلم سيذكر الخبر بشكل هامشي ولن يعطى المقدار

نفسه من التسليط الإعلامي، وسيوصف الفاعل أنه فقط مختل عقلي، ما دام غيرَ مسلم.

بيد أنه حتى بعض القنوات والصحف العربية الكبرى لم تسلم من هذه الفوبيا لكن بشكل معاكس؛ فحاولت تجييش الشارع العربي وليس فقط للفت انتباهه للإشكالية التي ذكرتها. فوصل الحال عند أي حادثة إرهابية يقوم بها مسلم يتم التبرؤ من الفاعل بالمطلق وأن ليس للإسلام أي صلة بالحادثة وما هي إلا نتائج الإرهاب الغربي على الإسلام والمسلمين. والمعيب جدًّا أن يصل الحال لدرجة الشماتة دون أي نوع من الاستنكار للفعل الإرهابي المشين. السؤال الأهم: هل سينتهي هذا النوع من الإرهاب بهذه المعالجات السطحية والساذجة؟!

واقع المتلقي

المتلقي الغربي بحكم معاشرتي له هو ضحية كغيره من المسلمين والعرب لأجندات الإعلام والسياسات الدولية. ومثل ما يوجد هناك أناس في دولنا تحرروا من هذه القبضة كذلك الحال عند المتلقي الغربي. لكن المحزن هو نسبة هؤلاء الناس الواعين المدركين للواقع مقارنة بالبقية الأخرى. لا أستطيع أن أقول إنها نسبة قليلة ولكن أيضًا ليست الغالبية العظمى. واتضح لي هذا من خلال نقاشاتي وحواراتي مع العديد من الأصدقاء والمعارف من جنسيات غربية مختلفة. لكن الجميل عند معظم هؤلاء وقت محاورتهم أن مداركهم غير مسورة بمقدسات تمنعهم من التحاور بشكل سلس؛ فالحجة والبرهان هو الميزان والكفة الحاسمة في نهاية أي حوار، بخلاف ما يحدث عند حوار عربي مع عربي آخر في الغالب!

ننتقل إلى المتلقي العربي أو بالأصح صورة معينة من صور المتلقي العربي. مؤخرًا ظهرت عدة أسماء في مواقع التواصل الاجتماعي عبر صفحاتها الشخصية بدأت تقدم نقدًا ساخرًا عبر نشر مقارنات لأحداث وقضايا وشخصيات إحداها تمثل العالم الإسلامي والعربي والأخرى في النقيض تمثل العالم الغربي المتقدم. وخلافًا للعادة، هذه المقارنات تحاول أن تظهر الجانب القبيح للحضارة الغربية والجانب المشرق للعالم الإسلامي والعربي. ورغم امتعاض البعض من هذا النوع من النقد إلا أني لاحظت هناك أيضًا تعاطفًا وإعجابًا من عدد من رواد مواقع التواصل الاجتماعي ليس بالهين. وشخصيًّا أراها ردة فعل صحية وأناصرها لأنها ستخلق توازنًا رغم عدم موضوعيتها في طريقة تفكيك الصورة للجانب الغربي في أحيان كثيرة، وهذا ما ينقصها. وأصفها بردة الفعل لأنها أتت كنتيجة للتقديس الأعمى للغرب وجلد للذات بشكل مفرط من قبل البعض قد يكون سببه أيضًا عدم فهم وتفكيك مفهوم «الغرب». لذا تفكيك مفهوم «الغرب» الذي نعجب به كثيرًا ونكرهه في ذات الوقت كثيرًا، مهم جدًّا. لكن لماذا هذه الازدواجية في الصورة وما سببها؟! فنجد هناك ثمة من يحارب كل ما هو غربي، لأنه فقط غربي! وهل الغرب بضاعة في محل بيع بالجملة، لكي تشريها بالكامل أو ترفضها بالكامل؛ فهناك إمبريالية نرفضها ونندد بها، وهناك تكنلوجيا نحتاجها ونتعلمها، وهناك مجتمع مدني نتشارك ونتعاون معه، وهناك عادات وتقاليد يأخذ ويرفض كل فرد منها حسب قناعاته الفردانية الخاصة.

هذا المتلقي ذاته وقع أسير هاجس الغربفوبيا؛ فعند أي حادثة إرهابية يقوم بها مسلم تكون ردة فعله واحدة ومحددة. في البداية مباشرة سيحاول أن يبرئ الإسلام من ذلك الفعل الإرهابي المشين. ثانيًا، وهي مرحلة «مؤسفة» أن يصل حال البعض لهذا المستوى من الانحطاط للأسف، أن يحاول تبرير

الدم البريء بدم بريء آخر حتى دون أي نوع من الاستنكار! وكان الأوجب كمتلقٍ من هوية إسلامية، وكإنسان أولا، اتخاذ موقف أخلاقي برفض الإرهاب بكل أشكاله، بالمطلق. ومن ثم يأتي باب النقد عن طريق تشخيص المشكلة والمحاولة في تفكيكها وإيجاد الحل إن أمكن، بدل الانشغال في البحث عن المبررات؛ فالإرهاب الإسلاموي هو تراثنا الدموي، وإسلامنا السياسي، واستبداد حكامنا، وإمبريالية الغرب.

هناك مشكلة أخرى يعاني منها المتلقي العربي والمسلم، أنه عالق بين فريقين: الأول والأوسع يريد الماضي والأموات أن يحكمونا. والفريق الآخر والأقل يريد المستقبل وتهميش التراث أن يحكمنا، وبين هذا وذاك المسلمون ضائعون. ومن الأفضل والأنفع ألا نتجاوز الموروث الإسلامي وتأويلاته الإرهابية، لو أردنا تجاوز عواقبه وأضراره. يجب أن نفككه بمنهجية النقد التاريخي والفيلولوجي ونكسر التابوهات ونصهر المقدسات.

أختم مقالتي برسالة بسيطة لكن مهمة جدًّا للارتقاء بحسنا الإنساني: من العار أن نبرر الخطأ بخطأ آخر! ومن العار أن نبرر الدم البريء بدم بريء آخر! ومن العار أن نبرر الظلم بظلم آخر. أليس هذا هو منطق الاستبداد؟! أليس هذا هو منطق الإرهاب؟! ولأن الأخلاق مطلقة، ولأن المبادئ لا تتجزأ؛ وجب رفض الإرهاب مهما اختلف المكان، وتعددت الأسباب، وتنوعت الأهداف، وتباينت المنطلقات والأيديولوجيات، يبقى الإرهاب واحدًا والنتيجة واحدة.

يقول شمس التبريزي: تجد السكينة عندما تتخلى عن الحاجة لجذب انتباه الآخرين، والحاجة لإثبات أي شيء لأي شخص.

الكاتب

انتهى،

غراتس – النمسا

الأحد – 27 سبتمبر، 2020

محمد الفزاري

كاتب وصحافي عماني مقيم في لندن. مؤسس شبكة مواطن الإعلامية ورئيس تحرير مجلة مواطن.

صدر للمؤلف:

- خطاب بين غيابات القبر، رواية، دار الإنتشار العربي، 2013م.

- عمان.. تحديات الحاضر ومآلات المستقبل، إعداد وتحرير، دار مسارات للنشر والتوزيع، 2016م.

محمد الفزاري

اللايقين

حكاية

أكثر خبر يهز بدني ويخيفني، خبر الموت المفاجئ.

ليس لأني أخاف الموت؛ فكم تمنيت الموت في لحظات اكتئاب حادة، وكم حاولت الانتحار وخططت له، لكنه يريني بكل وضوح حقيقة هذه الحياة التافهة. إنها ليست أكثر من عبث نحاول أن نتجاهله رغم معرفتنا به. وكل ما ننسى وننغمس في الحياة ومتعها بشعور أو لا شعور، يخبطنا الموت المفاجئ على رؤوسنا خبطة تهوي بنا إلى قاع عدمية متطرفة نفقد بسببها رؤية جميع الألوان، إلا اللون الأسود. لا ترى إلا سوادا إذا نظرت خلف ظهرك، ولا ترى إلا سوادا إذا نظرت أمام قدميك، وحتى لو حاولت أن ترمي بنظرك بعيدا محاولا تجاوز السواد لا تستطيع، تراه ينتظرك هناك مبتسما:

تعال.. تعال.. تعال.

ISBN: 978-1-78871-016-9
9 781788 710169
دار عرب للنشر والترجمة
DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION
منأى
دفي الجبر